مخلب الشيطان

إدوارد فيلبيس أوبنهايم

ترجمة عبد الفتاح عبد الله

مخلب الشيطان

تأليف
إدوارد فيليبس أوبنهايم

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

مخلب الشيطان

إدوارد فيليبس أوبنهايم

The Devil's Paw

E. Phillips Oppenheim

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٤ ٢٤٤٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي. جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي باللغة الإنجليزية خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١٥
الفصل الثالث	٢٧
الفصل الرابع	٣٣
الفصل الخامس	٤١
الفصل السادس	٤٧
الفصل السابع	٥٥
الفصل الثامن	٦٩
الفصل التاسع	٧٩
الفصل العاشر	٨٧
الفصل الحادي عشر	٩٧
الفصل الثاني عشر	١١٣
الفصل الثالث عشر	١٢٥
الفصل الرابع عشر	١٣٥
الفصل الخامس عشر	١٤٣
الفصل السادس عشر	١٥١
الفصل السابع عشر	١٥٧
الفصل الثامن عشر	١٦٩
الفصل التاسع عشر	١٧٧
الفصل العشرون	١٨٣

الفصل الحادي والعشرون ١٩١
الفصل الثاني والعشرون ١٩٩

الفصل الأول

كان الرجلان — وهما الساكنان الوحيدان لغرفة استقبال البيت الريفيِّ الرثة بعضَ الشيء — يتناولان شرابَهما في تريُّث، ليس كمحبَّين للنبيذ، وإنما ككائنَين بشريَّين وصديقين حميمَين يَهنآن تمامًا بصحبة أحدهما الآخر وما يُحيط بهما. في الخارج، كانت الرياح تعوي فوق الأهوار ودفقاتٌ متقطعة من الأمطار تنهمر على زجاج النوافذ. كان الوجود بداخل الكوخ مريحًا أكثرَ على أي حال؛ إذ كان في ذلك ابتعادٌ عن مختلِف الظروف الجوية المحيطة. كان المفرش الذي يُغطي الطاولة الخشبية من الكتان الفاخر، وكان لدورق النبيذ والكئوس شكلٌ جميل؛ وكان هناك ثمار الجوز، وفي ركن بعيد سيجارٌ من علامة تِجارية شهيرة، وسجائرُ من أحد متاجر بيع التبغ الذائعة الصيت. لكن فيما وراء تلك الواحة الصغيرة، كانت كل الشواهد تُشير إلى مسكن مستأجَر. فقد عُولِجت خِرَقٌ في الستائر المغلقة بإحكامٍ بعضها إلى بعض باستخدام دبوس مشبك. وكانت مساند الكراسيِّ الوثيرة المبطَّنة بشعر الجياد مكسوَّةً بأغطيةٍ قبيحة المنظر، وكانت الصور الفوتوغرافية التي تزيِّن الجدران غريبةً لكنها كانت نموذجًا نمطيًّا لمُثُل القرية، وكان السجاد رثًّا باليًا، والباب مغلقًا بمِزلاج بدلًا من المقبض المعتاد. وفي أحد جوانب الغرفة كانت مَضارب جولف متناثرة هنا وهناك، وحقيبة رياضية ضخمة لحمل الطرائد المصطادة، وعِدَّة صناديق تحتوي على طَلَق خرطوش. وكانت بندقيَّتا صيدٍ توجدان موضوعتين على الجزء المتبقِّي من الأريكة. ولم يكن الوضع في حاجةٍ ماسة إلى زيِّ المُضيف، مايلز فورلي، لتتضح حقيقةُ أن هذا المكان كان المسكنَ المؤقت لزائر لأهوار بلاكيني جاء بحثًا عن الرياضة والترفيه.

كان فورلي — وهو رجلٌ عريض الكتفَين متورد الوجه ذو بَشرة ضاربةٍ إلى السُّمرة وشعرٍ يتخلَّله الشيب — لا يزال يرتدي حذاءَ البحر الطويل والقميصَ الصوفي الذي يرتديه

صائدو البط. أما رفيقه، على الجانب الآخَر — وهو رجل طويل القامة نحيفُ البِنية، له جبهة عالية وعينان صافيتان، وفكٌّ قوي وفمٌ مستقيم ودقيق — فكان يرتدي ثياب العَشاء العادية المدَنية العصرية. ولعل الاختلاف بين الرجلَين كان أساسًا لتخمين طبيعة العلاقة بينهما. فقد كان فورلي — وهو من عَامَّة الشعب — يبدو عليه الانتماءُ لسلالة معينة من العامة، بل التشبث بها، وكان ذلك الانتماء يَظهر أكثرَ ما يظهر في كلامه أو في إشاراته. كان الرجل عضوًا في البرلمان عن إحدى الدوائر الانتخابية التابعة لحزب العمال، وكان تجسيدًا قيمًا وحصيفًا لمبادئ العامل وأفكارِه. وما كان ينقصه فيما يتعلق بالسِّمات العليا للخَطابة يُعوَّض عنه بالمنطق السليم القوي. ولم تلقَ الاشتراكية الخادعة التي ظهرت في ذلك الوقت، بمذاهبها ونظرياتها العديدة، إلا تأييدًا ضئيلًا على يدَيه. كان يُمثِّل العنصر الرصين في سياسات حزب العمال الإنجليزي، وكان معروفًا أنه رفضَ مقعدًا في مجلس الوزراء من أجل الحفاظ على استقلالٍ مطلَق. كما كان يتمتع بموهبةٍ استثنائية في الصمت والتكتم، وهو ما يُمثِّل نقطةَ قوة بالنسبة إلى رجلٍ من طبقته، وفيه ألقى رئيسُ الوزراء قصيدتَه الشهيرة التي يقول فيها إن فورلي هو رجل حزب العمال الذي كان يخشاه كثيرًا، لكنه لا يرهبه أبدًا.

لم يكن جوليان أوردين، الذي كان يتمتع بمظهر خارجي واعد في العديد من الجوانب أكثر من صديقه، يستطيع أن يتباهى باختلافاتٍ ومميزات مماثلة. فقد كان الابنَ الأصغر لرجل أحمقَ يقطن في الجوار، وكان قد بدأ حياته محاميًا، وحقَّق في هذه المهنة نجاحًا معقولًا، وقضى مدةَ تجنيد قصيرةً لكنها لم تكن مُخزية، خرجَ منها بعَرَج خفيف دائم، وشغَل المدة الفاصلة بينهما في العمل في وظيفة ليس بها أيُّ أضرار كرقيب. بدَت صداقته بفورلي في ظاهرها أغربَ من أن تكون أيَّ شيء آخر سوى علاقةٍ عارضة. وربما لم يفهم أيُّ شخص آخر هذه العلاقة عدا الرجلَين نفسَيهما، وكان كِلاهما يتمتع بموهبة الصمت.

سأل جوليان أوردين وهو يعبثُ بساق كأسٍ نبيذه بأصابعه: «ماذا تعني كل تلك الأحاديث الدائرة حول السلام؟»

غمغم فورلي قائلًا: «مَن يدري؟» وأردفَ: «لكن لا بد أن تصطنع ضجَّتها اليومية.»

«من وجهة نظري أنها مُدبَّرة.»

«شيء ينبغي أن نحذر منه، أليس كذلك؟»

تململَ جوليان أوردين في مكانه في شيءٍ من عدم الراحة. وراحت أصابعه الطويلة المتوترةُ تعبث بالعصا التي كانت تقفُ دائمًا بالقرب من كرسيِّه.

ثم سأل بنبرة هادئة: «أنت لا تعتقد في ذلك، أليس كذلك؟»

نظر فورلي أمامه مباشرة. بدَت عيناه معلَّقتَين ببريق المصباح المتلألئ على دورق النبيذ الزجاجي.

وقال: «أنت تعرف رأيي في الحرب يا جوليان. إنها إرثٌ قذر من أجيال الحكومات المستبدَّة، لا يُطاق ولا يُحتمَل. لا توجد ديمقراطية في العالم أرادَت الحربَ أبدًا. كلُّ ديمقراطيات العالم ترغب في السلام وتجنح إليه.»

قاطعَه جوليان قائلًا: «لحظة واحدة. ينبغي أن تتذكَّر أن الديمقراطية نادرًا ما تمتلك الروح الإمبريالية، ولا يمكن لإمبراطورية عظيمة أن تستمرَّ من دونها.»

فجاء ردُّه قويًّا إذ قال: «هذا محضُ هُراء! بإمكان إمبراطوريةٍ عظيمة تمتدُّ من المشرق إلى المغرب أن تظل مترابطةً على نحوٍ أفضلَ بكثير من خلال الحكم الديمقراطي. فاستخدام القوة هو الدافع الخفيُّ الدائم للحكم الفردي والمستبد.»

فقال جوليان: «هذه تعميمات. أريد أن أعرف رأيك بشأن إحراز سلام في الوقت الراهن.»

«ليس لديَّ رأيٌ بخصوص ذلك، شكرًا لك. أنت صحفيٌّ هاوٍ باعترافك، ولن أنساقَ وراءك إلى هذا النقاش.»

«هناك شيءٌ به إذن؟»

أقرَّ فورلي بلا مبالاة قائلًا: «ربما، أنت ضيفٌ عزيز يا جوليان. نبيذٌ معتَّق وجَوزٌ مزروع محليًّا! تلك إضافةٌ صغيرة لطيفة إلى طعامي البسيط! أيجب أن تعود في الغد؟»

أومأ جوليان برأسه إيجابًا.

«لدينا مجموعةٌ أخرى من الزوَّار قادمة، وستينسون من بينهم بالمناسبة.»

فأومأ فورلي. ثم ضاقت عيناه وظهرَت خطوطٌ صغيرة عند زاويتَيهما.

وأقرَّ قائلًا: «لا يُمكنني أن أتخيَّل. لا أعرف ماذا يأتي بستينسون إلى مالتينبي. أعتقد أنه بالكاد يستطيع أن يقضيَ عشر دقائق مع حاكمِ بلدتك من دون شجار!»

ردَّ جوليان بنبرةٍ جافة: «إنهما لا يقضيان عشرَ دقائق وحدهما أبدًا. فأنا أحرصُ على ذلك. وكما تعلم، تتمتع أمي بموهبة الجمع بين الأشخاص المثيرين للاهتمام. فالأسقف قادم من بين آخَرين. بالمناسبة يا فورلي، كنت أريد أن أسألك، هل تعرف أيَّ شيء عن امرأةٍ شابة — أعتقد أنها نصف روسية — تقول إن اسمها الآنسة كاثرين آبواي؟»

ردَّ فورلي في الحال وفي اقتضاب: «أجل، أعرفُها.»

استطردَ جوليان: «يبدو أنها عاشت في روسيا بضعَ سنوات. كانت أمها روسية، وكانت كاتِبة كبيرة في مجال الموضوعات الاجتماعية.»

أومأ فورلي.

ثم قال: «الآنسة آبواي على الشاكلة نفسِها أيضًا. لقد سمعتُ محاضرتها في إيست إند. لقد حصلت على تأييد المرأة لقضية العمَّال كما حصلت على تأييد كلِّ مَن قابلتهم.»

قال جوليان متأملًا: «إنها شابة شديدة الجاذبية إلى حدٍّ لافت.»

«أجل، إنها بَهية الطلَّة. قيل لي إنها تحمل لقبَ كونتيسة، لكنها تُبقي لقبَها هذا سرًّا؛ خشيةَ أن تفقد تأثيرها في الطبقات العاملة. لقد فعلَت خيرًا كثيرًا على طريق بوبلر. لم أكن أعتقد أنها من النوع المفضَّل لديك يا جوليان.»

«لماذا؟»

«إنها جادةٌ إلى أقصى الحدود.»

ابتسم جوليان ابتسامةً غريبة تأمُّلية.

ثم قال: «أنا أيضًا يُمكنني أن أكون جادًّا في بعض الأحيان.»

دسَّ صديقُه يدَه في جيب بنطاله واتَّكأ في كرسيِّه، وأخذ يُحدِّق بثبات في ضيفه.

ثم أقرَّ قائلًا: «أعتقد أن بإمكانك ذلك يا جوليان. في بعض الأحيان لا أكون واثقًا من قدرتي على فَهمك. وهذا أسوأ ما يتمتع به رجلٌ يحظى بموهبة الصمت.»

فقال الرجل الأصغر سنًّا مذكِّرًا مضيفه: «أنت أيضًا لست بالمتحدث الرائع.»

قال فورلي: «حين تجعلُني أتحدث في موضوعي المفضَّل، أجد صعوبة في عدم الاسترسال في الكلام، وأنت مستمعٌ رائع. هل لديك أي آراء شخصية؟ إنني لا أسمع منك ذلك أبدًا.»

سحبَ جوليان علبة السجائر نحوه.

واعترفَ قائلًا: «أوه، أجل، لديَّ آراء شخصية. ربما ستعرف ماهيَّتها يومًا ما.»

سخرَ منه صديقُه بمرح وبشاشة قائلًا: «إنك لرجلٌ غامض!»

أشعلَ جوليان سيجارتَه وراحَ يَرْقب الدخان وهو يتصاعد متمعِّجًا.

ثم قال: «لنتحدَّثْ عن البط.»

جلسَ الرجلان في صمتٍ بضعَ دقائق. بدَت العاصفة في الخارج وقد صارت أعنفَ وأشد. فنهض فورلي، وألقى بقطعة من الحطب في نار المدفأة ثم عادَ إلى مكانه.

ثم قال: «كان الإوزُّ يُحلِّق عاليًا.»

قال جوليان معترفًا: «كان أعلى من قدرتي على اصطياده.»

«لقد اصطدتَ أكثرَ مني بواحدة.»

«مجرد حظ. لقد هبطَ الطائر الخارجي نحوي.»

ثم ملأَ فورلي كأسَ صديقه وبعدها ملأ كأسه.

وسأل الأخير في فضولٍ متكاسل: «لماذا ترتدي عُدَّة الصيد حتى الآن؟»

نظرَ فورلي نظرةً خاطفة إلى ملابسه غيرِ اللائقة، وبدا عليه القلقُ والاضطراب لوهلة.

ثم قال: «ينبغي أن أخرجَ الآن.»

رفعَ جوليان حاجبَيه في دهشة.

وكرَّر جملة الأخير: «ينبغي أن تخرج؟» ثم استطرد: «في ليلة كهذه؟ يا صديقي العزيز ...»

ثم توقَّف عن الكلام فجأة. كان رجلًا سريعَ الإدراك، فقد أدرك أن مضيفه يشعر بالإحراج. لكن تخلَّل الحديثَ سكتةٌ تنمُّ عن حرَج. فنهض فورلي على قدمَيه وقطَّب جبينه. ثم أحضر برطمانًا من التبغ من فوق أحد الأرفف وراح يملأ كيسَه على مهلٍ:

وقال: «آسف إن كنتُ أبدو غامضًا أيها الرفيق القديم. لديَّ شيء صغير عليَّ القيام به. ليس بأمرٍ جلل، لكن ... حسنٌ، إنه شيء من النوع الذي لا نتحدث عنه كثيرًا.»

«حسنٌ، أنت مرحَّب بك لتحصل على كل متعةٍ يمكنك الحصولُ عليها من ذلك، في ليلة كهذه.»

وضع فورلي غليونه، بعد أن فرغ من مَلْئه، ثم شرب كأسَ نبيذه.

ثم قال بجدِّية وتجهُّم: «لم يتبقَّ الكثير من المتعة والتسلية في العالم الآن، أليس كذلك؟»

«لم يتبقَّ سوى القليلِ بالفعل. لقد مرَّت ثلاث سنوات منذ آخرِ مرة أمسكتُ فيها ببندقية صيد قبل الليلة.»

«هل استقلت حقًّا من مهنة الرقابة؟»

«في الأسبوع الماضي. لقد مررت بعامٍ قاسٍ فيها.»

«هل مللت؟»

«ليس كذلك بالتحديد. لكن عملي كان متراكمًا.»

«كانت تأتيك ملخَّصات أخبار، أليس كذلك؟»

فشرحَ له جوليان في شيء من المراوغة: «أنا صحفيٌّ هاوٍ من نوعٍ ما أيضًا، كما ذكَّرتَني الآن.»

«مندهش من أنك ظللتَ في مهنة الرقابة هذه المدةَ الطويلة. أليست مهنةً مملة إلى حدٍّ رهيب؟»

«في بعض الأحيان. لكننا نُصادف بعض الأشياء المثيرة بين الحين والآخر. على سبيل المثال، اكتشفتُ قبل بضعة أيام شفرةً مبتكرة للغاية.»

فسألَ فورلي في فضول: «وهل أدَّت بك إلى أي شيء؟»

«ليس في الوقت الراهن. لقد اكتشفتُها وأنا أفحصُ برقيةً مُرسَلة من النرويج. كانت موجَّهةً إلى شركةٍ حسَنة السمعة مملوكةٍ لتجَّار خشب إنجليز لديهم مكتبٌ في المدينة. وكانت تلك هي الكلمات الأصلية: «ألواحُ التنوب رفيعةٌ جدًّا بمقدار النصف.» لا يبدو بها ما يضر، أليس كذلك؟»

«بكل تأكيد. ما المعنى الخفيُّ إذن؟»

اعترفَ جوليان قائلًا: «ما زلتُ في حيرةٍ من أمري في هذا، لكن حين تُعالجها بالشيفرة تكون النتيجة «ثمانية وثلاثون برجًا على الحظيرة».»

حدَّق به فورلي لحظة، ثم أشعل غليونه.

ثم قال: «حسنٌ، من بين هاتين الجملتَين، أختار الجملة الأولى لوضوحها.»

ابتسم جوليان وقال مؤيدًا إياه: «وهذا ما سيفعله معظمُ الناس، لكنني واثقٌ من أن بها شيئًا ذا أهمية؛ معنًى ما يحتاج، بالطبع، إلى سياقٍ ليُفهَم فيه.»

«هل أجريتَ مقابلةً مع تجار الخشب في تلك الشركة؟»

«ليس بصورة شخصية. فهذا ليس من اختصاص إدارتي. لكن اسم الرجل الذي يُدير مكتبهم في لندن هو فين ... نيكولاس فين.»

سحبَ فورلي الغليون من فمه. وقطَّبَ حاجبَيه قليلًا.

«نيكولاس فين، عضو البرلمان عن حزب العمال؟»

«هو بعينه. تعرفه بالطبع، أليس كذلك؟»

أجابه فورلي وهو يُفكِّر: «أجل، أعرفه. إنه سكرتير اتحاد تجارة الأخشاب ونجحَ في الحصول على حصةٍ من شركة «هال» العامَ الماضي.»

واصل جوليان كلامه قائلًا: «أفهم أنه لا يوجد شيءٌ من أي نوع ضده شخصيًّا، رغم أنه بالطبع لا يستحق حتى الاحتقار كسياسي. لقد بدأ الرجل حياته مدرسًا ريفيًّا، وظلَّ يعمل ويرتقي بنفسه بمنتهى الشرف والنزاهة. وقد زعمَ أنه يفهم البرقية كما بدَت في صيغتها الأصلية. ولكن رغم ذلك، يبدو أمرًا شديدَ الغرابة أن تلك الرسالة نفسَها قد أعطت ذلك المعنى الذي أخبرتُك به، عند معالجتها بالشيفرة التي اكتشفتُها قبل بضعة أيام.»

قال فورلي: «بالطبع يمكن للشيفرات أن تقودك إلى ...»

ثم توقَّف فجأة. فرمَق جوليان صديقه الذي كان يميل إلى الأمام نحو علبة السجائر، بنظرة خاطفة. كانت ثمة تقطيبةٌ تعلو جبين فورلي. ثم سحبَ الغليون من بين أسنانه.

وتساءل: «ما الذي قلتَ إنك فهمتَه منها؟»

«ثمانية وثلاثون برجًا على الحظيرة.»

«ثمانية وثلاثون! هذا غريب!»

«وما وجه الغرابة؟»

سادَ الصمت لحظةً. ثم رمقَ فورلي الساعة الصغيرة على رف المدفأة. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بخمس وعشرين دقيقة.

وقال: «لا أعلم يا جوليان إن كنت قد سمعت من قبل بأن أعداءنا على الجانب الآخر من بحر الشمال من المفترض أنهم قسَّموا الساحل الشرقي لبريطانيا العظمى بأكمله إلى مقاطعاتٍ صغيرة مستطيلة الشكل، تتألف كلٌّ مقاطعة منها من بضعة أميال مربعة. وقد حصل أحد أصدقائنا في الخدمة السرِّية على خريطة لها منذ مدة.»

اعترفَ جوليان قائلًا: «لا، لم أسمع بهذا قط. وماذا بعد؟»

استطرد فورلي: «إنها مجرد مصادفة بالطبع، لكن تصادف أن المقاطعة رقم ثمانية وثلاثون هي تلك القطعة من ساحل البحر التي يقع هذا الكوخ في منتصفها تقريبًا، وتبلغ مساحتها ميلَين. إنها تمتدُّ إلى كلاي من جهة، وإلى سولتهاوس من الجهة الأخرى، وتمتدُّ نحو الداخل حتى حديقة داتشمان العامة. لا أقصد وجود أي علاقة فعلية بين البرقية التي لديك وهذه الحقيقة، لكن ذِكرك لها في هذه اللحظة بالذات ... حسنًا، مجرد مصادفة كما قلتُ.»

«لماذا؟»

كان فورلي قد نهضَ على قدمَيه. ثم فتحَ الباب وراحَ يُرهِف السمع في الرواق. وحين عاد كان يحمل بضعة معاطف من المشمَّع.

وقال: «أعرفُ يا جوليان أنك تحمل قدرًا من السخرية بشأن أمور الجاسوسية وما إلى ذلك. بالطبع كان هناك الكثيرُ من المبالغة، والكثير من الرجال يُثرثرون بشأن مهام الخدمة السرية على طول الساحل من هنا وحتى اسكتلندا، وهم لا يفقهون شيئًا عمَّا يعنيه هذا الأمر. لكن بعض تلك المهام أُنجزت بالفعل، وبأسلوبي المتواضع أقول إنهم قد أوكلوا إليَّ مهمةً أو اثنتَين هنا. لن أقول إن جهودنا قد أثمرَت شيئًا — فنحن أشبهُ بضباط الخدمة السرية الخصوصيين — لكننا بين الحينِ والآخَر نُصادف شيئًا مثيرًا للريبة.»

«إذن هذا هو سبب خروجك مرةً أخرى الليلة، أليس كذلك؟»

أومأ فورلي إيجابًا.

«هذه هي ليلتي الأخيرة. فسأغادر إلى المدينة يوم الإثنين ولن أتمكَّن من العودة مرةً أخرى هذا الموسم.»

«هل خُضت أيَّ مغامرات؟»

«ولا حتى من بعيد. لا أُمانع الاعتراف بأنني قد واجهت الكثيرَ من المواقف العصيبة وبعض المخاوف على تلك الأرض المستنقعية، لكنني لم أسمع أو أرَ أيَّ شيء بعدُ يستحق أن أُرسل تقريرًا عنه. لكن المصادفة أنني الليلة بصدد مهمة استطلاع خاصةً وسريعة.»

سأله جوليان في فضول: «ما معنى هذا؟»

جاءَه الردُّ المبهَم: «من المفترض أن يحدث شيء. فلدينا قائدٌ ذو خيال واسع.»

فألحَّ جوليان قائلًا: «لكن ما ذلك الشيء الذي يمكن أن يحدث؟ ما الذي ستخرج كي تمنعَ وقوعه على أي حال؟»

أعاد فورلي إشعال غليونه، ودسَّ قنينة خمرٍ في جيبه، والتقطَ عصًا سميكةً من أحد أركان الغرفة.

ثم أجابَ باقتضاب: «لا يُمكنني أن أخبرك. لكن ثمة تصورًا بالطبع بوجود اتصالات مع العدو تتم في مكانٍ ما على هذا الساحل.» ثم أضافَ: «آسف لتركك يا صديقي القديم. لا تسهر كثيرًا. أنا لا أُوصد الباب أبدًا هنا. تذكَّر أن تعتنيَ بنار المدفأة في الطابق العلوي، والويسكي موضوعٌ على نضد المائدة هنا.»

طمأنَ جوليان مضيفه قائلًا: «سأكون على ما يُرام، أشكرك. أظن أنْ لا جدوى من أن أعرضَ عليك القدومَ معك، أليس كذلك؟»

جاء الرد مقتضبًا إذ قال: «غير مسموح بذلك.»

صاحَ جوليان بنبرة خشوعٍ وتديُّن؛ إذ هبَّت زوبعةٌ من المطر عبر الباب الموارب قائلًا: «شكرًا للرب!» وأضاف: «ليلةً سعيدة وحظًّا موفقًا أيها الرفيق القديم!»

غرقَ ردُّ فورلي وسط زئير الريح. وأوصدَ جوليان الباب الذي كان يتسلَّل من تحته سيلٌ ضئيل من ماء المطر. ثم عادَ إلى حجرة الجلوس، وألقى بقِطعة من الحطب في النار، وسحبَ أحد الكراسي الوثيرة العتيقة بجوار النار.

الفصل الثاني

بعد مرور الدقائق القليلة الأولى من تركه وحيدًا، وعلى الرغم من نيته المتعمَّدة للاستسلام للراحة التامة لمدة ساعة، أدركَ جوليان شعورٌ غريب ومتزايد بالقلق والتململ. وبمساعدة عصًا ذاتِ رأس مطاطيٍّ كانت مستندةً إلى كرسيه، سرعان ما نهض جوليان على قدمَيه وراح يجوب أرجاء الغرفة، كاشفًا عن عرجٍ بدا أنه دائم. في تلك الشقة ذات السقف الأبيض، صار طوله ملحوظًا أكثرَ من ذي قبل، وأيضًا شكل كتفَيه المربَّع وقامته النحيلة القوية. أمسك بمسدسه لحظةً ثم وضعه؛ ورمقَ البطاقة الملصَقة في المرآة الرخيصة، التي تعلن عن أن ديفيد جريس يقوم بتأجير منازل وإقامة حفلات صيد؛ ثم التفتَ بارتعاشةٍ سرَت في جسده إثر تأمُّل لوحتَين شنيعتَين مطبوعتَين بالألوان، وروزنامة كنيسة معلَّقة على الحائط، وخريطة بالية للمنطقة، ثم عادَ إلى الطاولة التي كان جالسًا إليها. تخيَّر سيجارة وأشعلها. وسرعان ما شرع يتحدَّث إلى نفسه، وهي عادةٌ اكتسبها خلال السنوات الأخيرة من حياة فرضت عليه سرِّيتُها أن يكون وحيدًا.

تمتم في نفسه قائلًا: «ربما أكون مريضًا نفسيًّا. لكنني مقتنعٌ بأن ثَمة شيئًا يحدث، وهو ليس ببعيد عن هنا.»

وقفَ جوليان برهةً يُرهف السمع بانتباه وكانت السيجارة تحترق بين أصابعه. ثم انحنى قليلًا وخرجَ إلى الردهة الضيقة وفتح الباب المؤدي إلى المطبخ الواقع في الخلف، الذي كانت المرأة التي قد أتَت لتعتني باحتياجاتهما قد غادرته منذ وقتٍ مضى. كان كل شيء هناك في مكانه ومرتبًا على أكمل وجه. صعد الدرَج الضيق ونظر إلى داخل حجرة فورلي وإلى داخل حجرته، وفي الشقة الثالثة التي كانت مجهزةً بحمَّام مؤقَّت. لم يخرج بأي شيء. فاستدار ونزل السُّلم.

تابعَ وقد عبَس وجهُه قليلًا: «إما أنني لست بمريض، أو أنَّ أيًّا ما يحدث، فإنه يحدث خارج هذه الأبواب.»

رفع جوليان مزلاج الباب وكان تحته بِركة صغيرة من الماء وأطلَّ برأسه. وبدا أنَّ هناك انقطاعًا غريبًا لكل الأصوات المحيطة. ومن مكانٍ ما أمامه مباشرة، وعلى الجانب الآخر من سِتار الظلام المخملي الداكن، سمع صوتَ هدير الرياح البعيد وهو يُمزِّق وجه الأهوار؛ ومن ورائه كان المدُّ والجزر في البحر يصطدم بالحصى بنغماتٍ موحَّدة في زئير إيقاعي كئيب. لكن على مقربةٍ منه، ولسببٍ ما، سادَ صمتٌ شبه مُطبَق. كانت الأمطار قد توقفَت، والعاصفة هدأت. أما الرطوبة المالحة القوية فكانت منعشةً بصورة مضاعَفة بعد أن أُغلقت الحجرة الصغيرة المضاءة بالمصباح. وراح جوليان يتلكَّأ هناك عدةَ لحظات.

تمتم في نفسه قائلًا: «لا شيءَ يُضاهي الهواءَ العليل لدرءِ خيالاتك.»

ثم تجمَّد في مكانه فجأة. وانحنى للأمام في الظلام وراح يسترق السمع. لم يكن ثَمة خطأ هذه المرة. فقد وصلت إلى مسامعه صيحةٌ واضحة رغم أنها كانت خافتة وهزيلة.

«جوليان! جوليان!»

فصاحَ قائلًا: «قادم إليك يا رفيقي القديم. انتظر حتى أحضر مِشعلًا.»

عادَ بسرعة إلى داخل حجرة الجلوس، وأخذ مِشعلًا كهربائيًّا من دُرج الخِزانة الصغيرة ذات الأدراج، وبغضِّ النظر عن القوانين، خرجَ إلى الظلام مرة أخرى وصار يخترقه بفعل ذلك الشعاع الوحيد المضيء. كان الباب يفتح على طريقٍ ريفي مليء بالبِرَك المتلألئة. وعلى الجانب الآخر من الطريق، كان هناك شريطٌ من العُشب ينحدر إلى الأسفل؛ ومن بعده حاجز صخري عريض معلَّق عبره أطلال جسر للمشاة. أتاه الصوت من الماء، وكان في هذه اللحظة أكثرَ خفوتًا لكنه كان لا يزال متلهفًا. هُرِع جوليان للأمام، وجثا على ركبتَيه عند أحد جوانب الحاجز، ومرَّر يدَه تحت كتفَي صديقه وجرَّه إلى خارج المياه السوداء الراكدة.

صاحَ جوليان قائلًا: «يا إلهي!» وأضافَ: «ماذا حدث يا مايلز؟ هل انزلقت؟»

ردَّ عليه متمتمًا بصوتٍ خفيض: «سقطَ الجسر حين كنت في منتصف الطريق عليه. أعتقد أن ساقي قد كُسِرت. لقد سقطتُ ولم أستطع أن أُخلِّص نفسي؛ تمكَّنتُ فقط من إخراج رأسي من الماء والتشبُّث بعارضة الحاجز الأفقية.»

فحثَّه جوليان قائلًا: «تماسَك. سأجرُّك عبر الطريق. هذا أفضل ما يُمكنني أن أفعله.»

ثم وصَلَا إلى عتبة باب حجرة الجلوس.

فقال فورلي متلعثمًا: «آسف يا صديقي القديم!» ثم فقدَ وعيه.

استعادَ فورلي وعيه أمام مِدفأة حجرة الجلوس، ووجدَ شفتَيه مبللتَين بالبراندي وكان منقِذُه ينحني فوقه. وكان أولُ ما فعل أن راحَ يتحسَّس ساقه.

فطمأنه جوليان قائلًا: «إنها على ما يُرام. لم تنكسر. لقد فحصتُها بدقة. إن كنت قد استرحت إلى حدٍّ كبير، فسأنزل إلى القرية وأُحضر الطبيب. إنها على بُعد ميلٍ واحد.»

فقال فورلي مستجديًا إياه: «لا تَشغل نفسك بإحضار الطبيب مثقالَ ذرة. أنصت إليَّ. خُذ مِشعلك، واخرج وافحص ذلك الجسر. ثم عُد لتُخبرني بما لحقَ به.»

صاحَ جوليان معترضًا: «ما أهمية ذلك بحق السماء؟ إنما نحن في حاجةٍ إلى الطبيب. لقد غُمر الحاجز بالماء وأعتقد أن الدعامات قد سقطت.»

قال فورلي في إصرار: «افعل كما طلبت منك. لديَّ سبب لذلك.»

نهضَ جوليان على قدمَيه، وسار بحذرٍ نحو حافة الحاجز، وأضاءَ نور مشعله، ونظر إلى الأسفل. لم يكن متبقيًا من الجسر سوى جزءٍ واحد؛ أما الآخر فكان عالقًا بين الأعشاب على بُعد بِضع ياردات إلى الأسفل، وكان اللوح الخشبي الوحيد الذي يُمثِّل أساسًا له مقطوعًا بالمنشار، وكان القطع مستقيمًا ومستويًا. حدَّق جوليان في القطع لحظةً في دهشة. ثم استدارَ عائدًا نحو الكوخ، وهناك تلقَّى صدمةً أخرى. فعلى مسافة أربعين ياردةً من الممر الضيق، كانت هناك سيارةٌ صغيرة تقف بالقرب من سِياج شجري عشوائي، تراءت له بفعل اهتزازةٍ لا إرادية للمِشعل. التفت نحوها التفاتةً حادة، مبقيًا مشعله مَخفيًّا قدر ما أمكنه. كانت السيارة فارغة، وكانت سيارة كوبيه بلون رماديٍّ لؤلؤي، وكانت سيارة قوية بمقعدَين، وكان مقعداها موسَّدَين وهيكلها فاخرًا. ثم سلَّط المشعل على اسم مُصنِّع السيارة وعادَ إلى صديقه وهو غارقٌ في التفكير.

قال جوليان معترفًا حين دخل إلى غرفة الجلوس: «هناك أشياء لن أسخر منها مرة أخرى أبدًا يا مايلز. هل لديك عدوٌّ شخصي هنا؟»

أجابه فورلي: «ولا عدو واحد. فالجنود، وهم جميعًا خَلوقون، والمزارع العجوز في الخلف، وأبوك وأمك هم كل مَن أتعامل معهم في هذه الأرجاء.»

فصرَّح جوليان بتجهُّم قائلًا: «لقد قُطِع الجسر بالمنشار عن عَمد.»

أومأ فورلي. وبدا وكأنه كان مستعدًّا لهذه الأخبار.

وتمتمَ قائلًا: «ثَمة شيءٌ يحدث في هذه الأرجاء إذن يا جوليان.» وأضافَ: «هلا حلَلتَ محَلِّي واستكملتَ المهمة؟»

فكان الردُّ الفوري: «من دون أي تردد. أخبرني، ماذا عليَّ أن أفعل بالتحديد؟»

فاعتدلَ فورلي في جلسته، وكان لا يزال يُطبِّب ساقه.

فقال له آمرًا: «ارتدِ حذاءَ البحر والمعطف المشمَّع على ملابسك. وخُذْ معك عصاك وذلك المسدس ومشعلًا كهربائيًّا. لن تتمكَّن من عبورِ ما تبقى من الجسر، لكن على بُعد نحوِ خمسين ياردة تقريبًا إلى اليسار، حين تُدير وجهك عن مدخله، ستجد أنَّ عمق الماء نحو قدم واحدة فقط. اعبر من هذه المنطقة سيرًا، وتسلَّق لتصل إلى الجهة الأخرى، ثم عُدْ سيرًا عبر حافة الحاجز حتى تصل إلى المكان الذي ينزل فيه المرءُ من الجسر المكسور. هل هذا واضح؟»

«واضحٌ تمامًا.»

«بعد ذلك، سِرْ مباشرةً عبر ما هو أشبه بطريقٍ للسيارات حتى تصل إلى بوابة. وبعد أن تعبرها، ستتسلَّق تَبَّة ستجدها على يسارك ثم سِر عبر قمتها. إنه طريقٌ مُوحِش، وثَمة حواجز صخرية على الجانبَين.»

صاحَ جوليان معترضًا: «أف! يبدو أنك نسيتَ أنني ابن هذه المنطقة من العالم.»

استطرد فورلي: «ستصل إلى ما يشبه مَرقًى درَجيًّا بعد نحو ثلاثمائة ياردة. عند عبوره ستجد التبَّة متشعبةً إلى طريقين. التزِم بالأيسر منهما، وسيؤدي بك مباشرة إلى المستنقع. أدِر وجهك نحو البحر. ستجد صعوبة في التسلق، لكنك لن تتسلقَ سوى نحو خمسين ياردة فقط. بعدها ستصل إلى أرض وعرةٍ بعضَ الشيء؛ وهي تَبَّة من الرمال التي تنمو فيها الأعشاب. تحت هذه الأرض ستجد الشاطئ الحصويَّ والبحر. هناك ستتخذ موقعك.»

سأله جوليان: «هل يمكنني أن أستخدم مشعلي، وماذا سأراقب هناك؟»

أجابَه فورلي: «لا أعلم، عدا أن ثَمة رأيًا عامًّا بوجود اتصالاتٍ بين شخصٍ على اليابسة وآخرَ قادمٍ عبر البحر. لا أجد غضاضةً في الاعتراف بأنني قد أديَّتَ هذه المهمة مِرارًا وتَكرارًا كلما كنت موجودًا هنا، على مدى سنتَين، ولم أرَ أو أسمع شيئًا قط مثيرًا للرِّيبة بعد. نحن لا نتلقى أيَّ معلوماتٍ في التعليمات التي تُوجَّه لنا، ولا نحصل على أي نصيحة أيضًا. لكن ما كان عليَّ فِعله أن أستلقيَ على قمة تلك التبَّة وأُرهِف السمع. فإن سمعتَ أيَّ شيء غريب، فلا بد أن تكون حذرًا في استخدامك للمشعل. تلك مهمة بغيضة عليك لتؤدِّيَها عن صديق لك يا جوليان، لكنني أعلم أنك تتحمس لأي شيء يبدو وكأنه يحمل مغامرةً في طيَّاته.»

فكان ردُّ جوليان جاهزًا: «أتحمسُ تمامًا.» وأردفَ قائلًا: «لكن ماذا عن تركك وحيدًا يا مايلز؟»

فأرشده فورلي قائلًا: «ضَع الويسكي والصودا في مكان يمكنني الوصولُ إليه وسأكون على خيرِ ما يُرام. إنني أشعر بأنني أستردُّ قوتي بمرور الوقت. أعتقدُ أنَّ حذاء البحر خاصتك في ملحق المطبخ. وأسرِع أيها الصديق العزيز. فنحن متأخِّرون عشرين دقيقة بالفعل.»

انطلَق جوليان في مغامرته من دون أي شعور خاص بالحماس. فوجدَ منطقة العبور، وعادَ سيرًا على طول التبَّة، وسارَ على طول مسار السيارات حتى وصل إلى البوابة، وتسلَّق الحاجز من دون أن يُصيبه أيُّ مكروه. ومن هناك شقَّ طريقه بمزيدٍ من الحذر، فكان ممسكًا بعصاه في يُمناه، وفي يُسراه المِشعل وإبهامه على الزِّر. كان سكونُ العاصفة يبدو وكأنه في نهايته. وكانت السحب الكثيفة على ارتفاعٍ منخفض منه. وعلى مَرمى البصر من جهة اليمين، حيث كان خط الأهوار مكتملًا ومتصلًا، كان هديرُ الرِّياح يرتفع. وكادت عَصْفة رياح قوية أنْ توقعه من فوق التبَّة. فاضطُرَّ إلى أن يتخذ من الجانب المحجوب عن الرياح من التبَّة مَلاذًا له لبرهة، بينما مرَّت به دَفقةٌ من الثلج والبرَد وكأنها دوامة جليدية. كان زئيرُ البحر يملأ أذنَيه في تلك اللحظة، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال بعيدًا عن البحر مسافة مائتَي ياردة كاملة بالطبع، كانت زخاتٌ شديدةُ الصِّغر من الرذاذ الأبيض تتطايرُ في وجهه بين الحينِ والآخر. ومن هناك راح يشقُّ طريقَه بحذَرٍ بالغ، شِبه زاحف، حتى وصلَ إلى المرقى. وفي المستنقعات تجاوز الماء المالح ركبتَيه مرتَين، لكنه راحَ يتسلَّق خارجًا منه حتى وصل إلى التبَّة الرملية التي ينمو عليها العُشب التي أشار إليها فورلي. واتباعًا للتعليمات، استلقى وراحَ يتَسمَّع باهتمام بحثًا عن أي أصوات خافتة ممزوجة بضجيج الطبيعة. وكم كان مذهلًا، بعد دقائق معدودة، حين وجدَ عينَيه قادرتَين على اختراق الظلام الذي بدا في البداية كجدار أسود. فعلى مسافةٍ ما إلى اليمين، استطاعَ جوليان تحديدَ الهيكل العام لحظيرة مهجورة، كانت تُستخدَم فيما مضى كمنطقةٍ تمركُز لخفَر السواحل، ولا تُستخدم الآن إلا كمستودعٍ لتخزين سُترات النجاة. وأمامه كان قادرًا على تتبُّع ضفة الشاطئ الحصوي وخط البحر، ثم لفَت انتباهَه هيئةُ شيءٍ قاتم يرقد بعيدًا عن الأمواج المتلاطمة. راح جوليان يُراقبه في ثبات. ولبعض الوقت ظلَّ ذلك الشيء يرقد بلا حَراك كأنه جِذع شجرة، حسَبما تصوَّر هذا الشيء. ومن دون سابق إنذار، احدودَب ذلك الشيءُ وانسحبَ إلى الخلف أكثر. لم يَعُد هناك أيُّ شك. كان ذلك الشيء بشرًا، يرقد على بطنه ورأسه متجه نحو البحر.

كان جوليان، الذي دخلَ مغامرته بالتشكُّك المتغطرس للحد قويٍّ الإلحاد دُعي إلى حضور جلسة لتحضير الأرواح، واعيًا للحظة بإحساس جديد كليًّا. ووجَد جوليان، الذي كان شخصًا ذا غرائزَ نفسية حادة، نفسه يُحلِّل ذلك الإحساس بمجرد أن أدركه.

قال جوليان في نفسه معترفًا: «لا شكَّ أنني خائف!»

كان قلبُ جوليان يخفق بقوةٍ غيرِ معتادة؛ وكان مدركًا لوخزٍ حادٍّ في كل حواسه. وبينما كان لا يزال راقدًا على بطنه ويكاد يكتم أنفاسه، رأى خطَّ ضوءٍ ضعيف آتيًا من مِشعل كهربائي يتسلَّل على سطح البحر، وكان واضحًا أن مصدر ذلك الضوء هو يدُ رفيقه في المراقبة. وفي تلك اللحظة نفسِها تقريبًا تبدَّد الارتباكُ غيرُ المحدَّد الذي هاجمه. فأطبَق جوليان بأسنانه بعضها على بعض، وراح يراقب خطَّ الضوء ذاك. كان الضوء يتحرك يَمنة ويَسرةً ببطءٍ على سطح البحر، كأنما يبحث عن شيءٍ ما. سحبَ جوليان نفَسه بحذر، بوصة تلو الأخرى، نحو طرَف الربوة الرملية. كان عقله يعمل بحالةٍ جديدة من الصفاء. ثم ومضَت في ذهنه فكرةٌ في غضون تلك الثواني المعدودة. كان جوليان يعرف جغرافية المكان جيدًا، زاوية الحظيرة، وبرج الكنيسة الكائن وراءه، وذلك المراقب الذي يرقد أمامه مباشرة. لقد حُلَّت شيفرته!

فكَّر جوليان، الذي كان هادئًا تمامًا الآن، بشيءٍ من الندم، في المسدس الذي كان يبغض فكرة إحضارِه معه. وفي غضون ثوانٍ من هذه المراقبة، شغَل نفسه بالتفكير بتريُّثٍ في الخطوة التالية التي عليه اتخاذُها. فإنه إن وَطِئ الشاطئ الحصوي بقدمَيه، فسينتبه إليه المراقبُ من تحته، وإن قام وجرى من فورِه، فلا أملَ من المطاردة. وقد كانت هيئة ذلك الشخص، بقدر ما استطاع أن يُميِّزه، أقربَ إلى صبيٍّ منه إلى رجل. وبدأ جوليان يُقدِّر في هدوء احتمالاتِ التدخل الفوري. ثم حدثت أشياء، وكتم أنفاسه لحظة.

أضاءَ خط الضوء مرةً أخرى، وبدا في هذه المرة وكأنه يكشف عن شيء؛ شيء برز من الماء بدا أشبه بشريط طويل من أنبوب الزِّنك. ثم ألقى المراقبُ الموجود عند حافة البحر مِشعلَه وأمسكَ بطرَف هذا الشيء، وفي خضم شعوره بالإثارة، استسلمَ جوليان إلى إغراءٍ لحظي قاهر. أضاءَ جوليان مِشعله وراحَ يُراقب بينما بدا ذاك الشخص المتلهف يفكُّ الجزء العلوي من الأنبوب بوسيلةٍ ما وسحبَ منه حزمةً داكنة ملفوفة. وحتى في تلك اللحظة الفارقة، بدا الشخصُ ذو القامة النحيلة الموجودُ على الشاطئ وقد صارَ واعيًا بالضوء الذي كان هو في مركزه. فالتفتَ الشخص؛ وكان هذا هو كلُّ ما حصل عليه جوليان أوردين في مغامرته. فبعد بُرهة من الوقت، بدا جوليان في غضونها وكأنه يعيش في دوامةٍ من الظلام،

كان بها ألفُ رجل يطرقون على ألف سِنْدان، فيَملَئُون العالم بالشرر وصدى صوتِ كل ضربة من ضرباتهم يُدوي في أذنه، فتح جوليان عينَيه ليجد نفسه مستلقيًا على ظهره وإحدى ساقَيه في بِركة من الماء المالح تدفعها نحو وجهه يَدٌ مجهولة بكدٍّ. وبجواره كان واعيًا بوجود رجل قصير القامة سمين البِنْية يرتدي زيَّ صياد يتألف من معطف من المشمَّع وقبعة منسدلة على وجهه لكي تُخفي ملامحه، وكان من الواضح أنه هو الرجل الذي سدَّد إليه الضربة. ثم سمعَ من خلفه صوتًا في غاية الرقة والهدوء.

«سيَفي ذلك بالغرض. هيَّا.»

فنخرَ الرجل الذي كان إلى جواره.

وقال بنبرةٍ غليظة: «سأتحقَّق منه.» ثم سمع ذلك الصوت الواضح آتيًا من خلفه مرةً أخرى، وكان في هذه المرة مرتفعًا بعضَ الشيء. لم تستطع الكلماتُ أن تصل إلى ذهنه، لكن نبرة الحديث كانت تنمُّ عن معارضة باردةٍ وغاضبة، أعقبَها أمرٌ إلزامي. ثم بدأ وعيه يُفارقه مرةً أخرى. فانتقل إلى العالم الذي بدا أنه لا يتألف إلا منه والشابِّ الذي يرتدي معطف الصيَّاد المُشمَّع فقط، الذي كان في بعض الأحيان هو فورلي، وفي بعض الأحيان أخته، وفي أحيانٍ أخرى هيئة شخصٍ كان يُفكر فيه باستمرارٍ طَوال الساعات الأربع والعشرين المنصرمة، وقد بدا أنه يتعاطف معه في لحظةٍ ما، وفي الأخرى يلعب على وجهه بخرطوم الحديقة. ثم تلاشى كلُّ شيء، وتسلَّل إليه نوعٌ من الخَدر. كان يخوضُ صراعًا مستميتًا من أجل استعادة وعيه. كان ثَمة شيء باردٌ يرتكز على وجنته. فامتدَّت أصابعه تجاهه. كان ذلك الشيء هو قنينة أُخذت من جيبه ووُضعت في مكانها بواسطة يدٍ خفية، وكان غِطاؤها مفتوحًا بالفعل ورائحتها المنعشة تتسلَّل عبر منخارَيه. فأرشدها بأصابعه المرتعشةِ إلى شفتَيه. وتسلَّل إليه إحساسٌ لطيف بالدفء. وسقطَ رأسه للخلف.

حين فتحَ عينَيه مرةً أخرى، التفتَ حوله أولًا ليرى الشايَ بجوار سريره، ثم حدَّق أمامه متسائلًا إن كانت تلك الأشياء التي رآها قد تجلَّت بالفعل عبر ستارة مرفوعة. كان هناك المستنقع، الذي كان بمثابة لوحة تُجسِّد الحياة الهادئة، وسُترات البحر الملتفَّة تتسلَّل كالأفاعي مبتعدةً عنه نحو اليابسة، مع بِرَك واسعة تتخلَّلها ومضاتٌ خافتة من ضوء الشمس بين هنا وهناك. وكانت هناك أجماتُ الخُزامى البرِّي التي كان مفتونًا بها كثيرًا، والرقع المعشوشبة ذات اللون الأخضر الفاقع، فيما مرَّ فوق رأسه سِربٌ من البط يضرب الهواءَ بأجنحته أثناء مروره. كان جوليان يُعاني من تيبُّس ودُوار شديدَين، وأخذَ يترنَّح وهو ينهض على قدمَيه. كانت القرية على يمينه ببيوتها ذات القرميد الأحمر وكانت مألوفةً

له، وبيوت المزارعين الدافئة بحقولها البنِّية وأحزمةُ الأشجار حولها، ومنحنى الطريق الأبيض.

ثم في ومضةٍ من ومضات الذاكرة، تذكَّر كلَّ شيء. تحسَّس أعلى رأسه، وكان لا يزال يؤلمه؛ فنظر أسفلَ منه على امتداد الشاطئ الحصوي، وخوى في تلك اللحظة من أيِّ ذكريات، وفي النهاية سار متثاقلًا عائدًا إلى الكوخ، مستندًا بثقل جسمه كلِّه على عصاه، ولاحظ وهو يقترب أكثرَ من الكوخ غيابَ السيارة من مكانها الذي كانت تأوي إليه. كان مايلز فورلي جالسًا في كرسيِّه ذي الذارعَين ممسكًا بفنجانٍ من الشاي في يده، وكانت السيدة ويست تعتني به على نحوٍ مبالَغ عندما رفع جوليان المزلاج وجرجرَ نفسه إلى داخل حجرة الجلوس. التفت كلاهما لدى دخوله. فأوقع فورلي ملعقةَ الشاي ورفعت السيدة ويست يدَيها فوق رأسها وأطلقَت صرخة. وغاصَ جوليان في أقرب كرسيٍّ له.

تمتمَ جوليان قائلًا: «لقد أتتني الميلودراما في الأخير. أعطيني بعض الشاي، بل إبريقًا كاملًا منه يا سيدة ويست، وجهِّزي لي حمامًا ساخنًا.»

ثم انتظر حتى غادرت مُدبِّرة المنزل المؤقتة الغرفة بهمةٍ ونشاط. ثم اختتم جملته.

قال جوليان بنبرةٍ مؤثِّرة: «لقد عُومِلت بقسوة!» ثم شرعَ يقصُّ مغامرة الليلة على مسامع مضيفه.

صرَّح جوليان قائلًا بعد نحو ساعتين بينما كان يُعد لنفسه بعض اللحم المقدَّد والبيض للمرة الثانية: «ذلك تقدير رائع لسلامة دساتيرنا. من الواضح يا مايلز أنني وأنت قد عشنا حياة سوية سليمة.»

فقال فورلي معلِّقًا: «يبدو أن المعاملة القاسية التي تلقيتها قد فتحَت شهيتك.»

ردَّ جوليان قائلًا: «ويبدو أن ساقك المصابة قد تسبَّبَت لك في المثل. هل سألك الطبيب كيف ألحقتَ هذه الإصابة بنفسك؟»

فأومأ فورلي.

«لم أقل سوى أنني انزلقتُ في الأهوار. فالمرءُ لا يتحدَّث عن مثل تلك المغامرات الصغيرة كالتي مررنا بها أنا وأنت ليلة أمس.»

سأله جوليان: «بالمناسبة، ماذا يفعل المرءُ حيال ذلك؟» وأردفَ: «أشعر بشيء من الارتباك والذهول بشأن الأمر برُمَّته، حتى في تلك اللحظة أشعر بأنني أعيش في عالَمٍ وهمي وما إلى ذلك كما تعلم. يبدو لي أننا كان ينبغي لنا أن نُخرج الكلاب البوليسية ونبحث عن شابٍّ جذاب ورجل متنمِّر بغيض، كلاهما يرتدي معطفًا مشمَّعًا بُني اللون و...»

فقاطعه فورلي قائلًا: «أوه، اصمت! إنَّ قسم الاستخبارات المسئول عن هذا الجزء من الساحل لا يقوم بأشياء كهذه. عليك أن تتذكَّر يا جوليان أن تُبقي فمَك مغلقًا. سيزورني شخصٌ هنا عصر اليوم وسأُقدِّم له تقريرًا.»

قال جوليان في إصرار: «الأمر سيَّان، إننا، أو بالأحرى أنا، كنتُ ومن دون شكٍّ شاهدًا على عمل من أعمال الخيانة. لقد رأيتُ اتصالًا يُقام مع العدو بوسيلة دقيقة متصلة بما بدا قطعةً من أنبوب غاز.»

قال فورلي مزمجرًا: «أنت لا تعرف أنَّ هذا كان العدو من الأساس.»

أجابَ جوليان: «توجد وسائلُ أخرى لنا، هناك مكتب البريد، ومكتب التلغراف، والهاتف. أرفضُ أن أُصدِّق أن أيَّ شخص عاقل سيذهب إلى البحر في طقسٍ كطقس ليلة أمسِ لمجرد إرسال خطاب إلى شخصٍ مُسالم يسكن هذه الأرجاء. لديَّ حَدْس يا فورلي. لقد عانيت — والحمد للرب أن جُمجمتي ليست هشَّة! — ولن أسمح بأن يحتالَ عليَّ في تعويضاتي.»

فقال فورلي متوسلًا: «حسنٌ، أبقِ فمَك مغلقًا يا صديقي العزيز؛ حتى أكون قد قدَّمت تقريري إلى ضابط الاستخبارات. سيكون هنا في غضون الرابعة. هل تُمانع في الحضور؟»

فوعَده جوليان قائلًا: «ليس لديَّ أيُّ مانع. وأهلي سيكونون سعداءَ ما دمتُ سأعود إلى المنزل من أجل تناول العشاء.»

قال فورلي: «لا أعرفُ كيف ستُرفِّه عن نفسك هذا الصباح، وأخشى أنني لن أستطيع الخروج للصيد هذا المساء.»

قال جوليان مناشدًا إياه: «لا تقلق بشأني. تذكَّر أنني عمَليًّا في وطني. فالمسافة من هنا إلى «ذا هول» ثلاثة أميال فقط؛ فلا تنظر إليَّ كزائرٍ عادي. وسأذهبُ في نزهة في غضون دقائق قليلة.»

فصرَّح فورلي في نبرةِ حسد قائلًا: «يا لحُسن حظِّك!» وأضافَ: «إن شروقًا كهذا يجعل المرءَ يشعر وكأنه على شواطئ الريفييرا لا في نورفولك. هل ستزور مسرحَ مغامرتك؟»

أجابه جوليان في تأمُّل: «ربما. فغريزة الكلب البوليسي بدأَت تستعرُ بداخلي. ولا أستطيع أن أجزم إلى أين قد تقودني.»

انطلقَ جوليان في نزهته بعد نحو نصف الساعة. فتوقَّف أولًا عند منحنًى في الطريق، على بُعد نحو خمسين ياردة، ومضى قُدمًا بالقرب من السياج.

ثم قال في نفسه: «لا بأسَ تمامًا بغريزة الكلب البوليسي، لكن لماذا لم أخبر فورلي بأمر السيارة بحق السماء؟»

توقَّف جوليان ليُفكِّر في الأمر، ولم يكن مدركًا إلا لحقيقة أنه في كلِّ مرة كان يفتح فمَه ليخبره، كان يشعر بميل ملحوظ وغير مبرَّر لعدم إخباره. وكان يُعزِّي نفسه في هذه اللحظة بالتفكير في أن تلك المعلومة لن تكون لها قيمة إلى حدٍّ ما حتى العصر، وبدأ من فوره في إجراء التحقيق الذي كان قد خطَّط للقيام به.

كان الطريق لا يزال موحلًا، وكانت آثار إطارات السيارات ظاهرةً بوضوح، وكانت ذات نمطٍ غريب. تتبَّعها جوليان عبر الطريق مسافةَ ميل ونصف الميل. ثم توقَّف أمام بوابة من خشب البلوط وتلقَّى صدمة استثنائية. فعلى القضيب العلوي للباب نُقِشَت عبارة بحروف مطليَّة باللون الأبيض.

مالتينبي هول
مَدْخَل التجَّار

وبفحصٍ سريع جدًّا تبيَّنَت له حقيقة أن العربة التي كان يتتبع أثرها دخلَت هنا. فرفعَ يده واستوقَّف عربة لحمل الأمتعة كانت قد انعطفَت لتوها على الطريق. فتوقَّف الرجل ولمسَ قبعته.

فسأله جوليان: «إلى أين يا صديقي؟»

أجابه الرجل: «أنا ذاهبٌ إلى محطة هولت يا سيدي، بعد إنزال بعض الأمتعة.»

سأله جوليان: «هل هناك أيُّ نزلاء في ذا هول جاءوا بسيارة إلى هنا، هل تعرف؟»

فأجابَ الرجل: «الآنسة الشابة فقط يا سيدي، الآنسة آبواي. جاءت في سيارة بانهارد كوبيه صغيرة.»

قطَّب جوليان جبينه وهو غارقٌ في التفكير.

ثم سأله: «هل خرجت بها هذا الصباح؟»

هزَّ الرجل رأسه نافيًا.

فأجابه الرجل: «لقد تعطَّلَت بها السيارة عصرَ أمسِ يا سيدي، عند حوالي منتصف الطريق من ذا هول إلى هنا.»

قال جوليان مكررًا: «تعطَّلت؟» وأضافَ: «أمن عطلٍ جسيم بها؟ ألم تستطع أن تُصلحها لها؟»

قال الرجل موضحًا: «لم تكن لتسمح لي بأن أمَسَّها يا سيدي. قالت إن لديها اثنتَين من شمعات الاحتراق معطوبتَين، وكانت تريد أن تستبدلهما بنفسها. لقد حصلت على بضع دروس، وأعتقد أنها أرادت بعض التدريب العمَلي.»

«فهمت. إذن السيارة على الطريق الآن؟»

«على بُعد نحو نصف ميلٍ على الجانب الأيسر من الطريق يا سيدي، عند شجرة الدردار الكبيرة مباشرة. لقد قالت الآنسة آبواي إنها ستعود عصر اليوم لتركيب الشمعتَين الجديدتَين.»

ألحَّ جوليان في السؤال: «إذن فالسيارة كانت موجودةً هناك طوال الوقت منذ عصر الأمس؟»

«كانت الآنسة الشابة ترغب في تركها هناك يا سيدي. كان بإمكاني أن أستبدلَ الشمعتَين بنفسي يا سيدي في غضون خمس دقائق وكنتُ لأحضرها لها عند المنزل، لكنها لم تُرِد أن تسمعني.»

«فهمتُ يا صديقي.»

فسأله الرجل: «هل حالفك الحظ مع الإوزِّ ليلة أمس يا سيدي؟» وأردفَ: «سمعتُ أنه كان يوجد سِربٌ كبير منهم على أهوار ستيفكي.»

فأجابه جوليان: «اصطدتُ واحدة. كان حظنا عاثرًا.»

ثم شقَّ طريقه عبر الطريق بين الأشجار. وعند النقطة التي حدَّدها السائقُ تمامًا كان هناك سيارة كوبيه صغيرةٌ متوقفة وقد سُحِبت إلى المنطقة المعشوشِبة على جانب الطريق. رمقَ اسمَ مُصنِّع السيارة بنظرة خاطفة، ونظرَ مرةً أخرى إلى الآثار الموجودة على الطريق. وفي الأخير، قرر أن تحرِّياته تؤدي به إلى وجهة غيرِ مرغوب فيها تمامًا.

فاستدار وسار عائدًا عبر الأهوار، حيث لم يجد شيئًا يُثير انزعاجه، وتناول الغداء مع فورلي، الذي كانت ساقه قد تحسَّنَت آنذاك كثيرًا حتى إنه كان قادرًا على وضعها على الأرض.

سأله جوليان حين جلسَا معًا ليُدخِّنا بعد الغداء: «ماذا عن زائرك ذاك؟» وأردفَ: «لا بد أن أعود إلى ذا هول في الوقت المناسب لتناولِ العَشاء الليلة، كما تعلم. فأهلي مُصرُّون على ذلك.»

أومأ فورلي.

وأجابه: «ستكون على ما يُرام. في الواقع، لن يأتيَ ذلك الزائر.»

فكرَّر جوليان: «لن يأتي؟» وأضافَ: «يا إلهي، حسبتُ أن دزينة من ضباط الاستخبارات سيتواجدون هنا!»

فأسرَّ إليه فورلي قائلًا: «لقد أُسند الأمر برُمته إلى السلطات العسكرية لسببٍ أو لآخَر. أتاني رجلٌ لزيارتي هذا الصباح، وأخذَ التفاصيل كاملة. لا أعرف إن كانت تلك التفاصيلُ ستُثير لديك القلقَ من الأساس ... حتى وقتٍ لاحق على أي حال.»

«يا إلهي، يبدو هذا غريبًا!»

تابع فورلي قائلًا: «إنَّ ما حدث ليلة أمسِ كان غريبًا حقًّا. أعتقد أن فرصتهم الوحيدة للوصول إلى لبِّ الأمر هو أن يختبئوا ويُراقبوا قدر ما يُمكنهم. الأمر ليس كالقضايا التي تتعامل معها الشرطة كما ترى. فهم لا يريدون شهودًا ولا محاكم. كلمةٌ من رجل واحد وفوهةُ بندقية ستَفيان بالغرض.»

تنهَّد جوليان.

وقال: «أعتقدُ أنني إن قمتُ بواجبي كمواطن مخلص، فسأُسدِل الستار على أحداث الليلة الماضية. يبدو مؤسفًا أن أحظى بمغامرةٍ كهذه من دون أن أكون قادرًا على أن أفتح فمي بالحديث عنها.»

زمجَّر فورلي.

وقال: «لن ترغب في أن تنضمَّ إلى جيشِ حقائب الغاز النبيل. فمن الأفضل إذن أن تُقرر أنها كانت حُلمًا.»

فأسرَّ إليه جوليان قائلًا: «ثَمة أوقاتٌ لا أكون فيها واثقًا من أنه لم يكن حُلمًا.»

الفصل الثالث

دخلَ جوليان غرفة الاستقبال في مالتينبي هول قبل موعد العشاء ببضعِ دقائق في مساء ذلك اليوم. مدَّت أمه يدَها إليه ليُقبِّلها ورحَّبت به بابتسامة ساحرة، وكانت بمفردها ومما أثار استغرابَه أنها كانت مضطجِعةً تستريح. وبرغم خصلات شعرها الرمادي، كانت لا تزال تبدو امرأةً شابة في مقتبل العمر إلى حدٍّ لافت، وكانت تتمتع بسُمعة رائعة كمضيفة.

صاحت أمه قائلة: «عزيزي جوليان، تبدو كشبَح! لا تُخبرني أنك اضطُرِرت لقضاء الليل كلِّه في اصطياد ذلك البطِّ اللعين؟»

سحبَ جوليان كُرسيًّا إلى جوار أمه وجلسَ في شيء من الارتياح.

وأفضى إليها قائلًا: «لم أُدرك يومًا أن العمر قد تقدَّم بنا كالآن. أتذكَّرُ قبل عشَرة أعوام أو خمسةَ عشر عامًا، حين كنتُ معتادًا التسللَ إلى خارج المنزل في جُنح الظلام وأقود الدراجة إلى المستنقع، حاملًا بندقية صيد عيار ٢٠ مترقبًا الفرصةَ لإطلاق رصاصة فريدة من نوعها.»

فتابعَت أمُّه: «وأعتقد أنك بعد أن أمضيت نصف الليل في الخوض في المياه المالحة، أمضيت النصف الآخر في التحدُّث إلى ذلك السيد فورلي المريع.»

«بالضبط. لقد شعرنا بالبرد وابتلَّت ثيابنا في المساء، فجلسنا نتحدَّث حتى ساعاتِ الفجر الأولى، ثم شعرنا بالبرد وابتلَلْنا مرةً أخرى هذا الصباح؛ وها أنا ذا.»

فقالت أمه معلِّقة: «أنت رجل رياضي متحوِّل. أتمنى لو تستطيع تحويل صديقك السيد فورلي. ثَمة مقال مريع تمامًا له في عدد جريدة «ذا ناشونال» لهذا الشهر. لا أفهم منه كلمةً واحدة، لكنه يبدو من مضمون كلماته أنه ينضح بأناركية بحتة.»

علَّق جوليان قائلًا: «لا بد أن يكون هناك اشتراكيُّون طالما ظلَّ العالم موجودًا، وفورلي نزيهٌ على الأقل.»

قالت أمُّه معترضة: «عزيزي جوليان، كيف يمكن لاشتراكي أن يكون نزيهًا! وموقفهم أيضًا فيما يخصُّ الحرب موقفٌ شائن. أنا واثقة من أن ذلك المدعوَّ فين، على سبيل المثال، كان ليقتل لو كان في أي بلدٍ آخر.»

فتساءل جوليان منحرفًا تمامًا عن نطاق الموضوع: «ماذا عن حفلكِ المنزلي؟»

«لقد وصَلوا جميعًا. أعتقد أنهم سينزلون مباشرة. السيد هاناواي ويلز هنا.»

تمتم جوليان قائلًا: «السيد ويلز العجوز الطيِّب!» وأضافَ: «كيف يبدو منذ أصبح وزيرًا في الحكومة؟»

ردَّت الليدي مالتينبي بابتسامة قائلة: «رائع. لا يبدو أنه سيحظى بالراحة أبدًا. وآل شيرفينتون هنا، والأميرة تورسكي، عمَّة صديقتك الآنسة آبواي.»

كرَّر جوليان متسائلًا: «الأميرة تورسكي؟» وأردفَ: «مَنْ هي بحقِّ السماء؟»

قالت أمه موضِّحة: «كانت إنجليزية الجنسية، وهي من أبناء عمومة آبواي. وقد تزوجت في روسيا وهي في طريقها الآن إلى فرنسا لتلتقيَ بزوجها، وهو قائدٌ لكتيبة عسكرية روسية هناك. تبدو لطيفةً للغاية، لكنها ليست كمثل ابنة أخيها ولو من بعيد.»

«والآنسة آبواي لا تزال هنا بالطبع؟»

«بالطبع. لقد طلبت منها أن تظلَّ أسبوعًا وأعتقد أنها تريد أن تبقى. تحدَّثنا ساعةً بعد تناول الشاي عصرَ اليوم، ووجدتُها مثيرةً للاهتمام كثيرًا. يبدو أنها عاشت في إنجلترا، في تشيلسي، سنواتٍ طِوالًا وكانت تدرس النحت.»

قال جوليان متأملًا: «إنها شابة ماهرة إلى حدٍّ استثنائي، لكنها غامضةٌ بعضَ الشيء. إن كانت الأميرة تورسكي هي عمَّتُها، فمَن كان والداها؟»

أجابته الكونتيسة: «كان والدها هو الكولونيل ريتشارد آبواي، الذي يبدو أنه كان ملحَقًا عسكريًّا في سان بطرسبرج قبل سنوات. وقد تزوج إحدى أَخَوات زوج الأميرة تورسكي، ومنها ورثت تلك الشابةُ لقبًا لن تستخدمَه وثروةً كبيرة. قُتِلَ الكولونيل آبواي عن طريق الخطأ إبَّان الحرب الروسية اليابانية، وتُوفيَّت أمها قبل بضع سنوات.»

«إذن ليس لها أصول ألمانية أو شيء من هذا القبيل؟»

صاحت أمه موبِّخة: «بُني العزيز، يا لها من فكرة! بل على النقيض، إن آل تورسكي ينحدرون من واحدة من أكثر العائلات أرستقراطية في روسيا، وأنت تعلم مَن هم آل آبواي. إن الفتاة كريمةُ المَحْتِد وأراها ساحرةً وفاتنة من كل الأوجه. ما الذي جعلك تُشير إلى أنها قد تكون ذاتَ أصول ألمانية؟»

«لا شيءَ! على كل حال، أنا مسرور أنها ليس لها أصول ألمانية. مَن أيضًا؟»

أردفَت أمه قائلةً: «الأسقف، ويبدو أنه متعب كثيرًا، ذلك المسكين! والدكتور جورج لينارد من أكسفورد واثنان من الجنود الشبان من نورويتش طلبَ منا تشارلي أن نكون لطفاءَ معهما ... والرجل الكبير بنفسه.»

«أخبريني عن الرجل الكبير؟ لا أعتقد أنني رأيتُه لكي أتحدَّث معه منذ أن أصبح رئيسًا للوزراء.»

«يقول إنَّ هذه هي إجازته الأولى هذا العام. إنه يبدو متعبًا إلى حدٍّ ما، لكنه أمضى ساعةً في الصيد منذ أن وصلَ ويبدو أنه استمتع بذلك. ها هو أبوك.»

كان إيرل مالتينبي، الذي دخلَ بعد لحظة، نمطيًّا إلى حدٍّ يُثير الإحباط. كان في نفس طول ابنه الأصغر الذي صافحه في شرود، والذي كان يُشبهه بصورة كبيرة. كان الرجلُ يتحلَّى بالملامح الأرستقراطية المعتادة، فكانت شفتاه رفيعتَين وعيناه زرقاوَين فولاذيتين. وكان يبدو أنه منزعج بعضَ الشيء.

سألته الليدي مالتينبي: «أثَمة خطبٌ ما يا عزيزي؟»

اتخذ زوجها موضعه على بساط الموقد.

وقال: «أنا منزعجٌ من ستينسون.»

هزَّت الكونتيسة رأسَها.

وقالت معترضة: «إنك قاسٍ جدًّا يا هنري. كنت تُحاول أن تتحدَّث معه في السياسة. وأنت تعلم أن المسكين كان في أشد الاحتياج والتوق إلى يومَين يستطيع أن ينسى فيهما أنه رئيس وزراء إنجلترا.»

قال اللورد مالتينبي موافقًا إياها: «بالضبط يا عزيزتي. أؤكِّد لكِ أنني لم أتجاوز بأي حال. لقد تفلَّتَت مني ملحوظة فيما يتعلق باستحالة توفير المقاتلين في هذه الآونة، وحقيقة أن خمسة حُراس من السبعة الخاصِّين بي يُقاتلون. في رأيي أن تعليق السيد ستينسون لم يكن لائقًا مطلقًا، بالنظر إلى كونه صادرًا من الشخص المؤتمَن على مصير هذا البلد.»

سألته الكونتيسة في وداعة: «ماذا قال؟»

أجابها زوجها وفي عينَيه بريقُ غضب: «تحدَّث عن شيء بخصوصِ ما إن كان سيسمح لأي شخص أن يكون له سبعة حراس بعد الحرب. لو أن رجلًا مثل ستينسون سيدعم تلك الأفكار الاشتراكية. عذرًا ... عزيزي الأسقف.»

ثم توافد بقية الضيوف في الدقائق القليلة التالية: الأسقف، أبو جوليان بالمعمودية، ومزيجٌ غريب جمع بين المتأنق والمتدين والناسك والرجل العاديِّ المنتمي إلى الشعب،

واللورد شرفينتون وزوجته، وكانا من المعارف كبار السنِّ الذين لا ينتمون إلى فئة بعينها، والسيد هاناواي ويلز وكان محافظًا لكنه كان لبقًا دمثًا، وكان مثالًا رائعًا للنجاح الفائق الذي يُحققه أصحاب القدرات المتواضعة، وجنديَّان شابَّان خفيفا الظل خرجا لتمضية وقتٍ طيب، وكان جوليان مسئولًا عنهما، وأستاذٌ بجامعة أكسفورد كان فيما مضى معلمًا خصوصيًّا للورد مالتينبي، وأخيرًا الليدي والأميرة تورسكي، وكانت في منتصف العمر وذات مظهر بسيط وشكل رائع، تتبعها ابنة أخيها. وكان هناك بضعةُ تعارفاتٍ لا يزال يتعيَّن تنفيذها.

وبينما كانت الليدي مالتينبي مشغولةً في أداءِ هذه المهمة، التي كانت تؤديها في كل الأوقات ببراعة مُضيفة عظيمة لا تنضب، قطع جوليان حديثه مع الجنديَّين وأخذ ينظر بثباتٍ عبر الغرفة إلى كاثرين آبواي، وكأنه كان يتوق لمراجعة انطباعاته عنها أو تكملتها. كانت كاثرين آبواي متوسطة الطول وكان قوامها نحيفًا إلى حدٍّ معقول، وكانت مشيتها متأنيةً ورشيقة بصورة ملحوظةٍ في الوقت نفسه. كانت بشَرتُها تميل إلى الشحوب. وكانت ذاتَ عينَين واسعتين بلونٍ بني ناعم، وكان لشعرها درجةٌ غير مألوفة من اللون البُني الكستنائي، وممشطًا ومنسَّقًا ببساطة رائعة إلى حدٍّ لافتٍ للنظر. كانت ترتدي سلسلةً طويلة من الخرَز الأخضر حول عنقها، وفستانًا أسودَ من الحرير الرقيق لم يكن يشفُّ، لكنه كان جريئًا بعضَ الشيء في تصميمه. كان صوتُها وضحكتُها، بينما كانت تتحدَّث مع الأسقف، مثيرَين للبهجة، وخلَت لكنتُها وإيماءاتها من أي أثر يُشير إلى انحدارها من أصولٍ أجنبية. كانت لها جاذبية غير عادية، من دون شك، وكان في أسلوبها لَباقةٌ تصل إلى التحرر، لكنها كانت تتمتع بصفة التحفُّظ المميَّزة التي لا تُلحَظ إلا لدى الصَّفوة؛ فكان لها سحرٌ ملموس للغاية. وجدَ جوليان أن تفحُّصه الدقيق لها قد زادَ من إعجابه بها، وهو الإعجاب الذي كان مفروغًا منه. ورغم ذلك، وبينما كان يُراقبها، كان على جبينِه تقطيبةٌ يسيرة تنمُّ عن الحيرة، إحساسٌ بشيء أشبه بالحيرة مختلطٍ بتلك المشاعر الأخرى. أشارت إليه أمُّه، التي كانت قد التفتَت لتتحدَّث إلى تلك الفتاة محطِّ انتباهه، وفي الحال اجتازَ الغرفة متجهًا صوبَهما.

قالت الكونتيسة: «سيصحبك جوليان إلى العشاء يا آنسة آبواي، وآمُل أن تترفَّقي به؛ فقد كان بالخارج طوال الليل وجزءًا كبيرًا من صباح اليوم أيضًا، حيث كان يصطاد البطَّ ويتحدَّث في ترَّهات مع شخص اشتراكي مريع.»

وانصرفت الليدي مالتينبي. أما جوليان، الذي كان يستند إلى عَصاه، فراحَ ينظر باهتمامٍ جديد إلى الوجه الذي لم يُبارح ذهنه منذ لقائهما الأولِ قبل بضعة أسابيعَ مضَت.

سأَلته قائلة: «أخبرني يا سيد أوردين، أيَّهما وجدتَ منهكًا أكثر: الخوض في المستنقعات من أجل الصيد، أم مناقشة علم الاجتماع مع صديقك؟»

أجابَ قائلًا: «في الواقع، لم نخُض في المستنقعات. لقد وقفنا بلا حَراك وابتلَّت ثيابنا بصورة غير عادية. وقد اصطدتُ إوزَّة، الأمر الذي جعلني في غاية السعادة.»

قالت: «إذن لا بدَّ أنها المحادثة. هل صديقك هذا قائدٌ ملهم أم أنه مجرد شخص عادي من العَامَّة؟»

«إنه قائد ملهم، بكل تأكيد. إنه السيد مايلز فورلي، لا بد أنكِ سمعتِ عنه.»

فأجفلَت قليلًا.

وقالت مُكرِّرة: «مايلز فورلي!» ثم أضافت: «لم أكن أعلم تمامًا أنه يعيش في هذا الجزء من العالم.»

فقال جوليان: «إنه يمتلك منزلًا ريفيًّا صغيرًا في مكانٍ ما في نورفولك، ويأخذ كوخًا هنا في أوقات غريبة من أجل صيد الطيور البرِّية.»

فسألته قائلة: «هَلا تصطحبني لمقابلته غَدًا؟»

«بكل سرور، ما دُمتِ ستَعِدينَني ألا تتحدَّثي معه في الاشتراكية.»

«أعدُك بذلك، مراعاةً لمرافَقتِك لي.» ثم تابعَت وهي تنظر إليه في شيء من التفكُّر: «أتساءل كيف تُبغض الحديث في الموضوعات الجادة إلى هذا الحد.»

أجابها: «أعتقد أنها تفاهة في التوجُّه الفكري. إنني أُفضل أن أتحدث معك عن الفنِّ بكل تأكيد.»

فقالت مبدية اعتراضها: «لكن التوجُّه السائد الآن في تشيلسي هو تجاهل الفن والتحدُّث في السياسة.»

فقال بنبرةِ نُصح: «توجُّه لن أتَّبعه، وكنت لأتمسَّك بالفن لو كنت مكانك.»

«في الواقع، هذا يتوقَّف على تعريفك للسياسة بالطبع. أنا لا أقصد السياسة الحزبية. إنما أقصد علم الحياة ككلٍّ وليس كوحدة منفصلة.»

هنا أقبلت الأميرة نحوهما بخطًى متمهلة.

وقالت: «لا أعرفُ ماهيةَ آرائك السياسية يا سيد أوردين، لكن ينبغي لك أن تحذر الصدمات إن ناقشتَ المسائل الاجتماعية مع ابنة أخي. في الأيام الخوالي ما كانوا ليسمحوا لها بالعيش في روسيا. وحتى الآن، أرى أن بعض معتقداتها من أخطرِ ما سمعت.»

«أليس هذا شيئًا جللًا من عَمَّةٍ مُحبة!»

ضحكَت كاثرين عندما تركتهما الأميرة. «أخبرني أكثرَ عن مغامراتك ليلة أمس؟»

رفعَت نظرها إلى وجهه، وأدرك جوليان فجأةً مصدرَ ذلك الإحساس الواهي بالضيق الغامض الذي لازمه خلال الدقائق القليلة الماضية. لقد عادَ إليه كلُّ شيء من خلال الرعشة الخفيفة في شفتَيها. كان فمُها بالتواءاته التي جمعَت بين الرقة والسخرية، من دون شك، هو الفمَ نفسَه الذي رآه في حُلمه المتشابك المعقَّد، حين كان راقدًا عند الأهوار، يُصارع من أجل الحفاظ على وعيه.

الفصل الرابع

وجدَ جوليان قدراته التحاوريةَ في تناقصٍ نوعًا ما؛ إذ كان مستغرقًا في التفكير طوالَ الدقائق الأولى من العشاء بفِعل تبلور تلك الفكرة الجديدة التي استحوذت على عقله بلا شك. غير أن كاثرين سرعان ما أكَّدَت إصرارَها على جذب انتباهه.

فقالت متوسلة: «من فضلك قُم بواجبك وأطلِعْني على كل شيء. تذكَّر أنني سندريلا من بلاد بوهيميا ولا أعرفُ أيَّ شخص هنا.»

فأجابها: «في الواقع، ليس هناك كثيرون لتعرفي بشأنهم، أليس كذلك؟» وأردفَ: «بالطبع تعرفين ستينسون؟»

فأسرَّت إليه قائلة: «كنت أُحدِّق فيه بعينَين فاغرتَين. أليس هذا هو التصرفَ المناسب؟ إنه يبدو لي عاديًّا جدًّا وجائعًا للغاية.»

«حسنٌ إذن، وهناك الأسقف.»

«عرَفتُه في الحال من صوره. لا بد أنه يُمضي كلَّ وقته في التردد على المصوِّر حين لا يكون في الكنيسة. لكنه يروق لي. إنه يتحدَّث إلى عمتي بأسلوب ودودٍ للغاية. ولا شيءَ يجعل عمتي في أفضل حالاتها أكثرَ من جلوسها بجوار أسقف.»

فاستطرد قائلًا: «وتعرفين كلَّ شيء عن آل شرفينتون، أليس كذلك؟» وأضاف: «أما الجنديَّان فهما شابان من ثكنات نورويتش، وكان الدكتور لينارد مُعلمًا خاصًّا لوالدي في أكسفورد، والسيد هاناواي ويلز هو أحدث وزير في حكومتنا.»

قالت: «لا يزال يحتفظ بابتسامةِ راهب مبتدئ. قبل لحظة سمعتُه يُخبر الجالسَ بجواره أنه يُفضِّل ألا يُناقش شأن الحرب. لعله يظن أنَّ ثمة جاسوسًا تحت الطاولة.»

اختتم جوليان حديثَه قائلًا: «حسنٌ إذن، ها قد انتهينا. ولم يتبقَّ أحدٌ سواي.»

فاقترحَت قائلة: «حَدِّثني إذن عن نفسك. في الواقع، عندما أُفكر في الأمر، بالنظر إلى مدة محادثاتنا، أجد أنك كنت متحفظًا وقليلَ الكلام إلى حدٍّ لافت. أنت أصغرُ أفراد العائلة، أليس كذلك؟ كم عدد إخوتك؟»

أخبرها قائلًا: «كان هناك أربعة. قُتِلَ هنري في إيبرس في العام الماضي. أما جاي فلا يزال هناك. وريتشارد برُتبة عميد.»

«وأنت؟»

«أنا محامٍ بالمهنة، لكنني تركتُها وذهبتُ مع أول دفعة من خريجي جمعيات الحقوق في مهمة تجنيدٍ تطوعية، وفقدتُ جزءًا من قدمي في مدينة مونس. ومنذ ذلك الحين وأنا أعملُ في مهنة الرقابة غير المجزية والمملَّة كثيرًا.»

وافقته الرأي قائلة: «إنها مُملة فعلًا، أتخيَّل ذلك. أنت تُمضي وقتك في قراءة خطابات الآخرين، أليس كذلك، فقط من أجل التأكُّد من عدم وجود مراسلات من العدو؟»

قال مصدِّقًا على حديثها: «بالضبط. نحن نكتشف الشيفرات وما إلى ذلك من أشياء.»

«يا لكم من أذكياء لا محالة!»

«نحن أذكياءُ فعلًا، معظمنا كذلك.»

«وهل تفعل أيَّ شيءٍ آخر؟»

فأسرَّ إليها قائلًا: «في الواقع، لقد تركت مهنة الرقابة مؤقتًا. سأعودُ إلى مهنتي.»

«كمحامٍ؟»

«هو كذلك. وقد أُضيف بأنني أعمل صحافيًّا مأجورًا.»

تمتمَتْ قائلة: «يا للتواضع!» وأضافت: «أعتقدُ أنك تكتب المقالات البارزةَ لصحيفة «التايمز»!»

قال جوليان في اندهاش: «تمتلكين فطنةً رائعة بالنسبة إلى شابة صغيرة للغاية مثالك. كيف خمَّنتِ سرِّي؟»

ردَّت في شيءٍ من الغطرسة: «أنا أفضلُ منكِ في تخمين الأسرار.»

صمتَ جوليان بضعَ لحظات. فقد راوده شعورٌ بالصدمة مرةً أخرى بفِعل انحناءةِ شفتَيها الخفيفة.

سألها جوليان فجأة: «هل لديكِ أخٌ؟»

«لا. لماذا؟»

«لأنني التقيتُ شخصًا مؤخرًا — خلال الساعات القليلة المنصرمة في الواقع — له فمٌ يُشبه فمك تمامًا.»

فصاحت قائلة: «يا له من أمر مريع!» وأخرجت من الحقيبة الموضوعة بجانبها مِرآةً صغيرة وراحت تُحدِّق بها. ثم أضافت: «يا له من أمر مزعج أن يمتلك شخص فمًا مثل فمي! لا، لم يكن لي أخٌ يومًا يا سيد أوردين، ولا أخت، وأنا، مثلما قد تكون سمعت، طفلة مشاكسة. أعيشُ في لندن وأُجيد عرض الأزياء للغاية، ولا أجيد الحديث في علم الاجتماع تمامًا. وكما أخبرتُك على ما أعتقد، فأنا أعرف صديقك مايلز فورلي ذا النَّزعة الأناركية.»

اعترضَ جوليان قائلًا: «لا أُحبِّذ أن أُطلق على فورلي أناركيًّا.»

«حسنًا، إنه من دعاة الاشتراكية. أعترفُ بأننا غير محدَّدين في تعريفاتنا. وكما ترى، ثَمة موضوع واحد فقط جمع الاشتراكيِّين ورجالَ حزب العمال والنقابيين والشيوعيين والقوميين والأمميِّين في السنوات الأخيرة. كلُّ مَن يعملون من أجل الحرية يتعلَّمون الشمولية. وإن وجدوا قائدًا لهم، فأعتقد أن دولتك العزيزة المتعجرفة قد تُضطرُّ إلى مواجهة أكبرِ مفاجأة لها في تاريخها.»

نظر إليها جوليان في فضول.

«لديكِ أفكار أيتها الآنسة آبواي.»

فقالت ساخرة: «يا له من أمرٍ غيرِ اعتيادي بالنسبة إلى امرأة!» وأردفَت: «أتُلاحظ كيف أن الجميع يُحاول تجنب الحديث عن موضوع الحرب؟ هلا أعطيهم مزيدًا من الوقت؟ أنا واثقة من أنهم لا يستطيعون الاستمرارَ على هذا النحو.»

فهمسَ جوليان قائلًا: «لن يُكملوا هذه المدة. أنصتي.»

أعلن اللورد شرفينتون موقفه قائلًا: «المسألة التي ينبغي أن نضعَها في الاعتبار ليست متى ستنتهي الحرب؛ بل ما الأشياء المتاح فعلها لوقفها؟ تلك نقطة نستطيع في رأيي أن نُناقشها من دون إثارة حماقات وأفعال متهورة من قِبل المسئولين.»

صرَّح الأسقف قائلًا: «إنْ فشلت الوسائل الأخرى، فستُوقفها المسيحية. فالضميرُ العالمي في طريقه إلى الاستيقاظ بالفعل.»

ومن موقعه على رأس المائدة أعلنَ الإيرل بنبرةٍ ثقة: «إن أعداءنا من جنسٍ واهن بالفعل. إنهم على شفا الإنهاك والاستنزاف. والنمسا، إن سمحتم لي، في محنةٍ أسوأ. هذا هو ما سيُنهي الحرب؛ إنهاكُ خصومنا.»

وأضافَ السيد هاناواي ويلز بغموض شديد: «العامل الحاسم سيكون أمريكا على الأرجح. ستدخل الصراع بكل ما أوتِيَت من قوة في اللحظة الحاسمة. وعلى الأرجح أنها

ستفعل في الشَّمال الأقصى ما فشلنا نحن في فعله؛ ستخترق الصفَّ وتضع القوات الألمانية في فلاندرز في ورطة.»

كانت أفكارُ الوزير رائجة. فسرَت همهماتُ استحسانٍ قليلة، شيءٌ بدا أشبهَ بخرخرةٍ تنمُّ عن القَبول والموافقة. كانت وجهة نظره تعبيرًا آخرَ عن ذلك الفشل المخزي بصورةٍ غريبة رغم طابَعه العالمي الشامل، والمتمثِّل في الاعتماد المفرِط على الآخَرين. أما التعليق الهادئ الذي صدرَ عن الرجل الذي رأى فجأةً أن انضمامه إلى النقاش لا غضاضةَ فيه، فقد تسبَّب في شعورٍ بالانزعاج والقُشَعْريرة.

قال السيدُ ستينسون وهو ينحني إلى الأمام قليلًا: «ثَمة شيء واحد يُمكن أن يُنهيَ الحرب في أي لحظة، وهو إرادة الشعب.»

سادت الحيرة والارتباك في أذهان مستمِعيه.

فكرَّر اللورد شرفينتون: «الشعب؟» وأضافَ: «لكن من المؤكَّد أن الشعب يتحدَّث من خلال أفواه حُكَّامه، أليس كذلك؟»

فأيَّدَه رئيسُ الوزراء قائلًا: «وهم قانعون بذلك حتى اللحظةِ الراهنة. لكن ربما تشهد أوروبا أحداثًا غريبة ومؤثِّرة قبل مرور سنواتٍ كثيرة.»

قالت الكونتيسة في نبرةٍ توسُّل: «أكمِل من فضلك.»

فهزَّ السيد ستينسون رأسه.

وأجابها: «لقد قلتُ أكثرَ مما كنت أنتوي قوله حتى كفردٍ عادي. لديَّ شيءٌ واحد فقط لأقوله عن الحرب أمام العامة، وهو أننا ننتصر، ولا بد لنا أن ننتصر، وأن وجودنا القوميَّ يعتمد على انتصارنا، وأننا سنستمرُّ حتى بلوغ النصر. أما عن العوائق التي تَحول بيننا وبين النصر، والتي قد تبقى في أذهاننا، فلا يمكن التحدثُ عنها.»

ساد صمتٌ مقتضَب وغير مريح نوعًا ما. فقد فهمَ الجميع أن عليهم تركَ الحديث في هذا الأمر. فوجَّه جوليان سؤالًا إلى الأسقف الجالس عبر المائدة. واستشار لورد مالتينبي الدكتور لينارد بشأن تاريخ الحرب البونيقية الأولى. وعبَّر السيدُ ستينسون عن إعجابه بالأزهار. أما كاثرين التي كانت تُثبِّت ناظِرَيها على رئيس الوزراء، فالتفتت إلى الجالس بجوارها.

وقالت مستجديةً: «هَلا أخبرتني عن امتهانك الصحافةَ يا سيد أوردين؟» وأضافت: «أعتقدُ أنها مهنة شيِّقة.»

«أؤكِّد لكِ أنها مضجِرةٌ للغاية.»

«أتكتبُ عن السياسة؟ أو ربما تكون ناقدًا فنيًّا؟ ينبغي لي أن أُحسن التصرف تحسبًا لذلك.»

قال مطمئنًا إياها: «لا أعرفُ سوى القليل عن الفن. إنَّ اهتمامي الرئيسيَّ في الحياة — خارج نطاق مهنتي بالطبع — ينصبُّ على علم الاجتماع.»

كان اعترافُه الصغير عفويًّا. فرفعتْ حاجبَيها في دهشة.

وصاحت قائلة: «أعتقدُ أنك جاد!» وأضافت: «أحقًّا وجدتُ رجلًا إنجليزيًّا جادًّا؟»

«أقرُّ بالذنب. إنها فلسفة غير صحيحة لكنها حافزٌ مميِّز للحياة.»

فقالت وهي تتنهَّد: «كم هو محزن أنك معاقٌ منذ ولادتك! لا يمكن لعلم الاجتماع أن يُشكِّل شيئًا ذا بال لك. فمنظورك للأمور مشوَّه بطبيعته.»

فوجَّه لها سؤالًا ذا مغزًى: «ماذا عنكِ؟»

فتمتمت قائلة: «يا لغرورنا نحن معشر النساء!» وأضافت: «لقد ترعرعتُ على اعتبار نفسي حالةً استثنائية. وأنسى أنه ربما يكون هناك آخَرون مميَّزون. بل ربما تكون أحدَ ملهِمينا؛ ربما تكون بول فيسك متخفيًا.»

ضاقت عيناه قليلًا وهو ينظر إليها عن كثب. ومن الجانب الآخَر من المائدة، قطعَ الأسقف محادثةً مثيرة عن خُطبِه للطبقات العاملة، ووضع الإيرل كأسَ نبيذه بإيماءةٍ تنمُّ عن نفادِ صبره.

تساءل السيد ستينسون: «ألا يعرفُ أحدٌ حقًّا مَن هو بول فيسك؟»

أجابَه السيدُ هاناواي: «لا أحدَ يعرف يا سيدي. كنت أظنُّ قبل وقتٍ قصير أنَّ من الحكمة أن أُرسل مجموعات بحث شاملةً سيرًا على الأقدام، لكنها لم تكن ذاتَ جدوى تمامًا.»

فسعلَ الأسقف.

واعترفَ قائلًا: «لا بد لي أن أُقر بذنب زيارتي لمكاتب جريدة «مانثلي ريفيو» لهذا الغرض نفسِه. لقد تركتُ له رسالة هناك وأودعتُها لدى المحرِّر، أدعوه فيها إلى اجتماعٍ في منزلي. ولم أتلقَّ ردًّا منه. يبدو أنَّ سرية هويته منيعة.»

فصرَّح الإيرل قائلًا: «أيًّا كانت هُويته، لا بد من تكميم فمه. إنه خائنٌ لبلاده.»

فقال الأسقف بنبرةٍ صارمة: «لا أتفقُ معك يا لورد مالتينبي. إن الخطر الكامنَ في معتقَدات الرجل يكمن في وضوح أفكاره، واقترابها الشديدِ من حقائق الحياة الأساسية.»

فقاطعَهما الدكتور لينارد قائلًا: «إنَّ ذلك الرجل، على أيِّ حال، هو الكاتِب المجهول الأذكى والأبرع منذ عهدِ سويفت وخطابات جونيوس.»

تردَّد السيدُ ستينسون لحظة. وبدا غيرَ واثق من انضمامه إلى المحادثة من عدمه. وفي الأخير تغلَّب عليه الاندفاع.

فقال: «لنكن شاكرين جميعًا أنَّ بول فيسك قانعٌ بالكلمة المكتوبة. فلو وجدَت الديمقراطية الإنجليزية اليوم نفسَها مع قائدٍ مثلِه، لكان هو مَن يحكم البلادَ الآن وليس أنا.»

فاعترضَ الإيرل قائلًا: «الرجلُ من دُعاة السلام!»

فصرَّح الأسقف بنبرة هادئة: «ونحن جميعًا كذلك. نحن جميعًا دُعاةٌ للسلام بمعنى أننا نُحب السلام. ليس بيننا أحدٌ لا يأسى على ما نشهَدُه اليوم من أهوال. ليس بيننا أحدٌ لا يسعى بشغَف لإيجاد العقل المدبِّر الذي يُمكن أن يقودَنا للخروج مما نحن فيه.»

قال الإيرل في إصرار: «لا سبيلَ للخروج من ذلك سوى أن نهزمَ العدو.»

فقاطعه جوليان منضمًّا إلى الحديث للمرة الأولى: «إنَّه السبيلُ الوحيد الواضح، لكننا في تلك الأثناء، يموت منا شخصٌ مع كلِّ دقة من دقات الساعة.»

فقال السيدُ هاناواي ويلز متأملًا: «المسألة هنا تكمن فيما إن كان الجيل الحاليُّ لا ينزع للاشمئزاز والتقزُّز فيما يتعلق بالحياة البشرية. لقد بيَّن لنا التاريخُ الفوائدَ الرائعة التي حصَدَتها أعظمُ الأمم من خلال تقليل عددِ السكان عن طريق الحرب.»

فعلَّق الدكتور لينارد قائلًا: «وقد بيَّن لنا التاريخُ أيضًا أن آخِرَ مصدرٍ من مصادر القوة هو القوة نفسها. فلم يصل أيُّ عقل حتى الآن إلى مخطَّط منطقيٍّ للتحكيم الدولي.»

قال الأسقف معترفًا: «أخشى أن الطبيعة البشرية لم تتغيَّر كثيرًا منذ عهد الفلستيِّين.»

هنا التفتَ جوليان إلى رفيقته.

وتمتم قائلًا: «حسنٌ، لقد اتفقوا جميعًا فيما بينهم، أليس كذلك؟» وأردفَ: «يُمكنكِ أن تجلسي هنا وتستمعي إلى ما يُطلَق عليه الصوت العصري.»

فهمسَتْ قائلة: «لكن ثَمة شيئًا واحدًا مفقودًا. ماذا كان بول فيسك سيقول، في اعتقادك، لو كان هنا في هذه اللحظة؟ أتعتقد أنه كان سيرضى بالاستماع إلى تلك الأصوات الوقحة ويتقبَّلُ حُكمهم؟»

أجابها جوليان: «من دون مقارنةٍ أو استخفاف، أكان السيد المسيح ليفعل؟»

ردَّت قائلة: «في إطار الشرط نفسِه، قد أُجيبك بأن السيد المسيح، من واقعِ كل ما نعرفه عنه؛ يمكن له أن يحكم مملكةَ الفردوس بصورةٍ رائعة، لكنه بلا شك لم يكن ليستطيعَ أن

يجمع مجموعةً من الوزراء معًا في داونينج ستريت! لكنني بدأتُ أومن بإخلاصك وصدقك. أتعتقد أن بول فيسك مخلصٌ وصادق؟»

أجابها جوليان: «أعتقد أنه يرى الحقيقة ويُكافح من أجل التعبير عنها.»

كانت النساء ينصرفنَ عن المائدة. فمالت نحوه.

وهمست له قائلة: «لا تتأخَّر عني رجاءً. لا بدَّ لك أن تعترفَ أنني كنت رفيقةَ عشاء رائعةً. وقد حدَّثتُك طوال الوقت في موضوعك المفضَّل. لا بد أن تأتيَ وتُحدثني عما قريبٍ عن الفن.»

وبيده خلف ظهر كرسيِّه، راحَ جوليان يُشاهد النساء وهنَّ يَخرجن من هالة الأضواء الكهربائية الرقيقة إلى الظِّلال الأكثر قتامةً وكآبة للغرف العالية المقبَّبة، فكانت كاثرين أنحلَ قليلًا من معظم الأُخريَات وتسير بحركة متمهلة ذات رشاقة غريبة، لا بد أنها قد ورثتها من أحد أجدادها الروس. ظلَّت كلماتها الأخيرة تتردَّد في ذهنه. كان سيتحدَّث معها عن الفن! راودته رؤيا عابرةٌ للشابِّ الذي كان يرتدي مِعطفًا مشمَّعًا بلونٍ أصفر. فتذكَّر مسيره في الصباح والسيارة المعطَّلة تحت الأشجار. وبدأت دلالةُ تلك الأشياء تتخذ شكلًا معينًا في ذهنه. واستأنفَ جوليان جلسته وهو مذهولٌ بعضَ الشيء.

الفصل الخامس

كان منزل مالتينبي أحدَ تلك المنازلِ القديمة الطِّراز التي يُقدَّم فيها نبيذُ البورت كطقسٍ عادي، ويستجيب ضيوف المنزل إلى دعوتهم إلى غرفة الجلوس ببطءٍ. وبعد أن غادرَت النساء، سحبَ الدكتور لينارد كرسيَّه بالقرب من كرسيِّ جوليان.

وعلَّقَ قائلًا: «رفيقتُك على العشاء مثيرةٌ للاهتمام. قِيل لي إنها شابة ذكية للغاية.»

فأقرَّ جوليان: «إنها موهوبة بكل تأكيد.»

تابعَ الأستاذ الجامعي بأكسفورد حديثه قائلًا: «راقبتُها بينما كانت تتحدَّث إليك. إنها إحدى تلك الشابات النادرات التي لا يلتفتُ المرء إلى جَمالها الأخَّاذ بفعل جاذبيتها العامة. كانت الليدي مالتينبي تُخبرني بمقتطفاتٍ صغيرة عن تاريخها. يبدو أنها تُفكِّر في ترك عملها في مجال الفن من أجل نوعٍ من العمل الاجتماعي.»

فقال جوليان وهو يُفكِّر مليًّا: «من الغريب مدى انجذابِ الموهوبين من الروس دائمًا لمصلحة العامة. فإنجلترا، على سبيل المثال، لا تُفرز ديمقراطيِّين حقيقيين ذَوي عبقرية. يبدو أن روسيا تحتكرهم جميعًا.»

أشارَ الدكتور لينارد قائلًا: «لا شيءَ يُحفِّز إخراجَ أفضلِ ما في رجلٍ أو امرأة أكثرَ من شعورٍ بالظلم. لا شك أن روسيا قد تعرضت لسوء حُكم وإدارة بصورة مخزية سنواتٍ كثيرة.»

أصبحَت المحادثة عامة وسخيفةً بفضل تدخُّلِ آخَرين من الضيوف الحاضرين. ثم بعد ذلك بمدةٍ قصيرة، نهضَ السيد ستينسون واستأذن. فقد كان سكرتيره على الهاتف ويرغب في اجتماعٍ قصير به. وبعد مغادرته سادَ صمتٌ قصير.

علَّقَ أستاذُ جامعة أكسفورد قائلًا: «بدأ ستينسون يُظهر علامات التوتُّر والإجهاد.»

فأشارَ اللورد شرفينتون قائلًا: «ولِمَ لا؟ لقد جاءَ إلى منصبه مفعمًا بحماسةٍ مذهلة للغاية. ودوَّت أصداءُ خطبه حول العالم كنغمةِ بوق جهير. ونجحَ في جذب المتذبذبين والمتشكِّكين إليه. وأشعلَ شراراتِ حماسٍ لا تزال مشتعلة. لكنه رجلُ أفعال. وهذا الركود الحاليُّ يُؤرقه بشدة. لقد سمعتُه يتحدَّث الأسبوعَ الماضي وأصابتني خيبةُ أمل. يبدو أنه فقدَ إلهامه. إنه في حاجةٍ إلى محفِّز من نوعٍ ما، حتى ولو كانت كارثة.»

فقال الأسقف متأملًا: «أتساءل ما إن كان خائفًا حقًّا من الشعب؟»

قال اللورد مالتينبي في غرور: «أرى أنَّ ملحوظته عن الشعب كانت في غاية الرعونة.»

تابعَ الأسقف حديثه قائلًا: «أنا أعرف الشعب وأُحبه. وأظن أيضًا أنهم يثقون فيَّ. لكنني لستُ واثقًا من أنني أرى بصيصًا مما يدور في ذهن ستينسون. هناك عدةُ ملايينَ من الناس في البلاد يعتقدون حقًّا أن الحرب في أساسها مسألةٌ تخصُّ الساسة، ويعتقدون أيضًا أنَّ النصر يعني شيئًا كبيرًا لمن يُطلقون عليه «الطبقات العليا» أكثرَ مما يعني لهم. ومع ذلك، فهم يتحمَّلون حصةً مماثلةً من القتال بكل ما تحمله الكلمة من معنًى؛ لأن المسألة حين تتعلَّق بالحياة البشرية، تُصبح حياةُ ابن العامل مساويةً لحياة ابن النبيل فيما تحظى به من قيمةٍ جوهرية.»

تململَ اللورد مالتينبي قليلًا في مقعده. كان على جَبينه ذي الشكل الأرستقراطي تقطيبةٌ طفيفة. وقد اختلف كليةً مع المتحدث الذي كان يخشى مواجهته رغم ذلك. وتسلَّم السيد هاناواي ويلز، الذي كان يتحيَّنُ فرصته، زِمامَ المحادثة. وقد تحدَّثَ بأسلوبٍ متحفِّظ، وكانت أصابعه تُداعِب كأسَ نبيذه.

قال: «لا بد أن أعترف بأنني أشعر بأبلغ الاهتمام بما قاله الأسقف لتوِّه. لم أستطع أن أتحدَّث إليكم عن الوضع العسكري، حتى ولو كنتُ أعلم أكثرَ مما تعلمون، وهذه ليست هي الحال، لكنني أظنُّ أن من الواضح أننا وصلنا إلى مرحلةٍ أشبهَ بطريقٍ مسدود مؤقتًا. يبدو بكلِّ تأكيد أنه ما من سبب يدعو للانزعاج أو الذُّعر على أي جبهة، لكنَّ ثَمة اضطرابًا غريبًا دائرًا، ليس في لندن وحدها وإنما أيضًا في باريس وروما، ولا يمكن لأحدٍ أن يقطعَ بسببه، ولا يستطيع أن يرجعه إلى سببٍ محدد. وعلى الصعيد نفسه، لدينا معلومات سريةٌ بأن روحًا جديدة من الأمل تدبُّ في الخارج في ألمانيا. لقد بلغنا أن رجالًا على قدرٍ من الرصانة والتفكير الرشيد — وهم قلةٌ حتى في ألمانيا — قد تنبَّئُوا بالسلام قبل أن يمرَّ شهرٌ واحد.»

قاطعه الدكتور ليناردِ قائلًا: «الافتراضُ القائم هو أن ألمانيا تُخفي شيئًا في جَعبتها.»

أجابَ الوزير قائلًا: «ليس هذا افتراضًا فحسب، لكنني أعتقد أنه الحقيقة أيضًا.»

قال اللورد شرفينتون: «يمكن للمرءِ أن يتنبَّأ بخطرٍ داهم ويخشاه لو أنَّ حزب العمال في ألمانيا كان قويًّا كحزب العمَّال لدينا، أو لو كان حزب العمَّال هنا على قلب رجلٍ واحد. لكن الظروف الراهنة تُوحي لي بألَّا داعيَ للانزعاج.»

فصرَّح هاناواي ويلز قائلًا: «أظن أنك مخطئ في هذه النقطة.» وأردفَ: «إن كان حزب العمال في ألمانيا في قوة حزب العمال هنا، فإنه سيكون قويًّا بما يكفي للإطاحة بأسرة هوهينتزولرن، والقضاء على السلطة العسكرية التي نخوض حربًا ضدَّها، ووضع الأساس لجمهوريةٍ ألمانية عُظمى نستطيع أن نُبرم معها السلام الذي يتطلع إليه كلُّ رجل إنجليزي. الخطر، والخطر الحقيقي الذي علينا أن نُواجهه، يكمن في اندماج أحزاب العمَّال والاشتراكيِّين والنقابيين في هذا البلد، وفي إصرارهم على التعامُل مع حزب العمَّال الضعيفِ في ألمانيا.»

قال جوليان: «أتفقُ مع الأسقف. فالديمقراطية غير المقيَّدة في بلادنا قد تعتقد أنها تتعرَّض للقهر والاضطهاد، لكنها وطنيَّة بشدةٍ على الصعيد الفردي. ولا أعتقد أن قادتها سيجبرون الدولةَ على مدِّ يدها للسلام؛ حتى يحصلوا على ضماناتٍ كاملة بأنَّ رفاقهم في ألمانيا قادرون على احتلال مكانة مُهيمنة في حكومة ذلك البلد؛ مكانةٍ مُساوية على الأقل لنفوذ الديمقراطية هنا.»

نظرَ الدكتور ليناردِ إلى المتحدث في شيءٍ من الفضول. كان يعرف جوليان منذ كان صبيًّا لكنه لم يكن يعتبره سوى هاوٍ.

وقال: «لعلك لا تدرك ذلك، لكنك تشرح عمَليًّا آراءَ ذلك الكاتِب الرائع الذي كنتم تتحدَّثون عنه، بول فيسك.»

فقال الأسقف ضاحكًا بصوتٍ عالٍ: «لقد قِيل لي إنَّ بول فيسك هو اسمٌ مستعار لأحد الوزراء.»

ردَّ هاناواي ويلز: «وأنا بلغَني من مصادرَ موثوق فيها جدًّا أنه قسٌّ في كنيسة إنجلترا.»

وأضافَ اللورد شرفينتون: «آخر إشاعة سمعتُها أنه بقَّال يمتلك متجرًا صغيرًا في ويجان.»

فقال الدكتور ليناردِ: «يا إلهي! لقد كثرت الأقاويلُ بشدة! فقد أكَّد لي رجلٌ من أحد نوادي بوهيميا التي أحملُ عُضويتها — نادي سافيدج في الواقع — أكَّد لي أنه صحافيٌّ مدمنٌ

على الأفيون، وأنه يعيش على إحسان حفنةٍ من أصدقائه؛ إنه حطامُ رجل كان فيما مضى مُحررًا لصحيفة لندنية مهمة.»

سأل الإيرل ابنَه بنبرة متعالية: «لديك قلةٌ من المعارف في مجال الصحافة يا جوليان، أليس كذلك؟» وأضاف: «ألم تسمع بأيِّ شيء؟»

أجاب جوليان: «سمعتُ الكثير، لكنني لم أَمِلْ إلى تصديق أيٍّ مما قيل. أتصوَّر أن بول فيسك، رجل صنعَ لنفسه جمهورًا، ويعتقد أن كلماته المكتوبة تكتسب قيمةً إضافية من حقيقة أنه لا يسعى بالطبع إلى مكافأة أو تقدير؛ تمامًا بالطريقة نفسها التي هَزِئ بها الديمقراطيون الحقيقيون الجادُّون قبل عشرين عامًا من فكرة الحصول على مقعد في البرلمان، أو التعامُل بأي شكل مع العدو.»

قال الأسقفُ: «كان من الرائع أن أكون واثقًا من أنَّ جميعنا ليس لديه ميلٌ مفرط قليلًا نحو المساومات والحلول الوسط. فمن السهل للغاية استنزافُ الضمير.»

فُتِحَ بابُ غرفة الطعام، وأعلن كبيرُ الخدم عن وصول زائر.

«الكولونيل هيندرسون يا فخامة اللورد.»

التفتَ الحضور جميعًا في مقاعدهم. وقام الكولونيل، الذي كان رجلًا أنيقًا ذا طلَّةٍ عسكرية، بمصافحة اللورد مالتينبي.

قال بينما كان يتَّخذ مجلسه: «أُقدِّم عميق اعتذاري يا سيدي. كانت الكونتيسة كريمةً بما يكفي لتُخبرني أنني إن لم أستطع أن أصلَ في موعد العشاء، فيمكنني أن أحضر بعد ذلك.»

«هل أنت واثقٌ من أنك تناولتَ عشاءك؟»

«تناولتُ شيئًا يسيرًا في ميس، شكرًا لك.»

«أتريد كأسًا من النبيذ إذن؟»

صبَّ الكولونيل لنفسه كأسًا من إناء النبيذ الذي مُرِّر إليه، وتبادل التحايا مع العديد من الضيوف الذين بادر مضيفه بتقديمه إليهم.

تساءل الأخير: «آمُل ألا يكون هناك غاراتٌ أو اجتياحاتٌ أيها الكولونيل؟»

«يُسعدني أن أقول إنه لا يُوجد شيءٌ خطير من هذا القبيل. لكننا حَظِينا بشيءٍ من الإثارة من نوع آخر. فقد أمسكَ أحدُ رجالي بجاسوسٍ هذا الصباح.»

استثير انتباهُ الجميع. فحتى بعد ثلاث سنوات من الحرب، كان لا يزال هناك شيءٌ مثير في تلك الكلمة.

صاحَ اللورد مالتينبي: «يا إلهي! كنت أظن أنَّ مكاننا البعيد عن بقية العالم ليس مهمًّا بالقدر الذي يجتذبُ اهتمامًا من ذلك النوع.»

فأفضى إليه الكولونيل قائلًا: «كانت مسألةَ تواصلٍ مع العدو. كانت توجد هنا غوَّاصة للعدو ليلةَ أمس، ولدينا أسبابٌ للاعتقاد بأنَّ رسالةً منها خرجَت إلى البر. وقد أمسكنا برجل عند الفجر.»

سأله الأسقف: «وماذا فعلتم معه؟»

أجابه الكولونيل ببرود: «أطلقنا عليه النارَ قبل ساعة.»

سأله جوليان وهو يميل إلى الأمام: «هل ثَمة آخَرون طلقاء؟»

فأقرَّ الكولونيل وهو يرتشفُ نبيذه بتلذُّذ: «ثَمة شخصٌ آخر. لكن رجالي في الشرطة العسكرية هنا أذكياء للغاية، وأظنه مستبعدًا أن يتمكَّن من الهرب.»

سأله الإيرل: «هل كان الرجلُ الذي أطلقتم النارَ عليه غريبًا؟» واستطردَ: «ألم يكن واحدًا من المستأجرين لديَّ؟»

فطمأنَه الكولونيل سريعًا: «كان غريبًا.»

جازفَ جوليان وسأله: «ورفيقه؟»

«يُعتقَد أن رفيقه كان شابًّا. وثَمة اعتقادٌ بأنه قد هربَ في سيارة، لكنه على الأرجح يختبئُ في المنطقة هنا.»

عبَس اللورد مالتينبي. فقد بدا من غيرِ اللائق له أن يُرتكَب شيء من هذا القبيل في نطاق مِلكيته دون علمه. فهبَّ واقفًا.

وقال: «على الأرجح أن الكونتيسة تنتظر بعضَنا من أجل لعب البريدج. آمُل أن تشاركنا أيها الكولونيل.»

نهضَ الرجالُ وخرَجوا مصطفِّين ببطءٍ من غرفة الطعام. لكن الكولونيل استوقف مضيفه، وتباطأ جوليان في خُطاه أيضًا.

قال الأول: «آمُل يا لورد مالتينبي أن تستميحَ العذر لرجالي، لكنهم أخبروني أن من الضروريِّ أن يُفتشوا مرأبَك بحثًا عن سيارة شُوهدت في الجوار.»

كرَّر اللورد مالتينبي في عبوس: «يُفتشون مرأبي؟»

قال الكولونيل موضحًا: «لا شكَّ أن الرجل الذي لا يزال طليقًا قد استخدمَ سيارةً ليلة أمس، ومن المحتمَل جدًّا أنها كانت مسروقة. أنا واثقٌ من أنك ستتفهَّم أن أي استفساراتٍ يجدُ رجالي أنَّ من واجبهم القيامَ بها إنما هي مدفوعة تمامًا بالضرورة العسكرية.»

وافقه الإيرل وكان لا يزال متحيرًا بعضَ الشيء: «هو كذلك بالفعل. ستجدُ رئيسَ السائقين لديَّ متعاونًا تمامًا. وأنا واثقٌ من أنه سيُمِد رجالك بكل المعلومات الممكنة. لكن على حَدِّ علمي، لا توجد سيارة غريبة في مرأبي. هل لديك علمٌ بوجود أي سيارة غريبة يا جوليان؟»

أجاب الابنُ قائلًا: «سيارة الآنسة آبواي فقط. كانت سيارتها الصغيرة من طِراز بانهارد متوقفة على الطريق طوال الليل، في انتظار تركيب بعض شمعات الاحتراق فيها. أما الآخرون، فيبدو أنهم جميعًا قد أتَوا بالقطار.»

رفعَ الكولونيل حاجبَيه على نحوٍ طفيف للغاية، وتحرَّك ببطءٍ متجهًا نحو الباب.

ثم قال: «الأمر بين يدَي الشرطة العسكرية، لكن أستأذنك لحظات يا لورد مالتينبي، فأنا أرغبُ في التحدث إلى رئيس السائقين لديك.»

أجابه الإيرل: «بالتأكيد. سآخذك إلى المرأب بنفسي.»

الفصل السادس

بعد بضع لحظاتٍ دلفَ جوليان إلى حجرة الاستقبال على عجل. رمَقَ المكان حوله بسرعة يُراوده شعورٌ واضح بخيبة الأمَل. ودَعته أمُّه إلى جوارها حيث كانت تُرتِّب طاولة البريدج.

وقالت مبتسمة: «يبدو أنك تفتقد أحدًا، يا بُني العزيز.»

فأفضى إليها قائلًا: «أريدُ أن أتحدثَ إلى الآنسة آبواي على وجه التحديد.»

فابتسمت الليدي مالتينبي ابتسامةً سمحة.

«بعد قرابة ساعتَين من الحديث على العشاء! حسنٌ، لن أُبقيك متشوقًا أكثرَ من ذلك. كانت تريد مكانًا هادئًا لتكتب بعض الخطابات؛ ولذا أرسلتها إلى المخدع.»

غادر جوليان على عجَل بعد أن شكرها. كان المخدع عبارةً عن غرفة صغيرة مفتوحة على الجناح الذي خُصِّص للأميرة وابنة أخيها، وكان الجناح يتخذ شكلًا شبهَ دائريٍّ مزيَّنًا بستائر من الحرير الصيني ذي اللون الأزرق الباهت، ومفروشًا بقطع متفرقةٍ تعود إلى حقبة لويس السادس عشر، تحديدًا خِزانة من خشب الورد جاءت من فرساي، طالما ارتبطَت في ذهن جوليان بالرائحة الخافتة لجَرَّتين خزفيَّتَين قادمتَين من سيفر من أوراق الأزهار الجافة. فُتِحَ بابُ المخدع بلا أي ضوضاء تقريبًا.

التفتَت إليه كاثرين لدى دخوله، وكانت تجلس إلى طاولة كتابة صغيرة من خشب الأبنوس.

صاحت قائلةً: «أنت؟»

أرهف جوليان السمعَ لحظةً ثم أغلق الباب. وأخذت تُراقبه وكان القلم لا يزال بين أصابعها.

قال جوليان: «آنسة آبواي، هل سمعتِ أيَّ أخبار هذا المساء؟»

فجأةً توقف القلم الذي كانت تطرق به على الطاولة. ثم استدارت أكثر قليلًا.

وكرَّرَت قائلةً: «أخبار؟» واستطردَت: «لا! هل هناك أي أخبار؟»

«اعتُقِلَ رجلٌ عند الأهوار هذا الصباح وأُطلِقَت النارُ عليه قبل ساعة. يقولون إنه كان جاسوسًا.»

كانت كاثرين جالسةً بلا حَراك وكأنها قد تحوَّلت إلى قطعة من الحجر.

«وبعد؟»

«والشرطة العسكرية لا تزال تبحث عن رفيقه. إنهم يُفتشون المرأب الآن لِيرَوا إن كان يمكنهم أن يجدوا سيارة كوبيه صغيرة رمادية اللون.»

لم تنبس ببنتِ شَفة هذه المرة، لكنَّ كل تلك المخاوفِ غيرِ المحددة التي تزاحمت في نفسها بدَت فجأةً وقد وصلت إلى ذروتها. كان مظهرها قد تغيَّر على نحوٍ غريب خلال الساعة المنصرمة. فلاح في عينَيها وميضُ رعب يرقى إلى اليأس، وعلى فمِها ارتسمت ملامحُ القلق بينما كانت جالسةً تنظر إليه.

سألته قائلة: «كيف عرَفت ذلك؟»

«الكولونيل قائد الكتيبة العسكرية المتمركزة هنا وصلَ لتوِّه. إنه في المرأب الآن مع أبي.»

فغمغمَت قائلة: «قُتِل!» وأضافت: «يا إلهي!»

أردفَ قائلًا: «أريدُ أن أساعدكِ.»

تفرَّسَت ملامحه بنظرة عنيفة من عينَيها.

«أنت واثقٌ من ذلك؟»

«واثق.»

«أتعرف معنى هذا؟»

«أعرف.»

«كيف عرَفتَ الحقيقة؟»

أخبرها قائلًا: «تذكَّرتُ فمكِ. رأيتُ سيارتكِ ليلة أمس، ورُحتُ أتتبع آثارها هذا الصباح عبر الطريق.»

فعلَّقَت بابتسامة باهتة للغاية: «الفمُ ليس دليلًا قويًّا للاستناد إليه.»

فأجابها: «لكنه فمُكِ.»

هبَّت واقفةً على قدميها ووقفت لحظة وكأنها تسترقُ السمع. ثم دسَّت يدها في صدر فستانها، وأخرجت لُفافةً ورقية صغيرة مغلَّفة بقطعة من المشمَّع. أخذها منها على الفور ودسَّها في جيب صدر معطفه.

قالت في إصرارٍ: «أتفهم معنى ما تفعل؟»

أجابها: «تمامًا.»

سارت عبر الغرفة نحو البساط المفروش أمام الموقد ووقفَت هناك لحظة، وكانت تتَّكئ على رف الموقد.

سألها جوليان: «هل هناك شيءٌ آخر بإمكاني فعله؟»

فالتفتت إليه. كان قد طرَأ على وجهها تغييرٌ مذهل.

وقالت: «لم يرَني أحد. لا أعتقد أنه كان هناك أيُّ شخص آخر غيرك يمكن أن يتعرَّف على السيارة على نحوٍ قاطع. وعمتي والخادمة التي معنا ليس لديهما أدنى فكرةٍ أنني غادرت حجرتي ليلة أمس.»

«وملابسك؟»

طمأنته بابتسامةٍ وقالت: «تخلَّصتُ منها تمامًا. أتمنى أن أجدَ الشجاعة يومًا ما لأسألك إن كنت تجد ثيابي أنيقة.»

ردَّ بنبرة جادة بعضَ الشيء قائلًا: «يومًا ما سأتحدث معكِ حديثًا جادًّا للغاية يا آنسة آبواي.»

«هل ستكون عابسًا حينها؟»

لم يستجب لحالتها المِزاجية التي صارت أكثرَ مرحًا وابتهاجًا. فقد تركَته جاذبيةُ عينيها أكثرَ برودًا من أي وقت مضى.

ثم قال: «أرغبُ في إنقاذ حياتكِ، وأنوي فعلَ ذلك. ولكن، في الوقت نفسِه، لا يُمكنني أن أنسى جريمتكِ ولا تُواطئي فيها.»

فقالت في شيء من التحدِّي: «إن كنت تشعر بهذا، فقل الحقيقة. كنتُ أعرف المخاطرةَ التي أخوضها. ولست أخشى شيئًا، حتى في هذه اللحظة. يمكنك أن تُعيد لي تلك الأوراقَ إن شئت. أؤكِّد لك أن الشخصَ الذي سيجدون هذه الأوراق معه سيُقتَل رميًا بالرصاص بلا أدنى شك.»

فقال بنبرةٍ حاسمة: «إذن سأحتفظ بها بكل تأكيد.»

قالت وهي تبتسمُ في جُرأة: «أنت شهم للغاية يا سيدي.»

أجابها جوليان: «أنا فقط أناني لا أكثر. إنني حتى أحتقر نفسي لما أقوم به الآن. إنني أجعلُ من نفسي خائنًا؛ فقط لأنني لا أستطيع أن أتحمَّل فكرةَ ما يمكن أن يحدُث لكِ إن اكتُشِف أمركِ.»

سألته: «إذن أنت تُكنُّ لي شيئًا من الإعجاب يا سيد أوردين؟»

تنهَّد قائلًا: «قبل أربعٍ وعشرين ساعة، تمنيتُ لو أجبتُ عن هذا السؤال قبل أن يُطرح.»

غمغمَت قائلة: «هذا أمرٌ مثير كثيرًا. إذن ستنقذ حياتي وبعدها ستُعاملني وكأني منبوذة؟»

قال جوليان: «آمُل أن يكون لديكِ تفسيرات ... أن أجد ...»

رفعَت يدَها وأسكتَته. مرةً أخرى اتسعت عيناها وتصلَّب جسدُها. كانت تسترقُ السمع باهتمامٍ بالغ.

همسَت قائلة: «ثَمة شخصٌ آتٍ، أعتقدُ أنهم رجلان أو ثلاثة رجال. يا لنا من حمقى! كان ينبغي لنا أن نحسم أمرنا ... بشأن السيارة.»

أطبقَت أسنانها معًا للحظة. كان ذلك هو أقصى جهدٍ يمكن أن تبذله للسيطرة على نفسها. ثم ضحكت بطريقةٍ شبهِ طبيعية، وأشعلت سيجارة، وجلست على ذراع كرسي وثير.

وقالت بصوت عالٍ: «أنت تتدخَّل في مراسلاتي بصورةٍ صارمة، وأنا واثقةٌ أنهم يُريدونك من أجل لعب البريدج.» ثم أضافت وهي تنظر نحو الباب: «ها قد أتى اللورد مالتينبي ليُخبرك بذلك.»

كان اللورد مالتينبي مختالًا وفي غاية الجمود، لكنه بدا آسفًا. كان يعتبر أن المسألة التي أصبح ضالعًا فيها سخيفةً برُمتها.

فقال: «آنسة آبواي، اسمحي لي أن أُقدم لكِ الكولونيل هيندرسون. لقد وقع حادثٌ مؤسف هنا ليلةَ أمس، وأصبح من واجب ... آه ... الكولونيل هيندرسون أن يتحرى عنه لاستجلائه. إنه يرغب في أن يسألكِ سؤالًا بخصوص ... آه ... سيارتك.»

قطَّبَ الكولونيل هيندرسون جبينه. وتقدَّم للأمام قليلًا وكأنه يرغب في أن يُعفي الإيرل من المزيد من الحديث.

وبدأ حديثه قائلًا: «هل لي أن أسألكِ، يا آنسة آبواي، إن كانت السيارة الكوبيه الصغيرة التي تقف على مسافة مائة ياردة في الشارع الخلفي مِلكًا لكِ؟»

قالت مؤكدةً بتنهيدة خفيفة: «إنها سيارتي. وهي لا تعمل.»

كرَّر الكولونيل: «لا تعمل؟»

فأوضحت قائلةً: «أظن أنَّ لديك بعضَ المعرفة بالسيارات. لقد أخبروني أن اثنتَين من شمعات الاحتراق معطوبتان. وأُفكر في تغييرهما صباح الغد، إن تمكَّنت من الحصول على مساعدة السيد أوردين.»

سألها الكولونيل: «كم مضى على وجود السيارة هناك في حالتها تلك إذن؟»

أجابت: «منذ نحو الخامسة من بعد ظهر أمس.»

«ألا تظنين إذن أنَّ من المحتمل أن السيارة كانت موجودةً على الطريق في مكانٍ آخر ليلةَ أمس؟»

ضحكت قائلة: «على الطريق!» واستطردَت: «لم أستطع أن أستقلَّها إلى المرأب! اذهب وألقِ نظرةً عليها بنفسك أيها الكولونيل، إن كنت تفهم في أمور السيارات. لقد ألقى السائقون هنا نظرةً على شمعات الاحتراق حين أحضرتها إلى هنا وستجدون أن أحدًا منهم لم يمسَسْها.»

فتدخل الإيرل قائلًا: «أثقُ أن سائقي عرَض القيام باللازم، أليس كذلك؟»

طمأنَته قائلة: «لقد فعلَ بكلِّ تأكيد يا لورد مالتينبي. ولكني أحاول جاهدةً أن أُصلح سيارتي بنفسي، وقد قررت تغيير هاتين الشمعتَين بنفسي صباح الغد.»

سألها مستجوبُها: «إذن أنتِ تقودين سيارتكِ بنفسكِ يا آنسة آبواي؟»

«بكل تأكيد.»

«ربما يمكنكِ تغييرُ الإطارات إذن؟»

«يمكنني ذلك نظريًّا، لكنني في الواقع لم أُضطرَّ إلى فعل ذلك من قبل قط.»

تابعَ الكولونيل هيندرسون: «إنَّ إطاراتكِ تحمل نقوشًا غير مألوفة إلى حدٍّ ما.»

أخبرته قائلة: «إنها روسيةُ الصنع. وقد اشتريتُها لأجل ذلك السبب. في الواقع، إنها إطارات جيدة للغاية.»

قال الكولونيل: «آنسة آبواي، لا أعرفُ إن كنت تعلمين أن قواتي في الشرطة العسكرية يبحثون عن جاسوس أُبلِغ عن هروبه من الأهوار ليلة أمسِ في سيارة صغيرة تُركَت في بقعة معيَّنة على طريق سولتهاوس. وفي اعتقادي أن نورفولك لا يوجد بها إطاران شبيهان بإطارات سيارتكِ. فكيف تُفسرين وجود آثار إطاراتكِ ظاهرةً بوضوح على الطريق حتى بقعة معينة بالقرب من سولتهاوس؟ لقد تتبَّعت الشرطة آثارها هذا الصباح.»

التزمَت كاثرين الصمتَ التام. وبدأت ابتسامةُ انتصار ترتسم ببطءٍ على شفتَي مُتَّهِمها. وارتفع حاجبا اللورد مالتينبي وكأنه يشعر بالذعر.

تدخَّل جوليان قائلًا: «ربما يمكنني تفسيرُ سبب وجود آثار الإطارات على الطريق. لقد أوصلَتني الآنسة آبواي إلى كوخ فورلي، حيث أمضيتُ الليلة هناك، وكان ذلك في وقتٍ

متأخر بعد الظهيرة. وكانت الآثار لا تزال موجودةً حين عُدَت هذا الصباح؛ لأنني لاحظتُ وجودها.»

سأله الكولونيل مقطبًا جبينه: «الآثار نفسها؟»

أجابَ جوليان: «هي نفسها من دون شك. لقد رأيتُها في مكانٍ ما حيث انزلقَت السيارة بعضَ الشيء.»

ابتسم الكولونيل هيندرسون ابتسامة أكثرَ طبيعية قليلًا.

واعترف صراحة: «أرى أنني انزلقتُ في موقفٍ آخر معقَّد. لكنني مضطرٌّ إلى أن أسألَكِ هذا السؤال يا آنسة آبواي. هل غادرتِ حجرتكِ بأي حال ليلة أمس؟»

فأجابته: «ليس إلا إن كنت أسير أثناء نومي. لكن من الأفضل أن تسأل عمتي والخادمة باركينز. فكل واحدة منهما تنام على جانب من جانبَي فراشي.»

تابعَ الكولونيل بنبرة أكثر مرحًا: «أظنكِ لن تُبدي اعتراضًا لو ارتأى رجالي أن يُفتشوا في أغراضكِ؟»

فأجابت كاثرين في هدوء: «إطلاقًا، فقط إن كنت ستفرغ حقائبي، فأرجو أن تسمح لخادمتي أن تتولى فَرْدَ ملابسي وطَيَّها.»

قال الكولونيل هيندرسون للورد مالتينبي: «لا أظن أن لديَّ أسئلةً أخرى لأطرحها على الآنسة آبواي في الوقت الراهن.»

قال الإيرل بنبرة رسمية جامدة بعضَ الشيء: «في هذه الحالة سنعود إلى حجرة الاستقبال. أثقُ يا آنسة آبواي أنكِ ستقبلين اعتذاري عن تطفلنا عليكِ. أشعرُ بالأسف لتعرُّض أحد ضيوفي لشكوك شنيعة كهذه.»

ضحكت كاثرين ضحكة رقيقة.

وقالت: «ليست شنيعة للدرجة يا عزيزي اللورد مالتينبي. فأنا لا أعرف تمامًا ما كان مشتبهًا بي في ارتكابه، لكنني واثقة من أن الكولونيل لم يكن ليطرحَ هذه الأسئلة لو لم يُملِ عليه واجبُه ذلك.»

فأكدَّ الكولونيل بشيء من الترفُّع والهيبة: «لو لم تكوني ضيفة في هذا المنزل يا آنسة آبواي، لأمرتُ باعتقالك أولًا ثم استجوبتكِ في وقتٍ لاحق.»

قالت في لباقة: «كولونيل هيندرسون، أنت منحدرٌ من سلالة من رجالٍ اعتادوا الانتصار في الحروب. وأنت أدرى بنفسك.»

سألها اللورد مالتينبي وهو واقفٌ عند الباب: «آمُل أن تنضمِّي إلينا سريعًا، ألن تفعَلي؟»

فوعدَته قائلة: «في غضون دقائق قليلة.»

أُغلِقَ الباب خلفهما، وانتظرت كاثرين لحظة، ثم غاصت في أحد الكراسي في شيء من الهستيريا.

وقالت معترفة: «لا يُمكنني أن أتجنَّب مسحةً من الإثارة في حياتي كما ترى، إنها مرافقة لشخصيتي وجنسيتي. لكن جديًّا، والآن وبعد أن انتهى ذلك، لا أظن أنني في خطرٍ من أي نوع. إن المسكين الذي قُتِلَ اليوم ينتمي لمجموعة مختلفة. كان جاسوسًا هنا منذ بداية الحرب.»

فسألها بصورة مباشرة: «وماذا تكونين أنتِ؟»

ضحكَت في وجهه.

وصرَّحَت قائلةً: «شابة جذابة للغاية، على الأقل أشعرُ بالثقة في أنك ستقتنع بذلك حين تعرفني على نحوٍ أفضل.»

الفصل السابع

كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف في صباح اليوم التالي حين دلفَ جوليان إلى حجرة الجلوس الخاصة بمايلز فورلي استجابة لدعوة جهورية منه بالدخول. كان فورلي ممددًا على الأريكة يُدخن غليونًا ويقرأ الجريدة.

استقبله فورلي استقبالًا حارًّا قائلًا: «الرجلُ الطيب!» ثم أردفَ: «كنت آمُل أن تزورني هذا الصباح.»

سحبَ جوليان الكرسي الوثير المتداعي الآخَر بالقرب من نار المدفأة، وشرعَ يملأ غليونه من برطمان التبغ المفتوح.

ثم سأله: «كيف حال ساقك؟»

أجابه فورلي بابتهاج: «كادت تُصبح على خيرِ ما يُرام. يبدو لي أنني كنت خائفًا حتى من قبل أن أُصاب. كيف حال رأسك؟»

صرَّح جوليان وهو يُمدد جسده: «لا ألم على الإطلاق. لا بد أنني أمتلكُ جمجمة حديدية.»

«هل من أخبار؟»

«هناك أخبار بما يكفي، إن كنت لم تسمع بها. لقد قبضوا على الرجل الذي ضرَبني على رأسي، والذي أعتقد أنه قطع اللوحَ الخشبي بالمنشار، وأردَوه قتيلًا بالرصاص ليلة أمس.»

صاحَ فورلي وهو يُخرج غليونه من فمه: «أحقًّا فعلوا!» وأردفَ: «قتلوه؟ مَن هو سيِّئ الحظ ذاك إذن؟»

أجابه جوليان: «يبدو أنه كان مصفِّف شعر ألمانيًّا، هرب من معسكر اعتقال قبل عامَين وظلَّ طليقًا منذ ذلك الحين، وكان على اتصالٍ بطريقة أو بأخرى مع أصدقائه على

الجانب الآخر. لا بد أنه أدرك أن اللعبة قد انتهت بمجرد أن أُلقي القبضَ عليه. فهو لم يُحاول حتى إبداء أيِّ مقاومة للدفاع عن نفسه.»

كرَّر فورلي وهو يعيد إشعال غليونه: «قتلوه؟» وأردف: «لقد نال ما يستحقُّه تمامًا!»

قال جوليان وهو مستغرقٌ في التفكير: «أتعتقد ذلك؟»

«ومَن لا يعتقد ذلك؟ إنني أكره الجاسوسية. وكل رجل إنجليزي يكرهها. وأعتقد أننا لهذا السبب خُرْق في هذه اللعبة.»

راقب جوليان صديقه في شيءٍ من العبوس.

ثم سأله بنبرةٍ هادئة: «كيف تورَّطت في هذا الأمر بحق السماء يا فورلي؟»

كان ارتباك فورلي أكثرَ تلقائيَّة من أن يكون مصطنَعًا. فأخرج الغليون من بين أسنانه وراح يُحدق في صديقه.

وتساءل: «ماذا تقصد بحق الجحيم يا جوليان؟» وأردف: «أؤكد لك أنني ما خرَجت ليلة أولَ من أمسِ إلا لكي أقوم بواحدةٍ من تلك الجولات التي تُلقى على عاتقي حين أكون في هذا الجزء من العالم وأُرشَّح لأداء مهمة. يوجد أحدَ عشر رجلًا منا بين هنا وشيرنجهام، ضباط خصوصيُّون من فرعٍ صغير من فروع الخدمة السرية إن كنتَ تُفضل أن نصفها بهذا الاسم. نحن مؤسسة معروفة بين المؤسسات القائمة. أحيانًا ما كنتُ أجوب هذه الأهوار منذ منتصف الليل وحتى الفجر، وعلى الرغم من أنني دائمًا ما أسمع شائعات، فلم أسمع أو أرَ حادثة واحدة غيرَ عادية حتى ليلة أمس.»

قال جوليان في إصرار: «لم يكن لديك أدنى فكرةٍ إذن ما كان ذلك الشيء الذي كنت تبحث عنه ليلة أول من أمس؟ لم يكن لديك فكرة، لنقل من أي مصدر أيًّا كان أنه سيكون هناك محاولةٌ من جانب العدو للتواصل مع أصدقاء له هنا على هذا الجانب؟»

«يا إلهي، لا! إن مجرد المعرفة بهذا يُسمى خيانة.»

«أتعترف بذلك؟»

استقام فورلي في كرسيِّه متصلبًا. بدَت كتلة شعره البُنية شعثاءَ أكثرَ من المعتاد، وبدا وجهه الجامد أشدَّ صرامةً من أي وقتٍ مضى بفعل عبوسه الشديد.

«ماذا تقصد بحق الجحيم يا جوليان؟»

أجابه جوليان: «أقصد أنني لديَّ أسباب تدفعني للشكِّ في أنك تُجري أو تحاول إجراء اتصالاتٍ سرية مع عدوٍّ للبلاد يا فورلي.»

انكسر ساق الغليون الذي كان مُمسَكًا به بين أصابع فورلي. واشتعلَت عيناه غضبًا.

ثم صاح قائلًا: «تبًّا لك يا جوليان!» وأضاف: «لو كنت أستطيع الوقوف على قدمَين لهشمت رأسك. كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا والتحدثِ بمثل هذه الترَّهات القذرة.»

سأله جوليان بنبرة صارمة: «أليس هناك شيءٌ من الحقيقة فيما قلتُه لتوي؟»

«ولا كلمة واحدة.»

التزم جوليان الصمت بُرهة. كان فورلي يجلس منتصبًا على الأريكة وعيناه الحادَّتان تلمعان من شدة الغضب.

ثم قال: «أنتظر تفسيرًا منك يا جوليان.»

فجاءه الرد سريعًا: «ستحصل عليه. إن رفيقة الرجل الذي أُردِي قتيلًا بالرصاص، التي تبحث عنها الشرطة في هذه اللحظة، تحلُّ ضيفةً في منزل والدي. وقد اضطُررت إلى الكذب لأُنقذها من افتضاح أمرها.»

قال فورلي لاهثًا: «أهي امرأة؟»

«أجل! تلك الشابة التي كانت ترتدي معطف الصياد المشمع، والتي مُرِّرت تلك الرسالة إليها ليلة أمس هي الآنسة كاثرين آبواي. لقد بعثَتني إليك لأحصل على تفسيرٍ لحيازتها تلك الرسالة.»

ظل فورلي صامتًا تمامًا عدة لحظات. كان أول تعبير ارتسم على وجهه تعبيرَ ذهولٍ وحيرة. ثم بدأت الأمور تتجلَّى أمامه. بدأ يفهم. وحين تحدث، كانت كل مشاعر التحفز قد اختفت من نبرته.

قال فورلي: «عليك أن تتركني أُفكر في هذا الأمر لحظةً يا جوليان.»

«خذ وقتك. ما أريد إلا تفسيرًا.»

جمع فورلي شتاتَ نفسه ببطء. ومدَّ يده نحو حامل الغلايين، وعبَّأ غليونًا آخر وأشعله. ثم بدأ حديثه.

فقال: «كل كلمة حدَّثتك بها يا جوليان بشأن ليلة أول من أمس هي الحقيقةُ بعينها. لكن يوجد اعتراف آخر عليَّ أن أُقرَّ به في ظل هذه الظروف. إنني أنتمي لجماعةٍ من الرجال على اتصال بجماعة مشابهة لهم في ألمانيا، لكني لا أشارك في أيٍّ من الفعاليات العملية، أو ما أُطلق عليه الآليات، الخاصة بمنظمتنا. كنت أعرف أن ثمة اتصالاتٍ بين الجانبين، لكنني كنت أتخيل أن ذلك يحدث من خلال بلدانٍ محايدة. وقد خرجت ليلةَ أول من أمسِ كمواطن إنجليزي عادي، لكي أقوم بمهمتي. ولم يكن لديَّ أدنى فكرة بوجود أي محاولات لتوصيل رسالة إلى هنا، فيما يتعلق بالأمور المعنيِّ بها. وفي رأيي أن الدليل على كلامي

يكمن في حقيقة الجهود التي بُذِلت من أجل منعي من الوصول إلى موقعي، وأنك، بوصفك بديلًا لي أرسلته عن عمدٍ ليحلَّ محلي، قد تعرضت لهجوم.»

قال جوليان: «أوافق على كلامك حتى الآن، أكمل رجاءً.»

فأكمل فورلي: «أنا مواطن إنجليزي ووطني مثلك تمامًا، على الرغم من أنك ابن إيرل مالتينبي وأنك قاتلتَ في الحرب. لا بدَ أن تُنصت لي من دون تحيز. ثَمة رجال عقلاء في إنجلترا، وهم وطنيون حتى النخاع، يُحاولون أن يتلمسوا طريقهم نحو الحقيقة بشأن هذه التضحية الدامية. وثَمة رجال عقلاء في ألمانيا يتبعون النهجَ نفسه. ولو حاولنا التواصل بعضنا مع بعض، من أجل إصلاح العالم، فإن هذا في رأيي لا يُعد خيانة أو اتصالًا مع دولة عدوة بالمعنى المتعارَف عليه.»

تمتم جوليان قائلًا: «فهمت. إن الذنب الذي أنت على استعدادٍ للاعتراف به هو التواصل مع أعضاء حزب العمال والحزب الاشتراكي في ألمانيا.»

فأجابه فورلي بشيء من شراسته القديمة: «لست بصدد الاعتراف بأي ذنب. لا تتحدث مثل والدك والطبقة التي ينتمي إليها يا جوليان. دعك من هذا. كن على سجيَّتك. لا يمكن للوزراء أن يُنهوا الحرب. ولا يمكن لحكومة بلادك أن تُنهيها أيضًا. لقد تشدَّقوا بكلماتٍ رنانة في البداية. وتعهدوا بالتزاماتٍ أكثرَ مما ينبغي. اسأل ستينسون. سيخبرك أنني أقول الحقيقة. وهكذا نشبت الحربُ واستمرت وكل يوم تُكلف العالم عدة مئات أو عدة آلاف من الأرواح البشرية، والرب وحده يعلم كم ضاع من جهدٍ وعقول الرجال وذهب هباءً! لا بد أن تتوقف الحرب بطريقة أو أخرى يا جوليان. وإن لم يوقفها الساسة، فلا بد للشعب أن يوقفها.»

كرَّر جوليان في شيءٍ من الأسى: «الشعب. لقد وضع رينزي ثقته في الشعب يومًا ما.»

احتجَّ فورلي قائلًا: «هناك فرق. الشعب اليوم على حق، أما رينزي فليس هنا؛ يا إلهي!»

ثم توقف فجأة، متتبعًا حبلًا آخرَ من الأفكار. واتَّكأ إلى الأمام.

وقال: «اسمع، سنتحدَّث عن مصير تلك الرسائل فيما بعد. ماذا عن الآنسة آبواي؟»

قال جوليان: «كانت الآنسة آبواي على وشك أن يُلقى القبض عليها ليلة أمسِ باعتبارها جاسوسةً. وقد فعلت كل ما بوُسعي من أجل حمايتها من عواقب تصرفها الغبيِّ وغير المبرر، مخالفًا بذلك كلَّ مبادئي وقناعاتي. لا أعرف أي شيء عن منظمتك تلك يا فورلي، لكنني أرى أنكم مجموعةٌ من الأوغاد؛ لأنكم سمحتم لفتاة أن تضطلع بمهمةٍ كهذه.»

لمعت عينا فورلي تضامنًا مع كلامه.

وقال مؤيدًا إياه: «كان ذلك تصرفًا جبانًا يا جوليان. إنني أشتعل خزيًا حين أفكر في الأمر. لكن بالله عليك لا تُفكر أن لي صلةً بهذه المسألة! إن لدينا فرعًا للخدمة السرية يضطلع بترتيب تلك الأمور. إن ذلك الحقير فين هو المسئول. تبًّا له!»

صاح جوليان: «نيكولاس فين، الداعي إلى السلام!» وأردف: «أتُشركون حشرةً كهذا في جماعاتكم!»

تمتم فورلي قائلًا: «لا يُمكنك أن تُطلق عليه هذه الصفة القاسية أمامي في هذه الظروف.»

كرَّر جوليان اسمَه وقد لمع في عينَيه وميضٌ جديد: «نيكولاس فين. كانت البرقية التي أخضعتها للرقابة مرسَلة إليه إذن! فهو الخائن الرئيسي إذن!»

فأقر فورلي: «نيكولاس فين ضالع في هذا الأمر؛ رغم أنني أُنكر وجود أي خيانة إطلاقًا.»

ردَّ جوليان قائلًا: «دعك من هذا الهراء! وماذا عن مصفِّف الشعر الألماني الذي قُتل هذا الصباح؟»

اعترف فورلي قائلًا: «كان من الخطأ استخدامُه. لقد خدَعَنا فين جميعًا بشأن طريقة اتصالنا بعضنا ببعض. لكن أنصِت لي يا جوليان. هل ستتمكَّن من إخراج الآنسة آبواي من هذه الورطة؟»

أجابه جوليان: «لو لم أفعل فسأقعُ أنا نفسي في هذه الورطة؛ لأنني كذبتُ بالفعل.»

قال فورلي: «أنت رجل نبيل يا جوليان رغم كل ما تتَّسم به من تكلُّف. ولو حدث أي شيء لتلك الفتاة، فسأدقُّ عنق فين.»

قال جوليان: «أظن أنها آمنةٌ في الوقت الراهن. فالوثيقة التي تُدينها ليست بحوزتها. لقد أخذتها منها حين كانت معرَّضةً لخطر الاعتقال.»

«ماذا ستفعل بها؟»

ردَّ جوليان في رباطة جأش: «لا ينبغي أن يكون لديك شكٌّ بشأن ذلك. سأذهب إلى المدينة غدًا وأُسلمها للسلطات المعنية.»

نهض جوليان بينما كان يتحدث. ونظر إليه فورلي في قلةِ حيلة.

وقال متأوهًا: «كيف لي أن أجعلَك ترى الحقيقة بحقِّ السماء يا رجل!»

وقع شعاعٌ رقيق من شمس الشتاء على وجه جوليان، الذي كان في تلك اللحظة، وللعجب، يُشبه وجه والده في ملامحه الأرستقراطية الجامدة. يبدو أن ذكر اسم نيكولاس فين قد أحدث فيه تحولًا.

قال جوليان بنبرةِ نُصح: «لو كنت مكانك يا فورلي، ولأجل صداقتنا، لم أكن لأحاول. ما من أيِّ اعتبار الآن من شأنه أن يثنيني عما أنتوي فعله.»

جاء صوت رفع المزلاج الخارجي، أعقبه طرقٌ على الباب. ودخل الزائران من دون أيِّ تكلُّف. كان السيد ستينسون وكاثرين واقفَين عند الباب.

نحَّى السيد ستينسون كلَّ أوجهِ التكلف جانبًا وأثنى فورلي عن محاولة النهوض على قدمَيه لتحيَّتهما في الحال.

وقال متوسلًا وهو يُصافحه: «لا تقُم رجاءً يا فورلي. آمُل أن تغفر لنا مثلَ هذه الزيارة غير الرسمية. لقد التقيت بالآنسة آبواي وأنا في طريقي إلى البحر وحين أخبرَتني أنها قادمة لزيارتك، استأذنتها في أن أرافقها.»

ردَّ فورلي في كياسة وود: «مرحبًا بك يا سيدي. زيارتك شرفٌ لم أكن أتوقعه.»

جاء جوليان بكرسي لكلٍّ منهما، وواصل السيد ستينسون حديثَه اللطيف، لما أدرك من خلال حَدْسه وجودَ حالة من التوتر.

فقال: «كنت أنا والآنسة آبواي منخرطين في حديث، أو بالأحرى جدال، شائقٍ للغاية. أرى أنها تتبع طريقة تفكيرك نفسَها تمامًا يا فورلي. إنَّ كلَيكما ينتمي إلى ما أطلق عليه جماعة الساسة النفَّاثين.»

ضحكت كاثرين بشدة على ذلك التشبيه.

وأشارت قائلة: «السيد ستينسون نموذج صارخ لأولئك الذين لا يعرفون أصدقاءهم. أنا والسيد فورلي نؤمن بأن أفكارنا ستَلقى يومًا ما قَبولًا لدى كل المفكرين والإيثاريين في العالم.»

قال فورلي: «إنها لمهمةٌ رهيبة أن تدفع الناسَ إلى التفكير. فهم منشغلون بصورةٍ شبه دائمة بفعل شيء آخر.»

أردفت كاثرين وهي تبتسمُ إلى جوليان: «وهؤلاء الأرستقراطيون!» واستطردت: «أتعلم أنك في إنجلترا تُفسدهم بذلك. إن جامعتي أكسفورد وإيتون مريعتان فيما يتعلق بتأثيرهما المقلِّص للفكر على الشباب. الأمر أشبه بوضع الموادِّ الخام في آلةٍ لصنع النقانق.»

قال ستينسون بخفَّة ظله التي لا تنقطع: «الآنسة آبواي قاسية جدًّا هذا الصباح. لقد ظلت تُهاجم سياستي ومبادئي طوال سيرنا معًا. من المؤسف أن تتعرض لهذا الحادث يا فورلي. أعتقد أننا كان ينبغي علينا أن نلتقيَ حين كنتُ هنا لولا روحُ المغامرة الزائدة التي تتحلَّى بها.»

نظر فورلي إلى جوليان نظرةً خاطفة وابتسم.

وقال: «لست واثقًا من هذا كثيرًا يا سيدي. فمضيفك لا يُحبذ وجودي كثيرًا.»

تساءل السيد ستينسون: «وهل للتحيزات السياسية وجودٌ في مكان ناءٍ كهذا عن موطنها؟»

قال جوليان معترفًا: «أخشى أن والدي رجعيٌّ نوعًا ما.»

فقال فورلي: «جميعكم رجعيُّون ومتحجرون بفعل تحيزاتكم.» وأردف ملتفتًا إلى كاثرين: «فحتى أوردين لا يتحملني إلا لأننا تناولنا العَشاء معًا من الصَّحن نفسه حين كنا نتخذ قرارًا بشأنِ أن نَشغل منصب المستشار اللورد السامي.»

فأفضى جوليان بينما كان يميل إلى الأمام عبر الطاولة ويأخذ سيجارة قائلًا: «صديقنا فورلي لا يتمتع باللباقة، ولديه الكثير من التحيزات. ويكتب من الهراء الكثيرَ عن الطبقة الأرستقراطية. أتذكر مقالًا له لم يمرَّ عليه وقتٌ طويل، كان بعنوان «اطردوا نُبلاءنا!» لا بأس بابنٍ صغير مثلي أن يتقبلَ الأمر ببساطة، لكن لا يمكنك أن تتوقع من أبي أن يتقبله. أضف إلى ذلك أنني أومن أنه مرتدٌّ عن مبادئه السياسية. وفي رأيي أنه وُلد في الأوساط الضيقة.»

زمجر فورلي في ارتياح قائلًا: «أنت مخطئ هنا. كان والدي مُصنِّع أحذية في قرية ليسترشاير الريفية. وتقدمت لاختبارات الانضمام إلى نقابة المحامين؛ لأنه ترك لي أموالًا طائلة، يبدو أنني بدَّدتُ معظمَها بالمناسبة.»

قال جوليان بنبرةٍ جافة: «بدَّدتَها في الأساس في المخططات اليوطوبية لإصلاح سادته.»

اعترف فورلي: «بالتأكيد كنتُ أعرف مِصحَّة للأبناء المعاقين الأصغر سنًّا.»

فاقترح جوليان قائلًا: «أطلب هدنة. ليس من الأدب أن نتراشق بالألفاظ أمام الآنسة آبواي.»

قال السيد ستينسون: «يبدو لي هذا معبدًا حقيقيًّا للسلام. لقد وصلت لي هنا حرفيًّا زحفًا على أربع. وقد أثبتَت لي الآنسة آبواي بصورة شبه قاطعة أنني قد أضعتُ مهنتي كقائد ديمقراطي.»

نظرَت إليه نظرة توبيخ. غير أن كلماته بدَت وكأنها أعادت إلى ذهنها إثارةَ حديثهما الذي كان محفزًا على قِصَره. وتحول وجهها بفعل ومضة من جدِّية حقيقية مرت على قسماتها سريعًا مثلما بدا شعاعٌ من شمسٍ شتوية، شق طريقه إلى الداخل عبر النافذة المفتوحة، وقد وجد خيوطًا من الذهب بين خصلات شعرها ذي اللون البُني الثقيل المَجْدول بإحكام. وكانت عيناها مفعمَتَين بنظرات شبه ملهمة:

وقالت متذمرة: «نادرًا ما يكون السيد ستينسون منصفًا معي. أنا لم أتجرَّأ على انتقاد حنكته السياسية، لكن هناك بعضَ الأشياء هنا تبدو مثيرةً للشفقة. ينبغي أن تكون إنجلترا مثالًا للديمقراطية في العالم. قوانينكم تعترف بذلك، وحكومتكم كذلك. ليس للمال أو الأصل ضرورةٌ من أجل تحقيق النجاح. فالطريق مفتوحٌ أمام العامل ليصل حتى إلى مجلس الوزراء. لكنكم لا تُطبقون أيَّ شيء من هذا. ما من بلد تُعرَض فيه قضية الشعب على نحوٍ مخجل وسيئ أكثرَ من هنا. إن لديكم طبقةً برجوازية تُحافظ على نفسها في ترَف شبه إقطاعي بواسطة العمالة التي تعمل لديها، وتلك العمالة تكتفي بالصرصرة وفتحِ فمها للتغذِّي على الديدان، في حين أنها ينبغي أن تحصل على أفضل الثمر. وكل هذا بسبب انعدام القيادة. فيخرج أمثال ديفيد ساند وفينياس كروس ونيكولاس فين وتوماس إيفانز. كلٌّ منكم يعتقد أنه يُمثِّل الطبقة العاملة، لكنكم لا تُمثلونها. أنتم تُمثلون المهنة ... العاملين في مهنةٍ بعينها. كم يسخر منكم أولئك الرجال الذين يرغبون في الاحتفاظ بحكم هذه البلاد في حوزتهم! إنهم يَمدُّون يدَ العون لمن يصعد لأعلى ارتفاع، ويضعونه في الحكومة، وبعد ذلك تكون الطبقة العاملة قد انتهت منه إلى الأبد. لقد وجد مكانه بين العظماء. وربما يمنحونه لقب «سير» ويمنحون زوجته لقب «ليدي»، لكن بالنسبة إليه فالقضية قد انتهت تمامًا بلا رجعة. وهكذا تضيع عشَرة أعوام أخرى، في حين يكبر رجل آخر ويرتقي ليحلَّ محله.»

أقرَّ فورلي بنبرة كئيبة قائلًا: «إنها محقة تمامًا. ثَمة خطب ما بشأن الجو العام في الحياة الداخلية للسياسة، الذي ثبَت أنه كارثيٌّ لكل رجلٍ ينتمي للطبقة العاملة ارتقى وعظم شأنه. لقد كتب بول فيسك عن الأمر نفسِه قبل بضعة أسابيع فقط. إنه يرى أن الخطب يكمن في الجو الاجتماعي العامِّ المحيط بسياساتنا الذي ما زلنا نحتفظ به. فلا نلبث أن نضع أيدِيَنا على رجل ماهر مولود من رحم الشعب حتى نُلبسه ملابس المومياوات ونُقدمه في حفلات العشاء والحدائق، ليفعل أشياءَ لم يعتَدْ فعلها، وننتظر منه أن يُحافظ على سِمات شخصيته بين أناس ليسوا من شيعته. ثَمة شيء قاتل في هذا الأمر.»

اقترح ستينسون بنبرة جافة قائلًا: «ألا تعتقدون أنكم جميعًا تدَّعون أن حزب العمال هو الحزب السياسي الوحيد الذي يستحقُّ التقدير؟»

قالت كاثرين: «لو عرَفوا قوتهم الحقيقية، لصار الحزب المهيمن. أتُحب أن تذهب إلى صناديق الاقتراع اليوم وتُقاتل من أجل مقاعدك أمامهم؟»

فصاح قائلًا: «معاذ الله! لكننا أجمعنا على أمر واحد: لا انتخابات عامة أثناء الحرب. بعدها، لن أندهش إطلاقًا إذا اندمج النقابيون والليبراليون وحتى الراديكاليون، وكوَّنوا حزبًا واحدًا.»

قال فورلي متجهمًا: «ليُحاربوا حزب العمال.»

رد السيد ستينسون: «بل للحفاظ على إنجلترا عظيمة. لا بد أن تتذكر أنهم أظهروا أنانية شديدة بلا منازع فيما يتعلق بأي مخطط أو برنامج أفصحَ عنه حزب العمال حتى الآن، سواءٌ في هذا البلد أو في أي بلد آخر. إن لإنجلترا مصالحَ ضخمةً عبر البحار. واعتماد مجلس الرعية كشكلٍ من أشكال الحكم من شأنه أن يجلب كارثة في القريب العاجل.»

نظر جوليان إلى الساعة ثم نهض واقفًا.

وقال: «لا أريد أن أتعجَّلكم، لكن والدي صارمٌ بشأن موعد الغداء.»

فنهضوا جميعًا. والتفت السيد ستينسون إلى جوليان.

وقال له متوسلًا: «هلا سبقتَني مع الآنسة آبواي؟» وأضاف: «سألحقُ بكما عند الأهوار. أريد أن أتحدث إلى فورلي قليلًا.»

عبر جوليان ورفيقته الطريق الريفي وعبَرا من البوابة المواجهة على الدرب الوعر الذي كان يُؤدي إلى البحر تقريبًا.

قال جوليان: «آنسة آبواي، أنتِ مهتمةٌ للغاية بقضايا العمالة الإنجليزية، بالنظر إلى أنكِ نصف إنجليزية فقط.»

ردَّت في نفادِ صبر: «لستُ مهتمةً فقط بالطبقات العاملة الإنجليزية. إن قضايا الشعوب حول العالم بأكمله هو ما أُناصره وأؤيده في نطاقي المحدود.»

تابع في خجلٍ بعضَ الشيء قائلًا: «لكن بلادك ليست بنموذجٍ جيد لقضية الإصلاح الاجتماعي.»

سرَت في نبرةِ صوتها رعشةُ سخط واستياء وهي ترد عليه.

فقالت: «لقد عانت بلادي قرونًا عديدةً من قمع رهيب، حتى إنه كان حتميًّا ألا يُسفر ردُّ الفعل، في مراحله الأولى، عن شيء سوى الفوضى. وتلقائيًّا، سيختفي كلُّ ما تراه غيرَ منطقي أو خبيثًا حتى أو مريعًا بطريقةٍ ما، بمرور الوقت. ستجد روسيا نفسها مرة أخرى. وفي غضون عشرين عامًا ستكون ديمقراطيتها قد حلَّت المشكلة الكبرى، وستكون روسيا هي الجمهوريةَ الأولى والرئيسة في العالم.»

قال: «في هذه الأثناء، تخذلنا روسيا جميعًا وعلى نحو سيئ للغاية.»

صاحت قائلة: «لكنكم أنانيون، أيها الإنجليز!» وأردفت: «إنكم ترون واحدةً من أعظم الأمم في العالم تمر بوقت عصيب، ولا تُفكرون في شيء سوى مدى التأثير السلبي لما تمر به عليكم! إن كل مفكِّر في روسيا يشعر بالأسف لحدوث هذا الشيء في مثل هذا الوقت. لكن من الأفضل لكم أيها الإنجليز أن تُواجهوا الحقيقة. لم يكن للشعب الروسيِّ أيُّ التزام نحوكم، ولم يكن هو من ترتبطون معه بتحالف. إنما هي تلك الخدعة المشئومة التي يُمارسها كل الساسة الأوروبيين من عقد اتفاقيات وتفاهمات سرية، وبناء دول عازلة، في محاولةٍ منكم لاستقطاع قطعةٍ من الخريطة لأنفسكم، محاولين طَوال الوقت ممارسة الخداع تحت مظلةِ ما يُسمى بالدبلوماسية. ذاك ما تسبب بالحرب. لم تكن الحرب يومًا إرادةَ الشعوب. بل كان سببها آل هوهينتزولرن وآل رومانوف، أدوات الحكومة الفرنسية في إثارة الشغب والقلاقل، وجهودكم الخرقاء الغبية لتحقيق أقصى استفادةٍ من الجميع، مع الاحتفاظ بوجدانكم المستقل. لم تُشعل الشعوبُ هذه الحرب، لكنهم هم من سيضَعون نهاية لها.»

سارا في صمت بضعَ دقائق، وبدا واضحًا أن جوليان يُفكر في كلماتها الأخيرة، بينما كانت هي تستنشق الهواء القويَّ المالح بتعبيرٍ حسي مبهج عن الرضا، وقد زالت سحابة الضيق والاكفهرار عن وجهها، وكان رأسها مرتميًا للخلف قليلًا، وعيناها شبه مغلقتَين. كانت ترتدي من الثياب ما يُناسب البيئة الريفية تمامًا، من حذائها ذي المقدمة المربَّعة الشكل، ومع ذلك بدا محتفظًا بشكل مميز، والمعطف والتنورة المفصَّلَين بصورة مثالية، إلى القبعة الصغيرة الأنيقة التي ازدانَت بريشة واحدة. كانت تسير بالرشاقة العفوية التي يسير بها الرياضي، غيرَ عابئةٍ بعوائق الطريق أو عصفاتِ الريح التي كانت تجتاح الأماكن السبخة، لكن حتى النسمات التي كانت قوتها آخذةً في الازدياد، والتي كانت تتحول إلى عاصفةٍ كلما اقتربا من خط الأفق، لم تبدُ أنها تمتلك القوة لتخضيب وجنتَيها ولو بمثقال ذرة من الحُمرة. وصل جوليان وكاثرين إلى اللسان الطويل ووقفا ينظران إلى البحر قبل أن تُعاود الحديث ثانية.

قالت على نحوٍ مفاجئ بعضَ الشيء: «كنتَ كريمًا معي للغاية ليلة أمس يا سيد أوردين.»

فقال مذكِّرًا إياها: «كنتُ أرد دَينًا.»

فأقرَّت قائلة: «أعتقد أن ثَمة خَطبًا ما في ذلك الأمر. أعتقد حقًّا أن ذلك الشخص البغيض الذي أُجبِرتُ على التعاون معه مؤقتًا كان سيقتلك لو كنتُ سمحتُ بذلك.»

فقال مصدقًا على كلامها: «أميل إلى الاتفاق معكِ. لقد رأيته بشكل غير واضح تمامًا، لكن عينيَّ لم تقعا قط على شخص ذي ملامح بهذا القدر من الإجرام والشر.»

فقالت: «إذن فقد تخالصنا.»

«لكن ثَمة دَينًا صغيرًا من جانبي لا يزال عليَّ ردُّه.»

«في الواقع، لا يمكن تحديد كمِّ المتطلبات والضغوط التي قد أفرضها على صلة التعارف التي بيننا.»

فقال محتجًّا: «تعارف؟»

«أتحب أن تُطلق عليها صداقة؟»

فقال بتروٍّ: «قبل وقت قصير للغاية، لم تكن حتى الصداقة لتُرضيني.»

«والآن؟»

«لا أحب الألغاز.»

قالت وهي تتنهَّد: «يا لي من مسكينة!» وأضافت: «ولكن يمكنك أن تُخلص نفسك من عبءٍ واحد منها متى شئت بعد الغداء. أعتقد أنه سيكون من الآمن الآن أن أستعيدَ حُزمة الرسائل.»

قال موافقًا إياها بنبرة بطيئة: «أجل، أعتقد ذلك.»

رفعت نظرها إلى وجهه. رأت شيئًا فيه جعل حاجبَيها الرفيعين ينعقدان معًا في تقطيبة خفيفة.

سألته قائلة: «هل ستعطيني إياها بعد الغداء؟»

ردَّ بهدوء: «لا أعتقد ذلك.»

قالت مُذكِّرةً إياه في هدوء منذر بسوء: «إنما كنتَ مؤتمنًا عليها بعضَ الوقت فقط. إنها تخصُّني.»

فصرَّح قائلًا: «إن وثيقةً يتم تسلُّمها بهذا الشكل من السرية والتكتم من المحتمل أن تكون وثيقةً تدل على خيانة. وليس لديَّ نية لأن أُعيدها إليكِ.»

سارت بجواره في صمتٍ بضعَ لحظات. واندهش جوليان حين استرقَ النظر إلى وجهها. فلم يكن به أيٌّ من أمارات الغضب الاعتيادية، لكنه كان يحمل غضبًا مصحوبًا بشحوب شديد، كانت محاولةُ السيطرة عليه تُكلفها جهدًا هائلًا. لمست أصابعَ يده بيدها العارية من القفاز بينما كانت تخطو على مرقًى درَجي، ووجدها جوليان باردةً كالثلج. وبدت كل بهجة ذلك الصباح المشمس على غير المتوقع وقد تلاشت.

فقال في تواضع: «آسف يا آنسة آبواي أنَّ قراري قد أثار ضيقَك إلى هذا الحد. أطلبُ منكِ أن تتذكري أنني مجرد رجل إنجليزي تقليدي، وأنني كذبتُ بالفعل من أجلك. فهلا وضعتِ نفسكِ في موضعي؟»

كانا قد تسلَّقا التلَّة الرملية الصغيرة التي ينمو عليها العُشب، ووقفا ينظران باتجاه البحر. وفجأة بدا كلُّ الغضب الذي كان يعتلي وجهها وقد تلاشى. رفعت كاثرين رأسها وتلاقَت عيناها البُنيتان الناعمتان بلمعانهما بعينَيه، وبدَت التواءةُ شفتَيها الصغيرة وقد أحدثَت تحولًا تامًّا في تعبيرات وجهها تمامًا. لم تعد تلك المرأةَ الشديدة العقلانية التي تُناصر قضيةً كبرى، لم تعد تلك المرأة الماكرة المتواطئة التي يتملَّكها الغضب والحنق من أي احتمالٍ للفشل. بل تحولت فجأةً وكلية إلى أنثى جذابة مغناجة.

قالت هامسة: «لو كنتَ مجرد رجل إنجليزي تقليدي غبي متبلدَ الحس، فلِمَ غامرت بشرفك وأمنك من أجلي؟ هلا أخبرتَني بالسبب أيها الرجل الحديدي؟»

انحنى جوليان نحوها أكثر. كانت تبتسمُ في وجهه صراحةً، رافضةً ذلك التحذيرَ الذي تُوجهه لها عيناه المتقدتان. ثم فجأةً وفي صمت، ضمها نحوه وقبَّلَها في شفتَيها دون أدنى مقاومة منها. لم تُبدِ اعتراضًا. بل إنه ظن بعد ذلك، حين كان يُحاول تذكُّر ذلك المشهد العاطفي الملتهب الغريب، أن شفتَيها قد قامتا بردِّ قُبلته. كان هو مَن أعتق شفتيها؛ وليست هي من كانت تُقاوم. غير أنه فهم. كان يعرف أن ما حدث كان بمثابة مأساة.

ثم جاءهما صوتُ ستينسون من الجانب الآخر من التلة.

«تعالَ وأرني الطريق عبر هذه المنطقة المزرية من المستنقع يا أوردين. فأنا لا أحبُّ هذه الحشائش الخضراء المضللة.»

فتمتم جوليان بعباراتٍ بلا غاية من قبيل «هذه شِراكٌ للساسة» أو «انظر قبل أن تخطوَ». وأردفَ: «أنت مُحق تمامًا في تجنُّب تلك البقعة يا سيدي. فقط اتبع إصبعي حيث أشير.»

شقَّ ستينسون طريقه بصعوبة نحوهما.

وصاح قائلًا: «قد يكون هذا طريقًا مختصرًا إلى ذا هول، لكن باستثناء منظر البحر وهذا الهواء العليل الرائع، أعتقد أنني كنت أُفضل الطريق الرئيس! ساعدني على الصعود يا أوردين. ألم يحدث ذلك الأمر ليلةَ أمس بالقرب من هنا؟»

فقال جوليان مصدِّقًا على كلامه: «في هذه البقعة بالتحديد. كنت والآنسة آبواي نتحدث عنها للتو.»

ثم نظر كلاهما نحوها. كانت واقفةً مولية ظهرها إليهما وتنظر إلى البحر. ولم تتحرك حتى عند ذكر اسمها.

علَّق رئيس الوزراء من دون أن يُبدي اهتمامًا مبالغًا فقال: «في رأيي أنها بقعة مخيفة أثناء الليل. كيف نصل إلى المنزل من هنا يا أوردين؟ لم أنسَ تحذيرك بشأن الغداء، وهذا الهواء العليل يفتح شهيتي على مِصراعَيها.»

«سنسير على طول قمة هذه التلة مسافة قرابة ثلاثة أرباع الميل يا سيدي، حتى مدخل الميناء هناك.»

«ثم؟»

قال جوليان موضحًا: «لديَّ زورق يعمل بالبنزين، وسأرسو بك فعليًّا عند غرفة المائدة في غضون عشر دقائق أخرى.»

قال السيد ستينسون في حيوية: «لننطلق إذن. يا له من رجل غريب مايلز فورلي ذلك! إنه صديق مقرَّب لكِ، أليس كذلك آنسة آبواي؟»

أجابته مواصلة السير: «لقد رأيت منه الكثير من الأشياء مؤخرًا»، وكانت في سيرها تُفسح مجالًا لستينسون كي يُلاحقها الخُطى ويصيرَ بجوارها، لكن وجهها كان لا يزال متحوِّلًا عنه بعض الشيء. «إنه رجل يملك الكثير من الأفكار المشوشة؛ في رأيي أنه رجلٌ على شفا إفساد حياته المهنية.»

قال ستينسون متأملًا: «لقد عرَضنا عليه منصبًا في الحكومة.»

قالت: «أعتقد أنه كان يتمتع بما يكفي من الإدراك ليرفض ذلك»، وكانت في تلك الأثناء تتحرك ببطءٍ إلى اليمين، مانعةً بذلك جوليان من اتخاذ مكانٍ له إلى جوارها. وتابعت قائلة: «ومع ذلك أجد فيه النقيصةَ التي أجدها في الكثير من الرجال الإنجليز، تلك النقيصة التي تمنعهم من أن يُصبحوا رجالَ دولة أو جنودًا عظامًا»، وأضافت ببرود: «أو حتى محبين ناجحين.»

سأل جوليان: «وما تلك النقيصة؟»

ظلت كاثرين صامتة. بدَت وكأنها لم تسمع شيئًا. ثم أمسكت بذراع السيد ستينسون وأشارت إلى طائر نورس أبيض ضخمٍ ينجرف مع الهواء فوقهم.

وقالت: «بالتفكير في هذا النموذج، فقد انتظرنا نحن المفكِّرين قرابةَ ألفَي عام من أجل اختراع الطائرة!»

الفصل الثامن

غادرت مجموعةُ صيد صغيرةٌ ذا هول بعد الغداء مباشرة لخطط أُعدَّت في وقت مبكِّر من اليوم، ولم تعد حتى ساعة متأخرة من العصر. لذلك لم يرَ جوليان كاثرين ثانيةً حتى دلفت إلى غرفة الاستقبال قبل دقائق قليلة من الإعلان عن موعد العشاء، وكانت ترتدي ثوبًا مسائيًّا رائعًا من الحرير بلون أزرق باهت، وتزين عنقها بعقد بديع من اللؤلؤ وترتدي على رأسها غطاءً روسيًّا. وكما هو حال كل النساء اللائي يتمتعن بالعبقرية، كان استبدال كاثرين لثيابها بالكامل وارتداء ثوب مسائي يشير إلى تغيُّر موازٍ في سلوكها أيضًا. فقد بدا أسلوبها المثير للاهتمام والهادئ إلى حدٍّ ما الذي أبدته في مساء اليوم السابق وقد تلاشى. هيمنَت كاثرين على الحديث على مائدة العشاء. فأظهرَت معرفةً صميمة بكل عواصم أوروبا وبشخصيات لا حصر لها من ذوي الحيثيَّة والأهمية. وتبادلت ذكرياتٍ شخصيةً مع اللورد شيرفينتون الذي كان ملحقًا بالسفارة الإنجليزية في روما، وكذلك مع السيد هاناواي ويلز الذي كان يَشغل منصبَ سكرتير أول السفارة في فيينا. تحدثت بطريقة طريفة عن ميونيخ، التي، فيما يبدو، كانت أولَ مكان درسَت فيه الفنون، لكنها أسهبَت بكل حماس الفنان، في الحديث عن أسفارها إلى إسبانيا، وعن الألوان الناعمة الزاهية الرائعة للمدن الجنوبية فيها. بدت كاثرين وكأنها تخلصَت تمامًا من الجاذبية التي أظهرت لمسات منها في مساء اليوم السابق. لم تعد تلك الشابة الجادة التي تحمل غاية وهدفًا. لقد خرجَت من شرنقتها وتحوَّلت إلى فراشة، إلى ملكة شابة أنيقة متألقة وعلى دراية بالعالم، تحكم بكل سهولة، لا بالغطرسة التي تمنحها لها مكانتُها، بل من خلال موهبتَي الجاذبية والفِطنة اللتين حُبِيَت بهما. لم يُحقق جوليان استفادةً من وجوده إلى جوارها إلا قليلًا؛ ذلك أن المحادثة في تلك الأمسية كانت عامةً من أولها إلى آخرها. وبدا أن الجوَّ العام الذي خلقَته في الغرفة ظل باقيًا حتى بعد أن غادرت.

صرَّح الأسقفُّ قائلًا: «لم أفهم الآنسة آبواي بطريقة صحيحة من قبل. إنها شابة ذكية بصورة غير عادية.»

اتفق معه اللورد شيرفينتون.

فقال موضحًا: «لقد ظهرت كاثرين آبواي أمامكم الليلة كما كان ينبغي لها أن تكون لولا الصرعتان الغريبتان المتناوبتان على الظهور؛ الفن والاشتراكية. لقد اتَّسع ذهنها مبكرًا جدًّا، وحين كانت في مرحلة الصبا تقريبًا، انضمَّت، لسوء حظها، إلى جماعة صغيرة من الشباب الروس اللامعين، كان لهم بالغُ التأثير عليها. معظم هؤلاء الآن في سيبيريا والآخرون اختفَوا. كان أحد هؤلاء، وهي آنا كاتينسكي، قد أُحضرت من توبولسك في اليوم الأول من أيام الثورة وكأنها أميرة متوَّجة.»

فقال الإيرل بنبرة وعظ: «من الغريب أن تُناصر امرأة شابة كالآنسة آبواي، بما حَظِيت به من نشأة ومواهب، قضيةَ حزب العمال الغوغائي ذاك، المبتلى بالفعل بلعنة كثرة القادة.»

فقال السيد هاناواي ويلز: «حين تناصر المرأة قضيةً ما، فإنها دائمًا ما تبحث إما عن الأشياء الجذابة أو عن شيء يخاطب المشاعر. وما دامت لا تختلط بهم، فإن قضية الشعب تحظى بالكثير من الأشياء التي تُزكيها. يمكن للمرء أن يستخدم عباراتٍ جميلة، ويدَّعيَ المثالية مع قدرٍ معيَّن من المنطق، ويحقق الكثير من الأشياء بالفعل.»

هزَّ جوليان كتفيه مستهجنًا.

وقال مُعلِّقًا: «في رأيي أننا جميعًا لا نبصر الخطر الذي يُحدق بنا من خلال الازدهار الكبير الذي يُحققه العمال اليوم.»

اتَّكأ الأسقفُّ على الطاولة.

وقال: «هل قرأتَ لفيسك هذا الأسبوع.»

سأل جوليان بلا اكتراث: «هل اقتبست من كلامه؟» وأردف: «إن ذاكرتي ضعيفة. لن أجرؤ أبدًا على أن أصبح سياسيًّا. ودائمًا ما أنطق بعبارات الآخرين وكأنها عباراتي.»

تدخَّل السيد ستينسون قائلًا: «إن فيسك محقٌّ تمامًا بشأن حجته. فالحرب تسير بإيقاع سريعٍ في اتجاه خلق طبقة جديدة من البرجوازيين. والفروقات فيما يتقاضاه العمالُ المَهَرة ستتسبَّب في المشاكل قبل وقتٍ ليس بالطويل، كعمال المناجم الذين يتقاضَون خمسين أو ستين شلنًا وعمال صناعة الذخيرة الذين يجنون سبع جنيهات أو ثمانية، وهم جميعًا من الطبقة نفسها.»

قال الإيرل مسترسلًا في خطابه المفضَّل: «لم تكن إنجلترا في حالة هدوء ورضًا أبدًا إلا حين كانت الأجور في أدنى مستوياتها.»

قال السيد هاناواي ويلز منذرًا بنبرة كئيبة: «لن تعود تلك الأيام ثانيةً أبدًا.» واستطرد: «لقد ذاق العامل لذة الانتصار. بدأ يُدرك قوته. وكان وزراؤنا نائمين طيلةَ جيل كامل. إن أولى هذه النقابات العمالية الحديثة كان يجب أن تُعامَل كجماعات سرية في إيطاليا. انظروا إليهم الآن وإلى ما يمثلونه! أتخيَّل ما سوف يعنيه ذلك حين يتعلمون جميعًا كيف يتحدون معًا! حين يُفرز حزب العمال قادةً حقيقيين!»

تساءل لورد شرفينتون قائلًا: «هل يمكن لأحد أن يشرح الديمقراطية الألمانية؟»

أجابه السيد ستينسون: «كان فيسك، الكاتب الواسع الانتشار، يُحاول شرحها الأسبوع الماضي في أحد أعداد جريدة «ريفيو». استند في حجته إلى أن ألمانيا وحدها، من بين الأمم كافة، امتلكت صفة إضافية أو حِسًّا إضافيًّا — نسيت الاسم الذي أطلقه عليه — وهو حس الانضباط. إنه صفة متأصلة تجري في دمائهم. والمسئول عنه أجيال من الخدمة العسكرية. قد يكون شعارهم هو الانضباطَ والاتحاد. لقد تشكَّل الفكر الفردي في اتجاهات بعينها، تمامًا مثلما تُخصَّص الجهود الفردية في مجالات بعينها. إن الألمان يطيعون الأوامر لأن طبيعتهم تقضي بذلك. والسؤال الوحيد هو ما إن كانوا سيستطيعون الصمود أمام هذا — وهو أقسى اختبار في تاريخهم — ويستمرون حتى النهاية إلى أن يتخطَّوا الأمر.»

قال هاناواي ويلز: «في رأيي الشخصي، أعتقد أنهم سيفعلون، لكن إن كنتُ مخطئًا في ذلك، أي لم يتمكنوا من تخطي ذلك، فستكون الثورة الفرنسية مجردَ نزهة مقارنة بنظيرتها الألمانية. إن الأمر يتطلب الكثير من أجل إخراج فكرة قومية من العقل الألماني، لكن إن فهم الألمان بالضبط وبدقةٍ كيف تم خداعهم من أجل تحقيق المجد لقادتهم، فإنني في الواقع أُشفق على أولئك النبلاء الألمان الشبان مما سيحدث لهم.»

سأل الأسقف في كياسة: «هل قادتك مقالاتك في الصحافة يومًا إلى التطرق إلى الموضوعات العمالية يا جوليان؟»

جاء رده متواضعًا: «مرة أو اثنتين، وعلى نحوٍ مخفف للغاية.»

قال رئيس الوزراء: «لقد حظيتُ بحوارٍ شيق مع فورلي صباح اليوم. أخبرني أنهم يُفكِّرون في مناشدة ذلك المدعوِّ بول فيسك كي يُعلن عن هُويته. إنهم في حاجةٍ ماسة وملحة إلى قائد، وأشكر الربَّ أنهم لا يعرفون أين يبحثون عنه!»

احتجَّ جوليان قائلًا: «لكن لا شك أنهم لا يتوقعون بالضرورة أن يجدوا قائدًا لهم في مساهم مجهول الهوية يكتب في جريدة «ريفيو»؟ فقد يكون فيسك — حين يجدونه —

رجلًا سبعينيًّا، أو رجلًا ذا عقلية أكاديمية لا يبرح مكتبه قط. بل قد يكون «بول فيسك» حتى اسمًا مستعارًا لامرأة.»

نهض الإيرل من مقعده.

وأعلن قائلًا: «لقد قرأت عصرَ اليوم أحدثَ مقال لذلك المدعوِّ بول فيسك. وفي رأيي أنه شخص خبيث وشرير للغاية، ولا يتمتع ولو بقليلٍ من الفَهم للقُوى المؤثِّرة بحقٍّ في الحكومة.»

كانت عينا الأسقف تتلألأن عندما غادر الغرفة ويدُه على ذراع ابنه بالمعمودية.

وهمس له قائلًا: «سيكون من المثير فعلًا أن نسمع رأي ذلك المدعو فيسك عن خِطاب أبيك الأخير في مجلس اللوردات حول ذوي الأملاك!»

لم يرَ جوليان كاثرين إلا بعد انتهاء أمسية غيرِ مرضية تمامًا للعبة البريدج المملة. جاءت كاثرين من قاعة عرض الصور لاهثة، يتبعها أربعةُ جنود شبان أو خمسة كانت تُعلِّمهم خطواتِ رقصة جديدة، فالتفتَت إلى جوليان في اندفاعٍ أدهشه ووضعَت أصابعها على ذراعه.

وقالت بنبرة توسُّل: «فضلًا، خُذني إلى مكان يمكننا أن نجلس فيه ونتحدث، وأعطني شيئًا لأشربه.»

تقدَّمها جوليان إلى قاعة البلياردو وقرع الجرس.

ثم قال وهو ينظر إليها في فضول: «لقد أنهكتِ نفسك.»

أجابته: «حقًّا؟» وأردفت تقول: «لا أعتقد ذلك. لقد اعتدت الرقص طوال الليل في باريس وروما، قبل بضع سنوات. لكن هؤلاء الشبان خَرْقى للغاية، وأعتقد أنني متوترة.»

اتَّكأت كاثرين في كرسيِّها وأغمضت عينيها نصف إغماضة. أحضر أحد الخدم مياهَ إيفيان التي طلبتها وويسكي وصودا لجوليان. أخذت تشرب بلهفةٍ ونهَم، وفي غضون بضع لحظات بدا أنها تخلصَت من الإجهاد الذي كانت تشعر به. ثم التفتت إلى رفيقها في شيءٍ من الإصرار.

وقالت في نبرة تنم عن إصرار: «لا بد أن أُحدثك بخصوص أمر الرسائل يا سيد أوردين.»

«مرةً أخرى؟»

«لا حيلةَ لي في ذلك. لقد نسيتَ أن الأمر يعني لي مسألة حياة أو موت. لا بد أن تُدرك أنك كنت مؤتمنًا عليها ليس إلا. وأنت رجل تتحلَّى بالشرف. أعطني إياها.»

«لا يُمكنني ذلك.»

«إذن ماذا عساك تفعل بها؟»

أجابها: «سآخذها معي إلى لندن غدًا، وأسلمها إلى صديق لي في وزارة الخارجية.»

سألته بنبرة انفعالية: «أما من شيء يمكن أن أقوله أو أفعله من شأنه أن يؤثر على قرارك؟»

فأجابها ببساطة: «كل شيء تقولينه أو تفعلينه يُثير انتباهي ويُؤثر بي، لكن مسئوليتي واضحةٌ حين يتعلق الأمر بهذه المسألة. لا داعي للخوف مما سأقول بشأن كيفية حصولي على هذه الرسائل. من المستحيل أن أتهمك بما أخشى أن تكوني عليه. وعلى الجانب الآخر، لا يمكنني أن أسمح لك بالتنعُّم بثمار مغامرتك.»

قالت بعد سكوتٍ لحظي: «أظنك تعتبرني جاسوسة للعدو؟»

فقال مذكِّرًا إياها: «لقد أثبتِّ ذلك.»

اعترفَت قائلة: «بالنسبة إلى مراقبي — أو بالأحرى شريكي — فهذا صحيح. أما بالنسبة لي فهو غير صحيح. إنني وسيط شريف بين الشرفاء من شعبَي إنجلترا وألمانيا.»

فصرَّح قائلًا: «لا يمكن أن يكون هناك تواصل بين البلدين أثناء الحرب إلا من خلال القنوات الرسمية.»

هنا لمعت عيناها. بدَت كاثرين في خِضمِّ واحدة من دفقات الغضب العنيف الصغيرة التي كانت تُباغتها في بعض الأحيان.

وصاحت في اندفاع وجهدٍ قائلة: «أنت تتحدث ... تتحدث كما يفترض أن تتحدث! ماذا فعلت القنوات الرسمية لإنهاء هذه الحرب؟ أنا لستُ هنا لأُعين أحد الجانبين. إنما أنا أمثل الإنسانية. إنك إن أتلفتَ هذه الرسائل أو سلمتها إلى الحكومة، ستُسدي لبلادك صنيعَ شر.»

هزَّ جوليان رأسه نافيًا.

وقال: «أشعر بالارتياح لسماع كل ما تقولين وأنا سعيدٌ أبلغ السعادة لأنك لا تعتبرين نفسك شريكة للمراقب. لكن من جهةٍ أخرى، ينبغي عليك أن تعرفي أن أي تحرك تجاه السلام، بعيدًا عن القنوات المخوَّل لها ذلك، يُعدُّ خيانة للبلاد.»

قالت في تأوُّه: «لولا أنك المبجَّل جوليان أوردين ابنُ أحد النبلاء الإنجليز!» وأضافت: «لولا أنك ذهبتَ إلى إيتون وأكسفورد! ليتك كنت رجلًا من الشعب يُمكنه أن يتفهَّم!»

فقال مطمئنًا إياها: «لم يكن لأصلي ولا تعليمي أيُّ تأثير على منظوري الحاليِّ للحياة.»

فقالت ساخرةً: «أف!» وأردفت: «تتحدث وكأنك قطعة ورق مقساة جامدة! إذن سأغادر غدًا من دون الرسائل؟»

فقال مؤكدًا: «بالتأكيد يجب أن تُغادري — حين تغادرين — من دونها. غير أن ثمة شيئًا آمُل حقًّا أن تتركيه لي.»

«ما هو؟»

«عفوك.»

سألته بعد أن سكتت لحظة: «عفوي عن ماذا؟»

«عن تهوُّري صباح اليوم.»

اتَّسعَت عيناها قليلًا من الدهشة.

وقالت من دون أن تجفل: «لأنك قبَّلتَني؟» وأردفت: «ليس هناك شيء لأعفوَ عنه.» وتابعت قائلة: «بل في الواقع، أظنُّ أنه كان سيوجد الكثير مما يستحق العفو لو لم تُقبِّلني.»

شعر جوليان بالحيرة المختلطة بالشجاعة. كانت كاثرين دائمًا ما تُحيره بتحولاتها المفاجئة من تلك المرأة الرصينة إلى تلك المرأة العاطفية التي تتوق لتبادل العواطف والمشاعر. في تلك اللحظة بدا وكأنَّ جنسها يغلب عليها فيُزيح كل شيء آخرَ جانبًا. كانت عيناها رقيقتين وتفيضان بالرغبة في الحب، وكانت شفتاها عذبتَين وترتعشان. فجأة، خلقت حولها جوًّا جديدًا، جوًّا من الأنوثة المتقدة والمربكة.

قال في رجاء: «هلا أخبرتِني فضلًا ماذا تعنين بذلك؟»

فأجابته برقة شديدة وإن كان بمسحةٍ سخرية في نبرتها الخفيضة: «أليس ذلك واضحًا؟» واستطردت: «لقد قبَّلتَني لأنني دعوتُك لذلك عمدًا. أنا متأكدة من ذلك تمامًا. إنما غضبي من نفسي، وكنت غاضبة من ذلك.»

كان جوليان مندهشًا بعض الشيء. كانت تلقائيتها ساحرة ومحيِّرة قليلًا.

فقال معترفًا: «لا شك أنكِ بدَوتِ مثيرة، لكن كان ينبغي عليَّ ألا أنسى.»

قالت متنهدةً: «أنت أحمق للغاية. إنما طلبت عناقك عمدًا. وما كان إحجامك عن فعل ذلك سوى إضافةٍ إلى الإهانة التي أشعر بها. أنا غاضبةٌ من نفسي؛ لأن مثل هذا الشيء لم يحدث لي من قبل، على الرغم من أنني عشتُ جزءًا كبيرًا من حياتي مع الرجال، وكنت أقف على قدم المساواة معهم، وأعمل معهم، وألهو معهم، وأراهم في جميع الأوقات أكثرَ مما أرى بنات جنسي.»

قال ببساطة: «استشعرت ذلك.»

أشرق وجهها لحظة. لاحت في عينَيها نظرةُ امتنان. وخلَّف إمساكها التلقائيُّ ليده خَدَرًا في أصابعه.

غمغمَت قائلة: «أنا سعيدة لأنك تفهمت ذلك. ربما سيساعدني هذا قليلًا. أما بالنسبة إلى البقية فستنساه إذا ما أردتَ أن تكون كريمًا.»

فوعدَها قائلًا: «إن لم أستطع فعل ذلك، فعلى الأقل سأُغلق صندوق ذكرياتي.»

قالت متوسِّلة: «افعل ما هو أكثرُ من ذلك، ألقِ بمفتاحه في البحر، أو أي وسيلة تشاء كي يصيرَ الأمر في طيِّ النسيان. إنَّ لحظاتٍ كتلك ليس لها مكان في حياتي. فثمة غاية واحدة لديَّ، وهي أقوى من أي شيء آخر، ومن سخرية القدر الكئيب أنه يبدو أنك تمتلكُ الآن القدرةَ على تدمير هذه الغاية.»

ظل جوليان صامتًا. فقد بدت تعبيراتُ الندم المعتادة غيرَ ملائمة كثيرًا. بالإضافة إلى أن سحر اللحظة كان يتلاشى. كان الوجه الآخر من شخصيتها يُعيد التأكيد على حضوره.

استطردَت بشيءٍ من الكآبة قائلة: «أعتقد أنني حتى لو أقسمت لك بشرفي، ومن واقع معرفتي الأكيدة، على أن تسليم هذه الرسائل في موعدِها قد يُنقذ حياة الآلاف من بني وطنك، ويُنقذ الكثير من القلوب من الانفطار، والكثيرَ من المنازل من الدمار والخراب؛ حتى لو أخبرتُك بكل هذا، فهل سيساعدني ذلك في استجدائي لك؟»

قال مطمئنًا إياها: «لا شيء يمكن أن يساعدك سوى ثقتك الكاملة، وأخشى حينها أن النتيجة ستكون مشابهة.»

تمتمَت قائلة: «أوه، يا لك من قاسٍ!» وأردفت: «ثقتي مِلكٌ للآخرين. إنها ليست ملكًا لي وحدي لكي أمنحك إياها.»

فقال موضحًا: «أتعلمين، إنني أعرف مسبقًا أنك تتحدثين بالحقيقة كما ترَينها. أعرف مسبقًا أن أي مخطط أنتِ ضالعةٌ فيه إنما هو من أجل مصلحة إخوتنا في الإنسانية وليس للإضرار بهم. لكن للأسف! أنت تُنصِّبين نفسك قاضيةً على تلك الأمور، وهناك أوقات يكون فيها المجهود الفردي أخطرَ شيء في الحياة.»

تنهدت قائلة: «لو أنك شخص آخر!»

قال محتجًّا: «لماذا تنحازين ضدي؟» وأردف قائلًا: «صدقيني، أنا لست بشخص عابث طائش. أنا أيضًا أفكر في الحياة ومشاكلها. أنتِ نفسك من الطبقة الأرستقراطية. فلمَ لا أتعاطف مثلك مع من يعانون وأشعر بهم؟»

قالت مذكرةً إياه: «أنا روسية، والأمر في روسيا مختلف. إلى جانب ذلك، فلم أعد من الطبقة الأرستقراطية. إنما أنا مواطنة في هذا العالم. لقد زهدتُ كل شيء في الحياة عدا شيء

واحد، وفي سبيله عملت بكل ما أوتيتُ من جهد وطاقة. أما بالنسبة إليك، فماذا فعلت؟ ماذا قدَّمت؟»

أقرَّ قائلًا: «أخشى أنني لم أقدِّم شيئًا يُذكر. فكما تعلمين، تداخلَت فترة تجنيدي القصيرة مع بدايتي الواعدة للغاية في المحاماة.»

فقالت: «ليس لك مجال مِهني محدَّد في الوقت الراهن. بل كنت تُضيع وقتك في الرقابة.»

«إنني بصدد العودة إلى مهنتي.»

قالت ساخرة: «مهنتك!» واستطردت: «هذا يعني أنك ستقضي وقتك في نزاعٍ مع عدد آخر من الأشخاص ذوي الشعر المستعار والأفق الضيق بشأن تفاصيل قانونيةٍ غير مهمة لا تؤدي إلى أي شيء، ولا يهتمُّ لأمرها أحد.»

«هناك مهنتي بالصحافة.»

«لقد لعنتها حين أطلقت عليها «الصحافة المأجورة»!»

«قد أدخلُ البرلمان.»

ردت قائلة: «نعم، لكي تحفظ حقوقك.»

فقال متنهِّدًا: «يؤسفني أنك لا تُحسنين الظن بي.»

فقالت: «بوسعك أن تجعلني أراك أشجع وألطف الرجال وأكثرَهم حصافة.»

هزَّ جوليان رأسه.

«أرفض أن أُفكر في أن نظرتك لي ستتحسَّن بأي حال بارتكاب فعل شائن من أجلك.»

فقالت متوسِّلة واضعةً يدها مرة أخرى على يده: «جربني. إذا ما أردتَ أن تحظى بمشاعري الطيبة وامتناني الدائم، فهما لك. أعطِني تلك الرسائل.»

قال بنبرة حازمة عنيدة: «مستحيل. إن كنت ترغبين في أن تُغيري موقفي تجاه تلك الرسائل، لا بد أن تخبريني بالضبط عن مُرسلها ومحتواها ولمن ستذهب.»

«أنت تطلب المستحيل ... أنت تجعلني أندم ...»

«تندمين على ماذا؟»

قالت في جُرأة: «أندم لإنقاذي حياتك. لماذا لا أندم على ذلك؟ هناك الكثير ممن سيُعانون ويفقدون حياتهم بسبب عنادك.»

«إن كنتِ تعتقدين ذلك، فأفضي لي بالأمر.»

هزَّت رأسها في حزن.

«فقط لو كنتَ مختلفًا!»

قال محتجًّا: «أنا إنسان. لديَّ قلب ومشاعر تعاطف. يمكنني أن أُضحي بحياتي عن طيب خاطر من أجل أن أمنع وقوع أي مجزرة.»

تمتمت في يأس: «لا يمكنني أن أجعلك تفهم أبدًا. ولن أحاول. لا أجرؤ على المجازفة بالفشل. أهذه الغرفة حارة، أم أن ذلك من وحي خيالي؟ هل يمكن أن تفتح إحدى النوافذ؟»

«بكل تأكيد.»

سار جوليان بالاتجاه الآخر من الغرفة ورفع الستار من أمام إحدى النوافذ العالية المطلة على البحر. وعلى اللوح الذي يكسو الجدارَ بين النافذة التي اتجه إليها والنافذة التالية لها، كان هناك مِرآة طويلة مذهَّبة من أطلال زمن سابق، يعود إلى بضع مئات من السنين، حين كانت الغرفة تُستخدم كغرفة استقبال. ومن قبيل الصدفة البحتة، ورغبةً في الاستمتاع باستراق نظرة خاطفة على كاثرين، تصادف أن نظر جوليان في المرآة وهو ينحني نحو قفل النافذة. وقف جوليان لحظة متسمرًّا في مكانه. كانت كاثرين قد نهضت واقفة، دون أي أمارة على شعورها بالإجهاد، ومالت على الصينية التي وضع عليها شراب الويسكي والصودا الخاص به، وكانت في أثناء ذلك في حالة من التوتر والحذر. كانت يدها ممدودة. ورأى جوليان خيطًا رفيعًا من مسحوق أبيض يقع في الكأس. راوده شعور حاد وممرض بالخيبة كاد يجعله يتأوه. لكنه غالبَ شعوره بصعوبة، وفتح النافذة بضعة إنشات، ثم عاد إلى مكانه. كانت كاثرين مستلقية في الكرسي وعيناها شبه مغلقتين، وذراعاها يتدلَّيان من جانبي الكرسي في خمول.

سألها جوليان: «هل تشعرين بتحسن؟»

قالت مطمئنةً إياه: «كثيرًا. لكن أظن أنني سأخلد إلى الفراش إن كنت لا تمانع. فأنا أعاني من نوبة عصبية شديدة قلما تنتابني. اشرب الويسكي والصودا، ثم هلا اصطحبتني بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال؟»

ظل جوليان يعبث بكأسه وهو مستغرقٌ في التفكير. كان أول ما خطر بباله أن يُسقطه. غير أنَّ ثمة تدخلًا خارجيًّا كان على وشك الحدوث. فقد انفتح الباب، ودلفَت الأميرة برفقة اللورد شرفينتون.

صاحت الأولى قائلة: «أخيرًا!» وأردفَت: «كنت أبحث عنكِ في كل مكان يا طفلتي. أعرف أنك تشعرين بالإنهاك، وأصرُّ على أن تخلدي إلى الفراش.»

توسَّلَت كاثرين إلى جوليان قائلة: «أنهِ شراب الويسكي والصودا، وسأتكئ على ذراعك حتى الدرج.»

مدَّت كاثرين يدها اليُمنى لتساعده. وأمسكت الأميرة بابنة أخيها.

وقالت في إصرار: «سأعتني بكِ بنفسي. فالسيد أوردين مطلوب للعب البلياردو. اللورد شرفينتون يتوق إلى مباراة.»

أجاب جوليان بسرعة: «سيكون هذا من دواعي سروري.»

واتجه نحو الباب وفتحه وظل ممسكًا به. أعطته كاثرين أصابعها وابتسامةً صغيرة بها شيء من الشك.

وقالت متنهدة: «فقط لو لم تكن متعنتًا إلى هذا الحد القاسي!»

لم يجد كلماتٍ للرد عليها. فقد كان لا يزال تحت وطأة صدمة ما اكتشفه.

ناداه اللورد شرفينتون مبتهجًا وقال: «ستُعطيني ثلاثين نقطةً من مائة كل نقطة تُحرزها. وأغلق ذلك الباب بأسرعِ ما يمكن، إذا تكرمت. ثَمة تيار هواء عنيف للغاية.»

الفصل التاسع

انتهت سهرة جوليان في ساعةٍ غير محددة من الصباح الباكر، وفي ذلك الحينِ أُدير مقبض باب حجرته ببطء، وفُتح الباب ثم أُغلق مرةً أخرى. كان جوليان يرقد ممددًا على سريره ولم يكن قد استعدَّ للنوم تمامًا بعد؛ إذ كان هناك ثيابٌ ليلية ملفوفة حول جسده، واستمر جوليان يتنفس بعمقٍ وعيناه نصف مغلقتين ويتسمَّع بانتباهٍ شديد إلى صوت رفرفة الثياب الخفيفة، وصوت خطوات خفيض، يكاد يكون صامتًا، لأقدام خفيفة. سمعها جوليان تعبث في سُترة السهرة، وتبحث في الجيوب، وسمع صوتَ فتح وإغلاق الأدراج خِلسةً في دولابه. وسرعان ما اقتربت الخطوات نحو فراشه. وللحظةٍ اضطُر جوليان إلى أن يحبسَ أنفاسه. وجاءته نفحةٌ صغيرة من عِطر غريب غير معروف وكان آسرًا ومنفِّرًا في الوقت نفسِه، فشعر جوليان بشعور مزعج إذ كان يألفُه. توقفَت بجوار فراشه. وشعَر بيدها تتسلل تحت وسادته التي كان رأسه يُلامسها بالكاد، ثم راحت تبحث في جيوب رداء نومه، بل فتَّشَت السرير. أنصتَ جوليان لصوت أنفاسها الرقيقة. كان إدراكه لوجودها القريب واللصيق بجواره قد أثَّر فيه بطريقةٍ تتعذر على التفسير والشرح. ثم سرعان ما ابتعدت منسلَّةً عن جواره، ما أشعره بارتياحٍ بالغ، ثم جاءت اللحظة التي كان ينتظرها. سمع جوليان خطواتها وهي تتراجع إلى حجرة جلوسه الصغيرة عبر الباب الواصل بينها وبين حجرة نومه، حيث تعمَّد تركها مضاءةً قليلًا. انسلَّ جوليان في هدوء شديد من فِراشه وتبعها. كانت تميل فوق مكتبٍ مفتوح حين عبر عتبة الباب بين الحجرتَين. فأغلق جوليان الباب ووقف مولِّيًا ظهره إليه.

ثم قال: «هنا أدفأ بكثير، لكنها ليست هنا كما ترَين.»

انتفضَت بشدةٍ عندما سمعت صوته، لكنها لم تلتفت إليه في الحال. وكان تصرفها هذا صادمًا له. لم يكن في أسلوبها أيُّ شيء يدل على التوتر أو الأسف. فقد لمعت عيناها وهي تنظر إليه في غضب. كانت ترتدي شالًا فضفاضًا أحمرَ اللون ومزخرفًا بفروٍ أبيض، وكانت ترتديه بلا هندام بصورة غير مألوفة، وجذابًا إلى حدِّ الإثارة.

صاحت في سخط قائلة: «إذن كنتَ تُمثل أنك نائم!»

فأقرَّ قائلًا: «بالضبط.»

لم يتحدَّث أيٌّ منهما للحظة. وقعت عيناها على كأسٍ من الويسكي والصودا كان موضوعًا على طاولة مستديرة بجوار كرسيه الوثير.

قال جوليان مطمئنًا إياها: «لم أخلد إلى الفراش ظمآن. لقد تناولتُ كأسًا أخرى في الأسفل أعددتُه لنفسي. أما هذا فقد أحضرته هنا معي لكي أرى إن كان بإمكاني تذكرُ ما يكفي من دراستي للكيمياء بما يُعينني على تحديد محتوياته. وما أراحني كثيرًا أنني خلصتُ إلى أن نيتَكِ على الأرجح كانت أن تكتفي بإدخالي في نوبةِ سُبات مؤقَّت لا غير.»

فقالت بنبرة هادئة: «أردتُ أن أُزيحك عن طريقي بينما أُفتِّش في غرفتَيك. لو لم تكن ذلك الشخصَ المتعنت العنيد القاسي المتحيز، لما كان ذلك ضروريًّا.»

فتمتمَ قائلًا: «يا إلهي!» وأردف: «أكل تلك الصفاتِ فيَّ؟ ألن تجلسي؟»

بدَت كاثرين للحظة وكأنها على وشك أن تضربه بالمشعل الكهربائي الذي كانت تُمسك به. لكنها وبعد جهد كبير للسيطرة على نفسها، غيَّرَت رأيها وألقت بنفسها في كرسيه الوثير بإيماءة صغيرة تشير إلى لا مبالاة من جانبها. جلس جوليان في مواجهتها. وعلى الرغم من أنها أشاحت بوجهها عنه قدر استطاعتها، أدرك في غضون تلك اللحظات القليلة أنها تنعم حقًّا بجمال استثنائي. كان سلوكها مفعمًا بالبهاء الغاضب. وكان ارتعاشُ شفتَيها هو العلامةَ الوحيدة على ضعفها. وكانت عيناها مفعمتين باستياءٍ فاتر.

قالت كاثرين: «حسنٌ إذن، ها قد صرتُ أسيرةً لديك. كلِّي آذان مصغِية.»

«أعتقد أنكِ تبحثين عن الرسائل؟»

قالت ساخرةً: «يا للدهاء!» وأردفَت: «لقد ائتمنتُك عليها، وأنت تصرفتَ بهمجية وفظاظة. لقد تحفظتَ عليها. وليس لك من الأمر شيء. ليس لك الحقُّ في امتلاكها.»

قال مقترحًا: «لنتفاهم معًا، مرةً واحدة وإلى الأبد. لن أناقش حتى مسألةَ مشروعية حيازتها من عدمها. الرسائل بحوزتي، وسأحتفظ بها. ولا يُمكنك أن تحتالي عليَّ لأخذِها مني، ولا يُمكنكِ سرقتُها مني. سآخذ الرسائل غدًا إلى لندن وأعطيها لصديقي في وزارة الخارجية. وما من شيء يمكن أن يدفعَني لتغيير رأيي.»

بدَت فجأةً وكأنها علقت في دوامةِ شعورٍ جديد. فقد لاح في تعبيراتها شعورٌ كبير بالمرارة. جثت كاثرين على ركبتيها إلى جواره، ومدَّت يدها متلمسةً الطريق إلى يديه، ورفعت وجهها، الذي كان مفعمًا باستجداءٍ وتوسُّلٍ بالغَين. وكانت عيناها مغرورقتَين بالدموع وصوتها بائسًا مثيرًا للشفقة.

قالت في رجاء: «لا تكن فظًّا قاسيًا بهذا الشكل. أقسم أمام الربِّ إن تلك الرسائلَ لا تحمل شيئًا من الخيانة، وإنها الرابط الأساسيُّ الوحيد في مخططٍ إنساني عظيم. كن كريمًا يا سيد أوردين. جوليان! أعدها لي. إنها ملكي. أقسم ...»

أمسكَت يداه بكتفيها. شعرت أنه ينظر خلفها، وأن عينيه تحملان نظراتِ ذعر. تلاشت الكلمات من فوق شفتيها. ثم أدارت رأسها هي الأخرى. كان باب حجرة الجلوس قد فُتِح من الخارج. وكان اللورد مالتينبي واقفًا في ثياب نومه، ويده ممدودة خلفه وكأنه يُحاول أن يمنع شخصًا خلفه من اتباعه.

تساءل اللورد بنبرة صارمة: «ما معنى هذا يا جوليان؟»

ظل جوليان واجمًا للحظة، فاقدًا للقدرة على الحديث أو الحركة. كانت كاثرين لا تزال راكعةً في مكانها. ثم أُزيح اللورد مالتينبي جانبًا بفظاظة وبلا تكلُّف. كانت الأميرة من دخلت بعده.

صرخَت قائلة: «كاثرين!» وكررت: «كاثرين!»

نهضَت الفتاة ببطء. كانت الأميرة متكئةً على ظهر كرسي، تُكفكِفُ دموعها بمنديلٍ وتنتحب بصورة هستيرية. ثم سُمع صوت اللورد شرفينتون من الخارج.

تساءل: «ما كل هذه الجلَبة بحق السماء؟»

اجتاز العتبةَ هو الآخر وظلَّ متسمرًا في مكانه. أغلق الإيرل الباب بقوة ووقف موليًا ظهره إلى الباب.

ثم قال: «هيا، لا نريد مزيدًا من المشاهدين لهذا المشهد الشائن. أرجو أن تتذكر يا جوليان أنك لستَ في شقة العزوبية خاصتك. أنت في المنزل الذي تُشرِف عليه والدتك. هل لديك أي سبب لتُقدمه أو عذر تدفع به يجعلني لا أطلب من تلك الفتاة أن تغادر المنزل مع انبلاج الفجر؟»

فأجابه جوليان: «ليس لديَّ عذر يا سيدي، لكن لديَّ سببًا بالتأكيد.»

«ما هو؟»

«أنك بذلك تُوجِّه إهانةً للفتاة التي وعدتني بأن تكون زوجةً لي. أنا مدرك تمامًا أن وجودها في حجرة جلوسي أمر غير عادي، لكن في ظل هذه الظروف لا أرى أنني مطالَب

بتقديم تفسيرٍ عام. ولن أقول شيئًا سوى أن أيَّ تعليق قاسٍ سيُوجَّه إلى زوجتي المرتقبة سأعتبره إهانةً لها.»

توقفت الأميرة عن إصدار أصوات نحيبها وجفَّفت عينَيها. وكان اللورد مالتينبي واجمًا.

ثم تساءلت الأميرة بنبرة بائسة: «لكن لِمَ كل هذا الغموض؟» وأردفت: «هذا حدث رائع. لماذا لم تُخبريني يا كاثرين حين أتيتِ إلى غرفتي؟»

قال جوليان موضحًا الأمر: «كان ثمة سوءُ تفاهم بسيط. وقد زال الآن.» ثم أضاف: «كنا على شفا مأساةٍ بسببه. وبعد ما أخبرتكم به، أتمنى أن تنسَوا أي شيء قد يبدو لكم غيرَ عادي في الزيارة التي شرفَتني كاثرين بها.»

تنفَّس اللورد مالتينبي الصُّعداء قليلًا. ولحسن الحظ، أغفل تلك النبرةَ المسرحية في سلوك جوليان التي ربما كانت ستترك الموقفَ محلَّ شك.

قال اللورد مالتينبي في حسم: «حسن إذن يا جوليان، ليس هناك شيء آخرُ يمكن قولُه بشأن هذا الأمر. اسمحي لي يا آنسة آبواي أن أرافقك إلى حجرتك. يمكننا أن نؤجل أيَّ تفسيرات أخرى قد تُقررين تقديمها لنا إلى الصباح.»

قال جوليان: «ستجدون أن اللوم كله في هذا الحدث غيرِ الملائم يقع على كاهلي.»

تمتمَت كاثرين في ندمٍ قائلة: «كان الأمر كله خطئي أنا. آسفةٌ جدًّا إن كنتُ قد تسببت في كدرٍ لأي أحد. لا أعرف، حتى في هذه اللحظة ...»

ثم التفتَت نحو جوليان. فانحنى إلى الأمام نحوها ورفع أصابعها إلى شفتَيه.

وقال: «الجميع منفعلٌ قليلًا يا كاثرين. وقد انتهى سوء الفهم الذي وقع بيننا. سموَّ الأميرة، هل لي أن أحاول كسب عفوك غدًا.»

ابتسمت الأميرة ابتسامةً باهتة.

وقالت متذمرة: «كاثرين في غير طبيعتها تمامًا.»

أمسك جوليان بالباب مفتوحًا، وانصرفوا جميعًا مصطفِّين في الممر الذي تراجع منه اللورد شرفينتون بخُطًى سريعة قبل وقتٍ طويل. وقف جوليان مكانه حتى وصلوا إلى منحنى الممر. فالتفتت كاثرين، التي كانت تستند على ذراع والده. ولوَّحَت بيدها في شيء من التردد. كانت بعيدةً عنه بحيث لم يتمكن من رؤية تعبيرات وجهها، لكن كان ثمة شيءٌ مثير للشفقة في خطواتها البطيئة المتململة التي بدت وقد تجردت من رشاقتها الحماسية التي كانت تتحلى بها قبل بضع ساعات.

لم تستفق كاثرين من حالة الخمول التي أمضت فيها الجزءَ الأكبر من رحلتهم إلى لندن إلا حين قاربوا على الوصول إليها عصر اليوم التالي. ومن مكانها في مقعد الزاوية في المقصورة التي جلسوا فيها في هدوء منذ غادروا ويلز، راحت كاثرين ترقب رفيقها عبر عينين نصف مغمضتين. كان جوليان يقرأ مقالًا في أحد أعداد جريدة «ريفيو» وظل غيرَ مدرك تمامًا لتمحيصها فيه. كان جبينه مغضَّنًا وفمُه ممطوطًا قليلًا في ازدراء. كان واضحًا أن لم يكن يستحسنُ ما يقرؤه تمامًا.

خلال تلك الساعات القليلة التي قضتها وحيدة، أدركت كاثرين تغييرًا طفيفًا يتنامى في بطءٍ في موقفها النفسيِّ تجاه رفيقها. فحتى حلول تلك الساعات الدراماتيكية في منزل مالتينبي، كانت كاثرين تعدُّه رجلًا لطيفًا بل جذابًا، لكنه ينتمي إلى نوعيةٍ من البشر لا تتعاطف معها قلبًا وقالبًا. كان في تصرفه الشهمِ الرزين في الليلة السابقة وما توصلَت إليه في أفكارها وتأملاتها بينما كانت جالسةً في مكانها تتفحصه؛ ما جعلَها تميل إلى التشكيك في دقة حكمها الأول عليه تمامًا. فقد وجدَت كاثرين شيئًا عقلانيًّا وقويًّا بصورة غيرِ متوقعة في حالة التركيز التي كان عليها في تلك اللحظة؛ في جبهته البارزة الشاحبة وعينَيه الغائرتين المنتبهتين. كانت قامته الطويلة وقوامه اللَّيِّن أبعدَ ما يكون عن القبح، وكانت بذلتُه الرمادية المصنوعة من الصوف الخشن وحذاؤه البني المهترئ يبرزان الشكل المهمَل لرجل ليس في حاجةٍ إلى الاعتماد على مصمِّم ملابسه من أجل التميز. كانت يداه أيضًا قويَّتين وتنمَّان عن قدرة ومهارة. وجدَت نفسها فجأةً تتمنى لو كان الرجل نفسه مختلفًا، لو كان ينتمي إلى نوعية أخرى أكثر تجانسًا وتواؤمًا.

بمرور الوقت، وضع جوليان الجريدة التي كان يُطالعها ونظر من النافذة.

صرَّح بنبرة مهذبة دمثة: «سنكون في لندن في غضون ثلاثة أرباع الساعة.»

استقامت كاثرين في جلستها وتثاءبت وأخرجت علبة بودرة التجميل خاصتها، ونظرت في المرآة واستخدمت مذررة مسحوق التجميل بتلك الثقة الساحرة إلى حدٍّ ما التي تُميز الأجنبيات. ثم أغلقت علبة أدوات التجميل بضغطةٍ سريعة، وأنزلت حجابها ونظرت إليه.

سألته بنبرةٍ رزينة: «وكيف سيُرفِّه عني خطيبي هذا المساء؟»

رفع جوليان حاجبَيه.

ثم أجاب بصورة غير متوقَّعة: «أنا في خدمتك تمامًا، باستثناء نصف ساعة فقط.»

فصرَّحَت قائلةً: «أنا كثيرة المطالب. وأطلب وجودك في نصف الساعة تلك أيضًا.»

«أخشى أنني لن أسمح لأي شيء أن يُعطل الزيارة السريعة التي عليَّ القيامُ بها.»

«في داونينج ستريت؟»

«بالضبط!»

«أسَتَذهب للقاء صديقك في وزارة الخارجية؟»

«فور الوصول إلى مسكني.»

أشاحت بنظرها بعيدًا عنه ونظرت من النافذة. وتحت حجابها كانت عيناها دامعتين بعض الشيء. لم ترَ شيئًا من الحقول المقسَّمة بأناقة، ولا الريف المارِّ بجانبها. بدَت وكأنَّ المآسيَ تمر أمام عينيها؛ عتاد الجنود المخضب بالدماء في ساحة المعركة، والمنازل الخاوية المدمَّرة، ونحيب النساء وهن يتَّشحن بالسواد ويُحاولن جاهدين طمأنةَ أطفالهن في حين أن قلوبهن مفطورة. حين أشاحت بوجهها عن النافذة، كانت تعابيرُ وجهها متصلِّبة. مرة أخرى وجدت نفسَها تكره الرجل الذي كان يُرافقها. كانت تشعر في تلك اللحظة أنها قاتلة، أيًّا كان ما سيحدث بعد ذلك.

صاحت به قائلةً: «حين تخلد إلى نومك الليلة، اعلم أنك ستكون الرجل الأكثرَ تدنسًا بالدماء في العالم!»

قال في تأدُّب: «لن أُنازع صديقك هوهنزولرن في هذا اللقب.»

ردَّت وصوتها يهتزُّ من فرط الانفعال: «ليس بصديقي. أنا خائنةٌ في نظرك لأنني تسلَّمتُ رسالةً من ألمانيا. ممن أُرسِلت برأيك؟ من المحكمة؟ أم من المستشار، أم من أحد أتباعه الأوفياء؟ يا لك من أحمق! إنها مرسَلة من أولئك الذين يكرهون العسكر. إنها قادمة من ألمانيا التي خُدع شعبُها وخُنِق على مدى الحرب. إنها آتية من الشعب الذي حاول ساستُك الوصول إليهم وفشلوا.»

قال جوليان ببرود: «الاقتراح مثير، لكنه بعيد الاحتمال.»

قالت وهي تميل قليلًا إلى الأمام وتنظر إليه بثبات: «أتعلم أنني لو كنتُ خطيبتَك بحق — أو لو كنت زوجتك، وهو الأسوأ! — أظن أنني كنتُ سأتحول لقاتلة في غضون وقت قصير!»

«أتكرهينني إلى هذا الحد؟»

«أكرهُك! أعتقد أنك أكثر مخلوق غبي وعنيد ومغرور وجاهل دمَّر قضية عظيمة من قبل.»

تقبَّل جوليان كلماتها التي نزلت عليه كسوطٍ لاذع، دون إبداءِ أي علامة على شعوره بالإهانة؛ بل بدا، في الواقع، أنه يفكِّر فيها بإمعان.

وقال محتجًّا: «لقد أضعتِ الكثير من وقتكِ وطاقتكِ في إهانتي. لماذا لا تُبررين لي الأمر؟ أخبريني بقصتك وقصة أولئك المتورطين معك في تلك المراسلات السرية مع ألمانيا؟ إن كنتم تعملون من أجل غايةٍ نبيلة، فأعلميني بها. أنتِ تلومينني على الحكم الذي أصدرتُه عليكِ، على حفاظي على رباطة جأشي. أتعلمين، أنتِ شخص مسئول.»

فأجابته لاهثةً: «بل ألومك لكونك ما أنت عليه. لو كنتَ شخصًا يفهم، وتشعر بالحراك العظيم للإنسانية خارج حدود دائرتك الصغيرة، وبإمكانك أن تنظر عبر الحدود وتُدرك أن الجنسية ما هي إلا شيء عرَضي وأن الأخوَّة في الإنسانية عبر أرجاء العالم هي الحقيقة الواقعية الوحيدة الجديرة بأخذها بعين الاعتبار ... آه! لو كان بإمكانك إدراكُ هذه الأشياء، لاستطعتُ التحدث وتوضيحَ الأمور لك.»

«أنتِ تحكمين عليَّ بطريقة استبدادية بعض الشيء.»

«أحكم عليك من واقع حياتك، وانحيازاتك، وحتى من وجهات نظرك التي عبَّرتَ عنها.»

فقال لها على سبيل التذكِرة: «البعض منا يكون الصمتُ بالنسبة إليهم هبةً قومية. يروق لي ما قلتِهِ للتو. لماذا تُسلمين بأنني إقطاعيٌّ ضيق الأفق؟ لماذا لا تصدقين أنني أيضًا أشعر بالأهوال التي نراها اليوم؟»

صاحت قائلة: «أنت تشعر بها بصورة فردية وليس بصورة موضوعية. أنت تشعر بها بعقلك لكن ليس بقلبك. لا يمكنك أن ترى أنَّ ثمة روحًا من أصل واحد تعيش في الفلاح الروسي والعامل الألماني والعامل الإنجليزي الكادح والصانع الفرنسي. إنهم جميعًا يُضحُّون بدمائهم من أجل حلمهم، الذي هو حلم رجل سياسي. نحن لا نظفر بالحرية بالحروب. بل لا بد أن نظفر بها — إن قُدِّر لنا ذلك — من خلال التضحية المعنوية وليس بالدم.»

فقال في رجاء: «إذن اشرحي لي ماذا تفعلين بالتحديد؟ ما مبررك في التواصل مع الحكومة الألمانية؟ تذكَّري أن الرسالة التي اعترضتُها لم يكن مصدرها مجردَ شخص في ألمانيا. بل كانت ممن هم في السلطة.»

فأجابت: «مرةً أخرى هذا ليس صحيحًا. كنتُ سأطلب الإذن لكي أشرح لك كل هذه الأشياء، لولا أن ذلك أمر ميئوسٌ منه تمامًا.»

فذكَّرها قائلًا: «ستكون قضيةُ زملائك ميئوسًا منها أكثرَ على الأرجح، بعد الليلة.»

هزَّت كاثرين كتفيها في لا مبالاة.

وقالت بنبرةٍ جادة: «سنرى. لم تُفاجئ الثورةُ الروسية أي أحد. لربما تزعزع ثورةٌ إنجليزية كلَّ شيء حتى ثقتك بنفسك.»

لم يرد عليها. وتجمَّد الدم في عروقها، وكان بمقدورها أن تُوجه له لطمةً بسبب تلك الابتسامة الخافتة، التي نمَّت عن تنذُّر، والتي ظهرت على شفتَيه لحظة. كان جوليان قد نهض بالفعل وشرع يجمع متعلقاتهما.

سألها قائلًا: «أيمكنكِ أن تُساعديني فيما يتعلق بالتفسيرات التي سيكون علينا أن نُقدمها لعمتك ولأهلي؟ لقد غادَرْنا هذا الصباح، إن كنتِ تذكرين، لكي تزوري السفارة الروسية وتُعلني عن خِطبتنا. وأعتقد أنكِ ملزَمةٌ بالعودة والمكوث مع أمي.»

ردَّت قائلةً: «لا يمكنني التفكير في تلك الأشياء اليوم. يمكنك أن تقول إنني متعبة وإنك كان لديك عمل. أنت تعرف عنواني. فهل لي أن أتشرف بمعرفة عنوانك؟»

أعطاها بطاقة وكتب عليها رقم هاتف. كانا في هذه اللحظة في المحطة، وأمتعتهما في يدَي اثنين من الحمالين. كانت كاثرين تسير ببطء إلى جواره على رصيف المحطة.

فبادرها بقوله: «هلا تسمحين لي بأن أُعبِّر عن مدى أسفي لكلِّ هذا؟»

سرَّتها نبرةُ عدم اليقين الطفيفة في كلامه. فرفعَت نظرها إليه في ندمٍ عميق. وحين اقتربا من الحاجز، مدَّت يدها إليه.

وقالت بنبرة مرتعشة قليلًا: «أنا أيضًا آسفة أكثرَ مما يُمكنني أن أخبرك. وأيًّا كان ما سيحدث، فإن هذا هو ما أشعر به. أنا آسفة.»

وبهذه الكلمات افترقا. دنا من كاثرين رجلٌ نظر إليه جوليان نظرة سريعة لبرهة في دهشة، وكان ملبسه وهيئته يُشيران بوضوحٍ إلى انتمائه إلى مستوًى اجتماعي مختلف، رغم ما بدا فيهما من ثقة. رمق الرجل جوليان بنظراتٍ تنم عن استياءٍ بدا مشوبًا بشيء من الغيرة. ثم أمسك بيد كاثرين في حرارة.

«مرحبًا بعودتك إلى لندن يا آنسة آبواي! ما أخبارك؟»

لم يكن ردُّها مسموعًا. فقد أسرع جوليان في خطاه وسبقهما إلى الخروج من المحطة.

الفصل العاشر

بعد بضعة أيام، التقى الأسقفُّ، في عصر أحد الأيام، برئيس الوزراء عند ناصية شارع هورس جاردز. كان الأخير يبدو بحالةٍ جيدة ووجهٍ ذي سُمرة، وكانت حالته أفضلَ بصورة واضحة بفعل إجازته القصيرة. على النقيض، كان الأسقفُّ شاحبًا وبدا منزعجًا. تصافحا وراحا يتبادلان السفاسفَ المعتادة للحظات.

سأل الأسقف في جدِّية قائلًا: «أخبرني يا سيد ستينسون، ما معنى كل ذلك الحديث الدائر في الصحف، عن السلام المزمَع عقدُه الشهرَ القادم؟ سمعتُ تلميحات عن وجود حراك في هذا الصدد.»

فكانت الإجابة الصارمة: «أنت مخطئ. لقد أرسلتُ سكرتيري الشخصي إلى بعض الجرائد هذا الصباح. كل ما في الأمر أن السلام صار حديثَ الساعة في الوقت الراهن، الذي يُغذَّى طوال الوقت من جانب الطرف الآخر.»

«إذن فالأمر ليس حقيقيًّا بحق؟»

«مطلقًا. صدقني أيها الأسقف، وما من شخص يشعر بالإجهاد والضغط أكثرَ مني، إن الوقت لم يَحِن بعد للسلام.»

فقال الأسقفُّ متنهدًا: «أنتم أيها الساسة!» وأردف: «ترى هل تنسَون في بعض الأوقات أنه حتى البيادق التي تحركونها بشرية؟»

أجابه السيد ستينسون في تجهُّم: «يمكنني أن أقول صراحةً إنني شخصيًّا لم أنسَ ذلك أبدًا بأي حال. ما من رجل في حكومتي لديه شعورٌ شخصي واحد يؤيد استمرار هذه

الحرب الشنيعة أو يُحقق استفادةً واحدة من استمرارها. لكن على الجانب الآخر، ما من شخص لا يُدرك أن النهاية لم تَحِن بعد. لقد تعهدنا بكلمتنا، كلمة الأمة الإنجليزية، بسلام يستند فقط إلى احتمالات طارئة بعينها. والعدو غير مستعدٍّ بعد لتقبُّل تلك الاحتمالات. وليس ثَمة سببٌ مُلِّح يجبره على ذلك.»

فبادره الأسقفُ في ارتياب: «لكن هل أنت واثقٌ من ذلك؟» وأردف قائلًا: «فحين تتحدث عن ألمانيا، فأنت تتحدث عن ويليام هوهنزولرن وعشيرته. أهذه هي ألمانيا؟ هل صوتهم هو صوت الشعب؟»

أجابه السيد ستينسون: «سيُسعدني أن أعتقد أنهم ليسوا كذلك، لكن إن كانت هذه هي الحال، فليُعطونا إشارةً على ذلك.»

فقال الأسقفُ بنبرة أمل في صوته: «ستأتي تلك الإشارة ولن يطولَ انتظارها.»

كان الرجلان قد شارفا على الفراق. فالتفت السيد ستينسون وسار خطوةً أو اثنتين مع رفيقه.

وسأله قائلًا: «بالمناسبة أيها الأسقف، هل سمعت أي شائعات بخصوص الاختفاء المفاجئ لصديقنا الشاب جوليان أوردين؟»

وقف الأسقف صامتًا لحظة. ومر بجوار الرجلين أحدُ الأشخاص ورمقهما بنظرة خاطفة توحي بالشفقة. كان يُفكِّر أن من بين هذين الرجلين ذلك الرجلَ المنوط بالمسئولية الروحانية عن شعبٍ يُعاني، والذي يُظهر علاماتٍ أكثرَ على الشعور بالإجهاد والتوتر.

فأقر الأسقف: «لقد سمعتُ شائعات بالفعل. أخبرني ماذا تعرف؟»

أجابه السيد ستينسون: «ليس إلا القليل. لقد غادر منزل مالتينبي مع الآنسة آبواي في اليوم التالي لخِطبتهما، ووَفقًا للروايات التي سمعتها، فقد رتَّب لأن يتناولا العشاء معًا في تلك الليلة. وأتت لاصطحابه لكنها وجدَت أنه اختفى. ووفقًا لحديث خادمه، فقد خرج مرتديًا ثيابَه الصباحية بعد الساعة السادسة بقليل دون أن يترك أيَّ رسائل، ولم يعد منذ ذلك الحين. لكن فوق كل هذا، فقد تبع ذلك، وأظنك قد سمعت بذلك، تحرياتٌ ملحَّة من جانب الشرطة بشأن ما كان يقوم به أوردين في الليلة التي قضاها مع صديقه مايلز فورلي. ليس ثمة شكٌّ في أن غواصةً ألمانية تواجدت بالقرب من ميناء بلاكيني في تلك الليلة، وأن اتصالًا من نوعٍ ما قد جرى معها.»

قال الأسقفُ بأناة: «يبدو من العبَث أن نربط جوليان بأي اعتقاد بوجود تواصلٍ ينطوي على خيانةٍ مع ألمانيا. إنه نموذج للشابِّ الإنجليزي الذي ينتمي لطبقته لم أقابل مثلَه يومًا.»

أقرَّ السيد ستينسون قائلًا: «أتفق معك إلى حدٍّ معين، لكنَّ ثمة شائعاتٍ أخرى تتعلق بجوليان أوردين لا يُمكنني أن أُشير إليها، وأقل ما يُمكنني أن أقول عنها إنها مثيرة للدهشة.»

توقَّف الرجلان مرة أخرى.

ووضع ستينسون يدَه على كتف رفيقه. ثم تابع يقول: «أعرف ما خطبُك يا صديقي. إنك تتمتع بقلب كبير جدًّا. وما زالت صرخات الأرملة والأطفال تتردد في أذنيك. تذكَّر بعضًا من أولى عظاتك التي ألقيتها في بداية الحرب. تذكَّر حديثك الرائع ذات صباح في كاتدرائية القديس بول حول الروحانيات التي يمكننا أن نكتسبها من خلال المعاناة والتضحية. «اليد التي تُعاقَب تُطهَّر أيضًا.» أليس ذلك هو ما قلته؟ على الأرجح أنك لم تكن تعلم أنني كنت أحدَ مستمعيك، حتى ... حتى أنا نفسي في تلك الأيام لم أكن أنظر إلى الحرب مثلما أنظر إليها الآن. أتذكر تسلُّلي إلى الكاتدرائية من أحد أبوابها الجانبية وجلوسي على كرسيٍّ قاسٍ صُلب من دون أن يعرفني أحد. كان محفلًا رائعًا، وكنت أنا جالسًا بعيدًا في الخلف، لكنني سمعتك. أتذكَّر أيضًا أصوات خشخشة الحضور، وأنينهم الخفيض، وأنفاسهم التي تنمُّ عن الانفعال والتأثر حين نهضوا. تشجَّع أيها الأسقف. سأُذكِّرك بكلماتك مرةً أخرى: «هذه الأيام هي أيام التطهُّر».»

افترق الرجلان. وراح الأسقفُ يسير نحو شارع ستراند منهمكًا في التفكير عاقدًا يدَيه خلف ظهره، وصدى تلك الكلمات المقتبسة عنه لا يزال يتردَّد في أذنيه. وحينما وصل إلى المعبر المزدحم، رفع رأسه ونظر حوله.

وتمتمَ في نفسه قائلًا: «ربما كانت عيناي مغلقتَين. ربما توجد أشياء عليَّ أن أراها.»

استوقف الأسقف سيارة أجرة وتمتم للسائق بوجهته، وشرعت السيارة تسير ببطء عبر شارع ستراند، وكان الأسقف ينظر في حماسة ولهفة إلى أحد جانبَي الطريق ثم يُحول نظره إلى الجانب الآخر. كانت الساعة تقترب من ساعة الغداء وكانت الشوارع مزدحمة. هنا بدا أن المكان ساحة لالتقاء القوات الاستعمارية؛ كانوا مجموعة كبيرة من الرجال طوال القامة أقوياء البِنية، بوجوه برونزية اللون ومشية خرقاء. كانوا يشقون طريقهم بدفع الآخرين بمرفقهم، ويسيرون جنبًا إلى جنب في أغرب شكل لمجموعة رجال في العالم.

توقفوا وراحوا يتحدثون في جماعات صغيرة، دخلوا المنازل العامةَ وخرجوا منها، ووقفوا خارج المطاعم. كانوا يسيرون هنا وهناك وهم يتأبَّطون أذرع النساء. وكانت سيارات الأجرة والسيارات الخاصة على حدٍّ سواء تنعطف متجهة إلى فندق سافوي. وكانت الفتيات اليافعات العاملات بالمسارح — اللائي أحيانًا ما يَكُنَّ بمفردهن، وفي أغلب الأحيان يكون هناك من يصحبهنَّ — في كل مكان. كانت الحياة في لندن تتدفق في المسارات نفسها إلى حد كبير. وكان هناك القليل من العلامات، إن وجدت، على ذلك الشيء الذي كان يبحث عنه. اتجه سائق السيارة الأجرة غربًا، وعَبر سيرك بيكاديللي واستمرَّ في سيره عبر شارع بيكاديللي، بينما ما زال الراكب الوحيد في السيارة يُحدق في وجوه الناس بنفس الاهتمام الشديد. كان كل شيء يتكرَّر مرةً أخرى على الشاكلةِ نفسِها؛ حشود الأشخاص المبتسمين يدخلون المطاعمَ ويُغادرونها، والمتنزهون المتأنقون، وسيل النساء والفتيات اللائي يرتدينَ ملابس مبهِجة. وكان شارع بوند أكثرَ ازدحامًا بالمتسوقين والمتسكعين. كانت نوافذ المتاجر مزدحمةً كعادتها دائمًا، وكانت ثياب النساء رائعة. كان ثَمة الكثير من الناس رغم أنهم كانوا يرتدون الملابسَ العسكرية ذات اللون الكاكي. وكان الطريق العام الضيق مزدحمًا للغاية، حتى إن السيارة الأجرة كانت تتقدم بسرعة حلزون زاحف، وكان الأسقفُّ بين الحين والآخر يسمع مقتطفاتٍ من الأحاديث الدائرة بين الناس. فكانت فتاتان جميلتان تتحدثان إلى شابَّين يرتديان زيًّا رسميًّا موحَّدًا.

«يا له من قصفٍ ذاك الذي وقع ليلة أمس! لم أذهب إلى المنزل إلا في الثالثة!»

«لم يعُد ديك إلى المنزل. ما زال مفقودًا!»

«لقد أنهكَنا التسوقُ أنا وإيفي. كل شيء ارتفع ثمنه بمقدار الضعف، لكن لا يمكن للمرء أن يستغنيَ عن أي شيء.»

«لا يمكنني الاستغناءُ عن أي شيء في هذه الأيام. فلا أحد يعرف أبدًا كم سيدوم.»

تابعَت سيارة الأجرة مسيرها وكانت عينا الأسقفِّ شبه مغلقتين لبرهة. غير أن الأصوات ظلَّت تتعقبه. كان هناك امرأتان تقودان كلبَين مدلَّلَين صغيرين للغاية لهما شعر مموج وتتحدثان عند ناصية الشارع.

كانت إحداهما تقول: «ماذا عن السكر يا عزيزتي؟ لقد حصلتُ على نحو مائة كيلوجرام، ويمكنني دائمًا الحصول على ما أريد الآن. أصحاب المتاجر يعلمون أن من الضروري أن تُصبحي زبونة لديهم بعد الحرب. الناس فقط لا يستطيعون شراءَ الكثير في المرة الواحدة، وهذا ما يزعجهم حقًّا.»

«بالطبع، إنه لأمرٌ محزن للغاية شأن الحرب هذا وما إلى ذلك، لكن على المرء أن يُفكِّر في نفسه. أخبرني هاري ليلةَ أمس أنه بعد دفع كل ضرائب الدخل التي لم يستطع الإفلاتَ من دفعها والأرباح الإضافية؛ لا يزال ...»

ثم تحوَّلَت الأصوات إلى همس. وأخرج الأسقف رأسه من النافذة.

وقال موجِّهًا السائقَ: «اذهب بي إلى شارع توثيل في ويستمنستر، بأسرعِ ما يُمكنك من فضلك.»

انعطف السائق نحو شارعٍ جانبي وانطلق بالسيارة. كان الأسقف لا يزال يُراقب الناس، لكن أمارات الأمل على وجهه في تلك اللحظة كانت قد تلاشت. لقد كان يبحث عن شيء لم يكن هناك أيُّ دليل على وجوده.

صرف الأسقفُ سيارة الأجرة أمام مجموعة من المباني المنتهية حديثًا في حي مجاور لويستمنستر. أوصله عامل المصعد إلى الطابق السابع، وأرشده بوابٌ إلى حجرة انتظار كانت مزدحمة بالفعل. لكن كان هناك شابٌّ لاحظ دخول الأسقف، فأخذه وعبر به غرفتين مزدحمتين أُخريَين وطرق بوقار بابَ أحد شقة في الطرف الأقصى من الجناح. فتحَ البابَ، بعد تأخير قصير، شابٌّ ذو مظهر بغيض، وراح ذلك الشاب يُحدِّق بارتياب في الضيف البارز من خلف نظارة سميكة.

قال مرشدُ الأسقف: «يرغب الأسقف في مقابلة السيد فين.»

جاء صوتٌ من منتصف الغرفة آمرًا: «أدخِلْه في الحال. يمكنك الذهاب لتناول غدائك يا جونسون.»

وجد الأسقف نفسه وحيدًا مع الرجل الذي جاء لزيارته، وكان متوسط الطول نحيلَ البِنْية، ولا يرتدي ملابسَ حسنة، وله شارب متدلٍّ وعينان براقتان وجبهة لا بأس بها، لكن وجهه كان يشير إلى أنه حادُّ الطباع. وقف الرجل بينما كان يُسلِّم على الأسقف وعرض عليه الجلوس على أحد الكراسي.

قال بنبرة رجل يُجاهد سعيًا وراء مساواة كان بعيدًا كل البعد عن الشعور بها: «هذه المرة الأولى التي تشرفنا بزيارتك فيها أيها الأسقف.»

اعترفَ الأسقفُ قائلًا: «شعرت بدافع شديد للتحدث معك. أخبرني، ما أخبارك؟»

صرَّح نيكولاس فين بثقة: «كل شيء في تقدُّم. شهدَت الأحدَ عشر يومًا الأخيرة حراكًا اجتماعيًّا في البلاد، أُجري في سرية تامة، يُعادل في قضاياه الجوهرية كبرى ثورات العصور

الحديثة. فللمرة الأولى في التاريخ أيها الأسقف، تسنح فرصةٌ لصوت الشعب الموحد لكي يُسمَع.»

قال الأسقف: «لقد أنجزت عملًا مذهلًا يا سيد فين. والآن حانت اللحظة التي ينبغي علينا فيها أن نتوقفَ ونُفكر. لا بد أن نكون على ثقةٍ تامة ومطلقة من أن ذلك الصوت، حين يُسمع لأول مرة، يُسمع في سياق قضية نبيلة.»

سأله فين بحدَّة: «وهل هناك قضية في العالم أنبلُ من قضية السلام؟»

أجابه الأسقف: «ليس إن لم يكن ذلك السلامُ عادلًا ومنطقيًّا، ليس إن لم يتمكَّن السلام من وضع نهاية لهذا الصراع المريع الدامي.»

صرَّح فين قائلًا بنبرة غرور: «سنحرص على ذلك.»

«أعتقد أن لديك الآن الشروطَ التي قدَّمتها لك زمرتك الشقيقة في ألمانيا؟»

داعب نيكولاس فين شاربه. وارتسمت على جبهته تقطيبةٌ عابسة.

وقال: «أتوقع الحصول عليها في أي لحظة، لكن ولكي أكون صريحًا معك، فإن تلك الشروط غير متاحة في الوقت الراهن.»

«لكنني ظننت أن ...»

قاطعه الآخر قائلًا: «بالضبط. غير أن الوثيقة لم تكن حيث توقعنا أن نجدها.»

«لا شك أن ذلك يُعد تأزمًا خطيرًا للغاية في الأمور، أليس كذلك؟»

أقرَّ فين قائلًا: «سيَعْني ذلك تأخيرًا لبعض الوقت إذا لم ننجح في الحصول عليها. لكننا ننتوي أن نتحرَّى الصرامة في هذا الشأن.»

بدا الاضطراب على قسمات الأسقف.

وقال: «جوليان أوردين هو ابني بالمعمودية.»

قال فين بنبرة توجيهيَّة: «الضرورة لا تعترف بالصداقة أو القرابة. من الأفضل ألَّا تطرحَ أي أسئلة يا سيدي. فلا شأن لك بهذه التفاصيل.»

ردَّ الأسقف بجديةٍ وتجهم: «إنها من شأن ضميري. إننا نبذل جهدًا روحانيًّا حقيقيًّا من أجل السلام، من أجل انتزاع مسألة إنسانية عظيمة من أيدي الساسة الذين أثبتوا أنهم عاجزون عن إدارتها والتعامل معها. لذا ينبغي علينا أن ننظر في الوسائل التي نعتمدها بعناية خاصة.»

أومأ نيكولاس فين برأسه موافقًا. وأشعل سيجارة ذات رائحة نفَّاذة للغاية من علبة ورقية بجانبه.

ثم قال: «أنا وأنت أيها الأسقف من دُعاة السلام بالمعنى الأشمل للكلمة، لكن هذا لا يعني أننا قد لا نلجأ إلى استخدام القوة في بعض الأحيان من أجل تحقيق غايتنا. فلدينا قسمٌ خاص معنيٌّ بمفرده بالتعامل مع مثلِ هذه الأمور. وهذا القسم هو الذي اضطلع بمهامِّ استلام وتسليم جميع الرسائل بيننا وبين أصدقائنا عبر بحر الشمال. وعمليات هذا القسم سريةٌ تمامًا، حتى عن بقية المجلس. وسيتولى هذا القسم مهمة التعامل مع جوليان أوردين. من الأفضل لك ألَّا تتدخل أو أن تعرف حتى ما يحدث.»

فقال الأسقفُ محتجًّا: «لا يمكنني أن أوافق على ذلك. إنَّ عملًا عنيفًا يتعارض مع تعاليم المسيحية من شأنه أن يُمثِّل خللًا في البنية الفوقية التي نسعى إلى بنائها برمتها.»

فاقترح فين قائلًا: «لنناقش موضوعًا آخر.»

فردَّ بحزم: «عذرًا. إنما أتيت هنا لمناقشة هذا الموضوع.»

أخفض نيكولاس فين نظرَه إلى الطاولة. كانت تعبيرات وجهه غيرَ سارة على الإطلاق.

وقال: «على الرغم من تقديرنا الشديد لموقفك معنا يا سيدي، فهذا لا يكفل لك التدخل في التفاصيل التنفيذية.»

قال الأسقف في إصرار: «ولكن لا بد أن تُعاملني بأسلوب عقلاني في هذا الأمر يا سيد فين، فضلًا. تذكَّر أنني لست معدمًا في ميزان القُوى بين أتباعك. هناك ثلاثة لقاءات جماهيرية سأخطب فيها هذا الأسبوع، وهناك عظةٌ يوم الأحد في كاتدرائية ويستمنستر، التي تم الاتفاقُ على أن أُدلي فيها بأُولى رسائل التحذير. أعتقد أنني مصدر عون جدير بالاعتبار، وليس بينكم مَن يغامر بما أغامر به.»

سأله فين بعد بُرهة من التفكر والتريث: «ما الذي تطالبني به بالتحديد؟»

«أريد أن أعرف مكان جوليان أوردين وحاله.»

أجابه فين: «هذا الأمر يتولاه قسم الخدمة السرية لدينا، لكنني لا أرى أي سببٍ يمنعني من إطلاعك على كل المعلومات المناسبة. لقد بحث ذلك الشابُّ محلُّ حديثنا عن المتاعب، وقد وجدها إلى حدٍّ ما.»

قال الأسقف مذكِّرًا رفيقه: «أعرف أنه كاد يعرض نفسه للخطر، إن لم يكن قد تعرض لذلك كلية، في أثناء سعيه لحماية الآنسة آبواي.»

أقرَّ فين قائلًا: «ربما يكون الأمر كذلك، لكن هذا لا يغيِّر حقيقة أنه يرفضُ أن يُعيد لها الرسائل التي عهدت بها إليه.»

«أوَلا يزال سادرًا في عناده؟»

«إنه يُعاند تمامًا حتى هذه اللحظة.» ثم أضاف فين بابتسامة خبيثة بعض الشيء: «لعلك ترغب في أن تُحاول وترى ماذا يمكنك أن تفعل معه بنفسك؟»

أبدى الأسقف ترددًا.

وقال: «إن جوليان أوردين شابٌّ من نوع عنيد بصورة غريبة، لكن لو كنت أرى أن تحذيراتي ونصائحي ستُجدي أي نفع، لما أحجمتُ عن تجربتها، أيًّا ما قد يكلفني ذلك.»

قال فين: «من الأفضل أن تُجرِّب. إن لم ننجح في الوصول إلى شيء في الأربع والعشرين ساعةً القادمة، فسأُصدر لك أمرًا لكي تلتقيَ به.» وأسرَّ إليه قائلًا: «لا بأس من أن أعترف لك أننا بحاجة ماسة إلى ظهور تلك الوثيقة، فضلًا عن الخطر الذي يتهدَّدنا بإحباط خططنا إن وقعَت تلك الوثيقة في أيدي الحكومة.»

«أعتقد أن الآنسة آبواي قد قامت بالفعل بكل ما في وُسعها؟»

«لقد أعيَتْها محاولات إقناعه.»

«وهل أُخبِر بالحقيقة؟»

هزَّ فين رأسه.

«من واقع معرفتك بالشاب، هل تعتقد أن ذلك قد يُجدي أي نفع؟ حتى الآنسة آبواي مجبرةٌ على الاعتراف بأن من المستحيل إيجادَ أي شخص من المرجح أن يُبدي تعاطفًا مع أهدافنا ولو قليلًا. في الوقت نفسه، لو رتبنا لك لقاءً معه، يمكنك أن تستخدم أي حجج تخطر ببالك. وأَصدُقك القول، لقد أربكت كل حساباتنا جراءَ عدم العثور على الرسائل بحوزته. كان جوليان في طريقه إلى دوانينج ستريت حين تدخَّل عملاؤنا، ولم نشكَّ أبدًا في أنه يحملها معه. ما الوقت المناسب لك لزيارته؟»

أجابه الأسقفُ: «أرسل لي في أي وقت. وفي تلك الأثناء، وقبل أن أغادر يا سيد فين، أريد أن أذكِّرك مرة أخرى بالهدف الرئيس لزيارتي لك.»

عبَس وجه فين قليلًا في تبرُّم وهو ينهض من مكانه ليرشد زائره إلى الخروج.

وقال: «لقد انتزعَت الآنسة آبواي وعدًا أحمقَ منا. وسلامة الشاب في الوقت الراهن ليست محلَّ شك.»

وبدافعٍ من العادة أكثرَ مما هو بدافع من الرغبة، سار الأسقفُ عبر الحديقة العامة متجهًا إلى نادي أثينيوم. فتقدَّم السيد هاناواي ويلز نحوه في الردهة وبادره بالحديث.

قال مبتسمًا: «هذا العالم يعجُّ بالشائعات. لقد سمعتُ للتو أنَّ جوليان أوردين، من بين كل الرجال في العالم، قد أُطلِق عليه النار كونه جاسوسًا لألمانيا.»

ابتسم الأسقفُ في وقار.

وقال بجدية: «يمكنك أن تُصدِّقني حين أقول لك إنَّ تلك الشائعة غير حقيقية.»

الفصل الحادي عشر

على الرغم من أن مظاهر التحضُّر قد طغت بقوةٍ على نيكولاس فين خلال السنوات القليلة المنصرمة، فإنه بالتأكيد لم يكن رجلًا يدل مظهره الخارجي على أيِّ تقدم سواءٌ في ثقافته أو ذوقه. فرغم أنه تخلَّى عن عادة التعامل مع متاجر بيع الملابس الجاهزة، فلم يكن يُجيد اختيار ملابسه الصباحية ولا يُجيد ارتداءَها أيضًا. وكانت ثيابه المسائية أكثرَ سوءًا إنْ جاز التعبير. فقد التقى نيكولاس فين بكاثرين في مساءِ ذلك اليوم في رَدهة ما كان يعتقد أنه مطعم شواء عصري، وكان يرتدي معطفًا ذا ذيلٍ كذيل العصفور، وقميصًا لا يُناسب مقاسه به فتحة واحدة لوضع زرٍّ للزينة، وربطة عنق سوداء، وياقة تطوِّق رقبته كالياقة الإكليركية التي يرتديها الكهَنة حول رقابهم، وحذاء سير طويلًا عاديًّا. كبَحَت كاثرين رجفةً طفيفة سرَت في جسدها وهي تُصافحه وتحاول أن تتذكَّر أن ذلك الرجل ليس فقط الرجل الذي اختاره عدة ملايين من الكادحين ليكون ممثلًا لهم، لكنه أيضًا السكرتير المعيَّن رسميًّا لأهم التجمعات البشرية في تاريخ العالم.

قالت كاثرين: «آمُل ألا أكون قد تأخرت. أنا لا أهتم حقًّا لفكرة تناول الطعام في الخارج هذه الأيام، لكن رسالتك كانت تحمل إصرارًا شديدًا على الحضور.»

صرَّح قائلًا: «لا بد أن يحظى المرءُ ببعض الاستجمام. فعبء التعامل مع الأمور طوال اليوم يُسبب توترًا رهيبًا. هَلا ندخل؟»

دخلا المطعم ووقفا ينظران بلا هدف حولهما، بعد أن فشل فين، بتلقائية شديدة، في إدراك ضرورة الحصول على طاولة لهما. غير أن كبير النُّدُل تعرَّف على كاثرين وأسرع لنجدتهما. تحدَّثَت كاثرين مع الرجل بضعَ دقائق بالفرنسية، فيما وقف رفيقها يستمع بإعجاب، وفي الأخير وبعد مناشدةٍ منه، طلبت كاثرين طعام العشاء بنفسها.

سألته كاثرين بمجرد أن انسحب النادل: «هلا تُطلعني على الأخبار من فضلك يا سيد فين؟»

فقال مُكرِّرًا الكلمةَ: «الأخبار؟» ثم أردف: «أوه، لِنُنحِّ الأمر جانبًا بعضَ الوقت! فالمرء يمل من الحديث عن العمل.»

رفعَت كاثرين حاجبيها في شيء من الإحباط. كانت ثيابها تنضَحُ ببساطةٍ لافتة، لكن الاختلاف الطبقي بينهما مثَّل مشكلة للكثير من المشاهدين الفضوليين.

سألته: «لِمَ علينا أن نتحدث عن توافه الأمور، بينما كلانا لديه اهتمام كبير بأروع موضوع في العالم؟»

تساءل في إعجاب: «وما أروع موضوع في العالم؟»

أجابته بحزم: «قضيتُنا بالطبع، قضية جميع الشعوب؛ السلام.»

فقال متذمِّرًا: «يكدح المرءُ من أجل ذلك طوال اليوم. وحين يأتي وقت الراحة، أمَا يمكن للمرء أن يُزيح عنه عبءَ ذلك لبعض الوقت؟»

قالت في لا مبالاة: «أهذا ما تراه حقًّا؟ عن نفسي، ليس هناك سوى شيءٍ واحد يَشغل ذهني هذه الأيام. لا يوجد أي شيء آخر قطُّ في حياتي. وأنت، في وجود الآلاف والملايين من إخوتك في الإنسانية، الذي يكدحون ويترقَّبون وينتظرون إشارةً منك ... أوه، لا يمكنني أن أتخيَّل كيف يُمكن لذهنك أن ينشغل عنهم ولو لحظةً واحدة، كيف لك حتى أن تتذكر وجودك! أريد أن أكون موثوقًا فيَّ مثلك يا سيد فين.»

فقال في نبرةِ رضًا عن النفس: «إن أعمالي، كما أتمنى، كانت مبررًا لتلك الثقة.»

وافقَته كاثرين قائلة: «بالطبع، ولكن الجزء الأكبر من عملك سيأتي. خبِّرْني عن السيد أوردين؟»

«لم يطرأ أيُّ تغيير على موقفه. ولا أتصوَّر حدوث أي تغيير حتى اللحظة الأخيرة. إنه رجل إنجليزي عنيد ومغرور بصورة لا تُطاق، غارقٌ في التحيزات الطبقية حتى أنامله.»

قالت في تأمل: «لكنه رجل رغم كل ذلك. سمعتُ أمسِ فقط أنه حقَّق تميزًا كبيرًا حتى في أثناء مدةِ تجنيده القصيرة.»

علَّق فين بلا أيِّ حماس: «لا شك أنه يتمتع بشجاعة الحيوانات. بالمناسبة، لقد جاءَ الأسقفُ لزيارتي صباح اليوم.»

فسألته: «حقًّا؟» وأضافت: «ماذا كان يريد؟»

فجاء ردُّه لا مباليًا بإتقان: «كانت مجرد زيارة شخصية. إنه يحبُّ زيارتي للتحدث معي بين الحين والآخر. وتحدَّث عن أوردين أيضًا. أقنعتُه أننا إن لم نُحقق مع أوردين نجاحًا في غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة، فستكون مهمته أن يلتقيَ به ليرى ما يمكنه القيام به.»

فقالت: «أوه، لكن هذا سيئ للغاية!» وأردفت: «أنت تعرف شعور ذلك المسكين إزاء موقفه. سيكره ببساطة الاضطرارَ إلى إخبار جوليان — أقصد السيد أوردين — بأنه على صلة بـ...»

«بماذا يا آنسة آبواي؟»

«بأي شيء له طبيعة المؤامرة. السيد أوردين لن يفهمَ بالطبع. كيف له أن يفهم؟ أعتقد أنه كان من القسوة إقحامُ الأسقف في الأمر من الأساس.»

قال فين: «لا شيء من شأنه أن يُساعد القضية يكون قاسيًا. ماذا ستحتسين يا آنسة آبواي؟ ستحصلين على بعض الشمبانيا، أليس كذلك؟»

صاحت به ولكنها كانت مبتسمةً: «يا لها من فكرة مريعة!» وأردفت: «تخيلوا قائدًا عُماليًّا كبيرًا يقترح شيئًا كهذا! لا، سآخُذ بعض النبيذ الفرنسي الخفيف، شكرًا لك.»

مرَّر فين الطلبَ إلى النادل وهو محبط بعضَ الشيء.

وقال: «لا أشربُ أيَّ شيءٍ في العادة، لكن بدت لي تلك مناسبة من نوعٍ ما.»

«ألدَيك بعض الأخبار إذن؟»

«على الإطلاق. أقصدُ تناول العشاء معك.»

رفعَت كاثرين حاجبَيها.

وتمتمَت قائلةً: «أوه، أهذا ما قصدتَه؟» وأردفت: «إنها مجرد مسألة روتينية ليس إلا. ظننتُ أن لديك بعضَ الأخبار أو الأعمال.»

فقال في نبرة توسُّل: «أليس من الممكن يا آنسة آبواي أن يكون لنا بعضُ الاهتمامات خارج نطاق عملنا؟»

فأجابت في غطرسةٍ فاقت قدرته على استيعابها: «لا أظن ذلك.»

فألحَّ قائلًا: «ما من سبب يمنعنا من ذلك.»

فاقترحت قائلة: «ينبغي أن تُخبرني بميولك. هل أنت عاشق للأوبرا الكبرى على سبيل المثال؟ أنا أعشقها. أوبرا «بارسيفال» ... أوبرا «الخاتم»؟»

فأقرَّ قائلًا: «لا أعرفُ الكثيرَ عن الموسيقى. أختي التي كانت تعيش معي تعزف البيانو.»

أدركَته كاثرين بقولها: «لنبتعد عن الموسيقى إذن. ماذا عن الكتب؟ لكنني أتذكَّر أنك أخبرتَني ذات مرة أنك لم تقرأ أيَّ شيءٍ باستثناء الروايات البوليسية، وأنك لا تهتم بالشعر. الرياضة؟ أحب لعبة التنس كثيرًا وأجيد لعب الجولف إلى حدٍّ ما.»

قال فين في فخر: «لم أُضيِّع لحظة واحدة من حياتي في اللَّعب.»

هزَّت كاثرين كتفيها في عدم اكتراث.

«حسنًا، كما ترى، هذا يجعل كلًّا منا على مسافة كبيرة من الآخَر خارج إطار عملنا، أليس كذلك؟»

أجابها فين: «حتى لو كنتُ مستعدًّا للاعتراف بذلك، وأنا لستُ مستعدًّا، فمن المؤكَّد أن عملنا نفسه كفيلٌ بأن يُعوِّض كل الأشياء الأخرى.»

اعترفت كاثرين قائلة: «أنت محقٌّ تمامًا. ما من شيءٍ آخر يستحق أن نُفكِّر فيه، أو نتحدَّث بشأنه. أخبرني، كان لديك اجتماع داخلي للمجلس عصرَ اليوم، فهل تقرَّر أيُّ شيءٍ بخصوص مسألة القيادة؟»

تنهَّد فين تنهيدة خفيفة.

وقال: «إنْ كان ثمة قضية كبيرة في العالم تحظى باحتمال مواجهة الفشل التام بفِعل الغيرة الخسيسة الحمقاء، فهي قضيتُنا.»

صاحت كاثرين: «سيد فين!»

قال فين مؤكِّدًا: «أعني ذلك حقًّا. كما تعرفين، لا بد من انتخاب رئيسٍ هذا الأسبوع، وبالطبع سيتمتع ذلك الرئيس بقوة أكبر مما تمتع بها أيٌّ من أباطرة الماضي أو ملوك الحاضر. سيقوم ذلك القائدُ بإنهاء الحرب. سيجلب السلامَ إلى العالم. إنه منصبٌ استثنائي يا آنسة آبواي.»

قالت كاثرين مؤيِّدة إياه: «إنه كذلك بالفعل.»

استطرد فين قائلًا وهو يميل عبر الطاولة متجاهلًا عشاءه لبرهة: «لكن هل تُصدِّقين، هل تصدقين يا آنسة آبواي أنَّ من بين العشرين ممثلًا الذين اختِيروا من النقابات المهنية المهيمنة على الصناعات الرئيسة لبريطانيا العظمى، لا يوجد ولو شخصًا واحدًا فقط لا يعتبر نفسه مؤهَّلًا لهذا المنصب.»

وجدَت كاثرين نفسها تضحك فجأة، فيما نظر لها فين في ذهول.

قالت معتذرةً: «لا يمكنني أن أمنع نفسي من الضحك. أرجو أن تغفر لي ذلك. لا تظنَّ ذلك استخفافًا مني بحديثك. ليس الأمر هكذا إطلاقًا. لكنَّ عبثيةَ الأمر غلبتني للحظة.

لقد قابلتُ بعضهم كما تعلم؛ السيد كروس من نورث آمبرلاند، والسيد إيفانز من ساوث ويلز ...»

قاطعها فين بشيء من الحماسة: «إيفانز هو أحد أسوَئِهم. إنه رجل لم يرتدِ ياقةً إلا في السنوات القليلة المنصرمة من حياته، وتهرَّب من الالتحاق بالمدرسة الداخلية لأنه كان صبيًّا عاملًا في المناجم، ولا يعرف حتى أسماء بلدان أوروبا، لكنه ما زال يؤمن بأنه مرشَّح محتمَل. وكروس أيضًا! إنه يستحمُّ حين يأتي إلى لندن، لكنه يخلد للنوم بثيابه التي يرتديها كما هي.»

قالت كاثرين: «إنه فصيحُ اللسان للغاية!»

صاحَ فين ساخرًا: «فصيحُ اللسان!» وأردفَ: «ربما، لكن مَن الذي يستطيع أن يفهمه؟ إنه يتحدث بلغة نورث آمبرلاند البذيئة. إن ما هم في حاجة إليه في القائد الذي سينتخبونه هذا الأسبوعَ يا آنسة آبواي هو رجلٌ يتمتع بقدر من الثقافة وحُسن المظهر. تذكَّري أنه سيضطلعُ بأعظمِ مهمة اضطلع بها إنسانٌ يومًا. لا بد أن يكون على قدرٍ من الشخصية، بل عليه، في رأيي، أن يتمتَّع بالشخصية والهَيبة لكي يحفظَ المنصب.»

قالت وهي تُفكِّر: «هناك السيد مايلز فورلي. إنه رجلٌ متعلِّم، أليس كذلك؟»

أوضحَ فين في حماسة: «إنه غير ملائم لهذا السبب بالتحديد. إنه لا يُمثل قطاعًا كبيرًا من الكادحين. في الواقع، ما هو إلا عضو شرفي في المجلس نظرًا إلى خدماته الخارجية التي يُقدِّمها، مثلكِ أنتِ والأسقف.»

قالت كاثرين في تأمُّل: «أذكر أنني قبل عدة ليالٍ فقط حللتُ ضيفةً في منزل ريفي مملوك للورد مالتينبي، وهو بالمناسبة والِد السيد أوردين. كان رئيس الوزراء هناك ووزير آخر أيضًا. وقد تحدَّثا عن حزب العمال وما يشهده من خلوٍّ منصب الرئيس. وبالطبع لم يكن لديهم أدنى فكرة عن المجلس الكبير الذي جرى تشكيله سرًّا بالفعل، لكنهم كانوا مُجمِعين على ضرورة وجود رئيس قوي. وأبدى شخصان التعليقَ نفسه وبنبرة التخوف نفسِها تقريبًا: «لو أعلنَ بول فيسك عن نفسه، فستُحَل المشكلة»!»

صادقَ فين على كلامها في فتور.

ثم ذكَّرَها قائلًا: «لكن في النهاية، الكاتِب الماهِر لا يتحوَّل دائمًا إلى خطيبٍ مفوَّه، ولا يتمتع دائمًا بالشخصية والتميُّز المطلوبَين في هذه الحالة. كما أنه سيكون غريبًا بيننا؛ أقصدُ على الصعيد الشخصي.»

قالت كاثرين معترضةً: «ليس بالمعنى الأشملِ للكلمة. إنَّ بول فيسك أكثرُ من مجرد رجل عادي يمتهن الكتابة. فوجدانه متناغمٌ مع ما يكتبه. تلك الكلمات التي يكتبها ليست

مجرد كلمات بليغة. إنَّ بها شيئًا يتجاوز مجرد صياغة الكلمات والعبارات ... بها سِمة تفهُّم ممتزجٌ بالتعاطُف وترقى لدرجة العبقرية.»

راحَ رفيقُها يُداعب شاربه برهة.

وأقرَّ قائلًا: «إنَّ فيسك ناجحٌ تمامًا في هذا المجال، لكن مسألة القيادة، فيما يتعلق به، لا تدخل في نطاق السياسة العَملية. آنسة آبواي، لقد اقترحَ واحدٌ أو اثنان من الممثلين الأكثرِ تأثيرًا، كما اقترحت أيضًا أعداد كبيرة من الرسائل والبرقيات التي انهالت علينا خلال الأيام القليلة الماضية، ضرورة انتخابي لِشَغل هذا المنصب الشاغر.»

صاحت مشدوهةً بعضَ الشيء: «أنت؟»

فسألها بنبرةٍ خفيفة من المشاكسة في حديثه: «هل ترَين شخصًا أنسب؟» واستطردَ قائلًا: «لقد رأيتنا جميعًا معًا. لا أقصدُ بحديثي هذا الإطراء على نفسي، لكن فيما يتعلَّق بأمور التعليم وخدمة القضية والدراية بأصول الخطابة، وأعداد أولئك الذين أُمثِّلهم ...»

قاطعَته قائلة: «أجل، أجل! أفهم. لا أرى شيئًا يمنع انتخابك يا سيد فين بالنظر إلى ممثلي حزب العمال العشرين فقط، لكنني تخيَّلت، بطريقةٍ ما، أنَّ شخصًا من الخارج، كالأسقف على سبيل المثال ...»

قال فين: «هذا غير وارد تمامًا. سيفقد الناسُ إيمانهم بالأمر برُمَّته في لحظة. ينبغي للشخص الذي سيتحدى رئيس الوزراء أن يحظى بالتفويض المباشر من الشعب.»

بعد قليلٍ فرَغا من عَشائهما. ونظر فين في إعجاب إلى العلبة الذهبية الملَكية التي أشعلَت منها كاثرين واحدة من سجائرها الصغيرة. وأشعل هو سيجارة أمريكية.

ثم أسرَّ إليها وهو يميل نحوها: «كنتُ أريد أن أقترح عليكِ الذَّهاب إلى المسرح الليلة آنسة آبواي، في الواقع، كنت أبحثُ عن شراء تذاكرَ لمقاعد الشُّرفة في مسرح جايتي. لكن طرأ أمرٌ آخر. ثَمة مهمة صغيرة علينا القيامُ بها.»

قالت كاثرين مُكررة: «مهمة؟»

أخرج فين ورقة مطوية من جيبه ومرَّرها إليها عبر الطاولة. وراحت كاثرين تقرؤها بشيء من العبوس.

ثم صاحت قائلة: «إنه أمرٌ يُخوِّل لحامله تفتيشَ شقة جوليان أوردين!» وأردفت: «لا نريد أن نفتش في تلك الشقة، أليس كذلك؟ ثم ما سُلطتنا لذلك؟»

أجابها وهو ينقر بسبَّابته الباهتة على التوقيع الموجود في أسفل الورقة: «السلطة الأفضل.»

تفحَّصَته كاثرين في عبوس مَشوبٍ بالشك.

وسألته: «لكن كيف تحصَّلت على هذا؟»

ابتسمَ لها فين في ترفُّع.

وأجابَ صراحة: «بطلبه. وبيني وبينك يا آنسة آبواي، ليس هناك الكثير مما يمكننا طلبُه ويمكنهم رفضه الآن.»

فقالت مذكِّرةً إياه: «لكن الشرطة فتَّشت بالفعل مسكنَ السيد أوردين.»

«من المعروف عن الشرطة أنهم يُغفلون الأشياء. بالطبع، ما آمُل به هو أن أجد بين أوراق السيد أوردين دلالةً أو إشارة على المكان الذي أودعُ فيه وثيقتنا.»

قالت كاثرين محتجَّة: «لكن لا علاقة لي بهذا الأمر. لا يروق لي أن أتورَّط في مثل تلك الأمور.»

فألحَّ عليها قائلًا: «لكنني أرغب منكِ بشكلٍ خاص أن تُرافقيني في ذلك. أنتِ الوحيدة التي رأت الرسائل. ولذا سيكون من الأفضل إن قمنا بالتفتيش معًا.»

عبسَ وجهُ كاثرين قليلًا، لكنها لم تُبدِ مزيدًا من الاعتراض. غير أنها أبدت اعتراضًا قويًّا حين حاول فين أن يتأبَّط ذراعها حين همَّ بمغادرة المكان، وانسحبت إلى زاوية السيارة الأجرة بمجرد أن استقلَّاها.

وقالت: «ينبغي أن تستميحَ لي العذر في تحيزاتي يا سيد فين، ونشأتي الأجنبية، ربما ... لكنني أكره أن يمسسَني أحد.»

فقال محتجًّا: «أوه، بربك!» واستطردَ: «لا داعي لكل هذا التحفظ.»

ثم حاول أن يُمسِك يدها، وهي المحاولة التي أحبطَتها باقتدار.

وأصرَّت في جدية قائلة: «مثل هذه الأمور لا تروق لي حقًّا. إنني أتجنَّبها حتى وأنا بين أصدقائي.»

تساءل: «أوَلست بصديق؟»

فأقرَّت قائلة: «أنت بالطبع صديقٌ فيما يتعلق بعملنا. أما خارج نطاق العمل، فلا أعتقد أن هناك الكثيرَ يمكن أن نقوله بعضنا لبعض.»

فقال معترضًا بلهجة حادةٍ بعضَ الشيء: «لمَ لا؟ إننا متقاربان في عملنا وأهدافنا بقدرِ ما يمكن لأي اثنين أن يكونا.» وتابعَ بعد تردد لحظي ونظرة سريعةٍ للمكان من حوله قائلًا: «ربما ينبغي لي أن أفضي إليكِ فيما يتعلَّق بمكانتي الشخصية.»

قالت في سخرية طفيفة لكنها بلا جدوى: «لستُ أرحِّب بأي شيء من هذا القبيل.»

استطرد قائلًا: «أنتِ تعرفينني بالطبع باعتباري فقط المديرَ السابق لشركةٍ لتجارة الأخشاب والممثلَ المنتخَب الحاليَّ لتحالف النقابات المهنية لتجارة الخشب وبناء السفن المهنية.» ثم تسللَت نبرةُ انتصار غريبة إلى صوته وهو يقول: «ما لا تعرفينه هو أنني رجلٌ ثري.»

رفَعَت كاثرين حاجبيها.

وعلَّقَت قائلة: «كنت أظن أنَّ كل قادتنا العماليِّين مثل الحواريين؛ لا يُفكرون في مثل هذه الأشياء.»

اعترضَ قائلًا: «لا بد أن يترصَّد المرءُ الفرصَ الكبرى دائمًا يا آنسة آبواي، وإلا فكيف ستكون الأحوال حين يُفكِّر المرء في الزواج على سبيل المثال؟»

سألته كاثرين بصراحة: «من أين جاءت أموالُك؟»

كان الغرض من سؤالها ببساطةٍ هو توجيهه بعيدًا عن الحديث في موضوعٍ منفِّر. لكن شعوره بالإحراج أعطاها فرصةً للتفكير فيما هو آتٍ.

فعهِد إليها بنبرة حماسية قائلًا: «كنتُ أدَّخر المالَ طوال حياتي. وتركَ لي أحدُ أعمامي قليلًا من المال. ومؤخَّرًا كنتُ أضارب في البورصة، وحقَّقت نجاحًا في ذلك. لا أريدُ الحديث في هذا الأمر. إنما أردتُ فقط أن تعرفي أن بإمكاني أن أبدوَ بشكل مغاير تمامًا إن شئتُ، وأن زوجتي لن تُضطر إلى العيش في إحدى الضواحي.»

فجاءه ردُّها باردًا: «أنا حقًّا لا أرى كيف يعنيني هذا على الإطلاق.»

سألها قائلًا: «أنتِ تُطلِقين على نفسكِ اشتراكية، أليس كذلك يا آنسة آبواي؟ ألا تعترفين بحقيقة أنكِ من الطبقة الأرستقراطية وأنني رجل عصاميٌّ وعلى قدم المساواة معكِ؟»

أجابَته قائلة: «لا يعنيني أصلُ المرء في شيء، ينبغي أن تعرف أن تلك هي مبادئي، لكن يتصادف في بعض الأحيان أن يُسبغ الأصلُ والبيئة على المرء ميولًا من المستحيل تجاهلُها. أرجوك دعنا لا نَخُض في هذا الحديث أكثرَ من ذلك يا سيد فين. لقد حظينا بعشاء لطيف للغاية، وأشكرُك على ذلك، وها نحن عند شقة السيد أوردين.»

ساعدَها رفيقها في الخروج في شيء من الاستياء، ثم استقلَّا المصعد إلى الطابق الخامس. فتح لهما البابَ خادمُ جوليان. عرفَ الرجلُ كاثرين وحيَّاها في احترام. وقدَّم فين الإذنَ الذي بحوزته، فقبله الرجل من دون تعليق منه.

سألته كاثرين: «ألم تأتِ أخبارٌ عن سيدك بعد؟»

كان ردُّه يحمل شيئًا من الحزن والكدر إذ قال: «إطلاقًا يا سيدتي. أخشى أن مكروهًا أصابه. فلم يكن من نوعية الرجال الذين يرحلون بهذا الشكل دون ترك خبر خلفهم هكذا.»

فقالت بنبرةٍ مبتهجة: «لكن ينبغي ألا نفقد الأمل. من المؤكَّد أن أشياءَ رائعةً ستحدث وسيعود سيدك إلى المنزل غدًا أو بعد غدٍ وسيُقدِّم تفسيرًا لغيابه.»

أجابها الرجل وهو يتراجع نحو الباب: «سأُسرُّ كثيرًا لرؤيته يا سيدتي. إن كان بوُسعي تقديم أي مساعدة لكما، فيمكنكما أن تقرعا لي الجرس.»

وانصرف الخادم مغلقًا الباب خلفه. جالت كاثرين بنظرها في أرجاء الحجرة التي أُدخِلا إليها مقطِّبةً جبينها بعض الشيء. كانت حجرة جلوس ذات طابع رجالي بالأساس، لكنها كانت مفروشة جيدًا وبذوق رفيع، وذُهلت كاثرين من أعداد الكتب والكتيبات ونسخ جريدة «ريفيو» التي اكتظت بها الجدران وكل مساحة متاحة. كان المكتب لا يزال مفتوحًا، وكان هناك آلة كاتبة على منضدة خاصة، وكومة من الأوراق المخطوطة باليد.

تمتمت كاثرين قائلة: «لماذا كان السيد أوردين في حاجة إلى آلة كاتبة بحق السماء؟! كنت أظن أنَّ العمل الصحافي يُمارَس عامةً بداخل مكاتب الجرائد؛ ذلك النوع من الصحافة التي كان يمارسها.»

قال فين وهو يُلقي نظرة سريعة حوله: «شقة صغيرة جميلة، أليس كذلك؟» وأردفَ قائلًا: «أراه مكانًا صغيرًا مريحًا.»

تسبَّب شيءٌ ما في تعبير وجه الرجل بينما كان يتقدَّم نحوها في عودة البرودة إلى أسلوبها ونبرة صوتها.

وقالت: «إنها شقة لطيفة، لكنني لست واثقة تمامًا من أن وجودي هنا يروقُ لي، ومهمتنا هذه لا تروق لي بالطبع. فلا يبدو معقولًا أن نجدَ الرسائل هنا إن كانت الشرطة قد أجرت تفتيشًا بالفعل.»

فذكَّرها قائلًا: «الشرطة لا تعرف ما تبحث عنه. لكننا نعرف.»

كان السيد فين يبدو على قدرٍ قليل من الكِياسة. فقد سحبَ كرسيًّا نحو المكتب وبدأ البحث وسط كومة من الأوراق، مُدْليًا بتعليقات سريعة في أثناء ذلك.

«همم! يبدو أن صديقنا كان يهوى جمع الكتب القديمة. أعتقد أن بائعي الكتب المستعمَلة وجدوا فيه هدفًا لهم. أحدهم هنا يشكره على قرض أعطاه إياه. وهذه فاتورة خياط ملابس. يا إلهي، آنسة آبواي، استمعي إلى هذا! «بِذلة واحدة أربعة عشر جنيهًا!»

تلك هي الطريقة التي يُبدد بها هؤلاء الذين لا يفقهون شيئًا أموالهم.» ثم أضاف وهو يلتفتُ سريعًا في كرسيه نحوها قائلًا: «الملابس التي أرتديها كلَّفتني أربع جنيهات وخمسة عشر شلنًا، وأكاد أجزم أن ملابسه ليست بأفضلَ من ملابسي.»

قطَّبَت كاثرين جبينها في نفاد صبر.

«لم نأتِ إلى هنا يا سيد فين من أجل مناقشة فاتورة خياطة ملابس السيد أوردين، صحيح؟ لا أرى أي غايةٍ من التفتيش في مراسلاته بهذا الشكل. ما يجب أن تبحث عنه هو مجموعةٌ من الرسائل ملفوفة في قطعة من المشمَّع الرفيع الأصفر، ومكتوب عليها من الخارج بحبر أسود «رقم ١٧».»

فقال فين موضحًا: «أوه، ربما دسَّها في أي مكان. إضافةً إلى ذلك، ثمة احتمالٌ دائمًا أن يُعطينا أحدُ خطاباته دليلًا على المكان الذي خبَّأ فيه الرسائل. تعالَي واجلسي إلى جانبي، هلا تجلسين يا آنسة آبواي؟ هيا!»

ردَّت قائلة: «أُفضِّل الوقوف، شكرًا لك. يبدو أنك تجد في مهمتك الحاليَّة ما يُرضي ميولك. أنا أمقتُ هذا!»

قال فين بحماس: «لا أفكِّر أبدًا في مشاعري حين تكون هناك مهمةٌ عليَّ القيام بها. لكنني أتمنى أن تكوني وَدودةً أكثرَ بعضَ الشيء يا آنسة آبواي. دعيني أسحب ذلك الكرسيَّ لكِ بجانبي. أودُّ أن تكوني قريبةً مني. كما تعرفين، لقد ظللتُ أعزبَ سنواتٍ طويلة.» ثم أردفَ في إعجاب: «لكنَّ مكانًا صغيرًا ومريحًا كهذا يجعلني أُفكِّر في أشياء. لست ضد الزواج فقط لو كان الرجل محظوظًا بما يكفي ليحظى بالفتاة المناسبة، وعلى الرغم من أن المفكِّرين التقدميِّين مثلي ومثلكِ وثلَّة من الآخرين ينظرون إلى الأمور بطريقة مختلفة، فإنني ما كنتُ لأُمانع كثيرًا فيه هذه الأيام أيًّا كانت الطريقة»، وأسرَّ لها خافضًا صوته بعض الشيء وواضعًا يده على ذراعها: «إن تمكنتِ من اتخاذ قرار ...»

انتزعت ذراعَها بعيدًا عنه، ولم يتمكَّن هذه المرةَ حتى من أن يُخطئَ الغضبَ الذي كان يستعرُ في عينيها.

وصاحت به قائلة: «سيد فين، لماذا أجدُ صعوبة كبيرةً هكذا في جعلِك تفهم؟ إنني أمقتُ مثل هذه الحرية التي تسمح بها لنفسك. أما بالنسبة إلى بقية ما تتحدَّث عنه، فإنني مخطوبة بالفعل.»

قال فين متجهمًا بعضَ الشيء: «يبدو في ذلك شيءٌ من الرجعية. بالطبع لم أتوقَّع ...»

قاطعَته قائلةً: «لا يُهمني ما تتوقعه. من فضلك أكمِل بحثك، إن كنت تعتزمُ القيام بأي بحث من الأساس. إنَّ بذاءة الأمر برُمته تُزعجني، ولا أعتقد أبدًا أن الرسائل هنا.»

قال مذكرًّا إياها في تجهُّم: «لم يكن الأمر مسئوليةَ أوردين.»

أجابته: «إذن لا بد أنه أرسلَها إلى مكانٍ ما كي تكون في مأمن. فقد أعطيتُه سببًا بالفعل ليأتي على فعل ذلك.»

قال فين موضحًا في حدةٍ تامة: «إن كان قد فعل، فقد يكون هناك بين مراسلاته ما قد يُشير إلى المكان الذي أرسلها إليه. وإن كانت هذه المهمةُ لا تروق لكِ، ولن تُليني جانبَكِ، فمن الأفضل أن تجلسي على ذلك الكرسي الوثير وتنتظري ريثما أنتهي.»

جلسَت كاثرين تُراقبه بعينَين غاضبتَين وقد ملأتها مشاعرُ الانزعاج والتعاسة والإهانة. بدَت وكأنها انتقلت في غضون ساعاتٍ قليلةٍ من عالم الأفكار الصافية الرائعة إلى عالمٍ من الأفعال التافهة الحقيرة. لم تغفل عن فعلٍ واحد من أفعال رفيقها. فقد راحت ترقبه وهو يفحص دعوة دوقية بتقديرٍ لم يستطع إخفاءه، ورأته وهو يقرأ خطابًا من دون تردد شعرت أنه كان خطابًا من والدته. ثم:

كان التغيير الذي طرأ على الرجل مذهلًا للغاية؛ إذ صاح مغمغمًا في تعجب، وكان تعجبه طبيعيًّا تمامًا حتى إن الألفاظ النابية لم تكن مزعجة. بدَت عيناه وكأنها ستخرجُ من رأسه، وكانت شفتاه ممطوطتين خلف أسنانه. عقَدَت المفاجأة الصادمة التي لا تُوصَف لسانه، وكأنه صار أصمَّ وأخرسَ، بينما كان يُحدِّق في نصف ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة. اندهشت كاثرين نفسها من مظهره الذي تحوَّل تمامًا، وتعذَّر عليها أن تجد كلماتٍ مناسبة لتلك اللحظة. ثم حدث تغييرٌ غريب على محيَّاه. فقد اقتربَ حاجباه بعضهما من بعض، ولوى شفتَيه في خبث. ثم دسَّ الورقة تحت كومة أخرى من الأوراق والتفتَ برأسه تجاهها. التقت أعينهما. وكان في عينيه شيءٌ أشبه بالخوف.

صاحت به لاهثة: «ما هذا الذي وجدتَه؟»

أجابها: «لا شيء، لا شيء ذا أهمية.»

نهضَت ببطءٍ على قدميها واتجهت نحوه.

وقالت مذكِّرة إياه: «أنا شريكتُك في هذا الأمر البغيض. أرِني تلك الورقة التي أخفيتَها للتو.»

وضعَ فين يده على غطاء المكتب، لكنها أمسكَت به وأبقته مفتوحًا.

وقالت بنبرة صارمة: «أُصرُّ على رؤيتها.»

التفتَ فين وواجهها. كانت في عينيه نظرةٌ غير سارة تمامًا.

وصرَّح قائلًا: «وأنا أقول إنكِ لن ترَيها.»

سادَ صمتٌ ثقيل للحظة. بدا كلٌّ منهما يُقيِّم قوة الآخر. ومن بين الاثنين، كانت كاثرين الأكثرَ هدوءًا وتماسكًا. كان وجه فين لا يزال شاحبًا وغاضبًا. كانت شفتاه ترتعشان، وبدا مهزوزًا ومتوترًا. وأتى على محاولةٍ يائسة لإصلاح العلاقة بينهما وإعادتها طبيعية.

فقال: «اسمعي يا آنسة آبواي، لسنا في حاجة إلى العراك بشأن هذا. تلك الورقة التي وجدتُها لها أهمية خاصة لي شخصيًّا. وأريد أن أفكِّر فيها قبل أن أقول أي شيء حيالها لأي مخلوق في العالم.»

قالت متمسكةً برأيها: «يمكنك التشاور معي. فأهدافنا واحدة. ونحن هنا من أجل الغرض نفسِه.»

قال معترضًا: «ليس تمامًا. لقد أحضرتكِ هنا كمساعدة لي.»

«حقًّا؟»

فصاح قائلًا: «حسنًا، إليكِ الحقيقة إذن!» وأردف: «لقد أحضرتُكِ هنا لكي أنفردَ بكِ؛ لأنني كنت آمُل أن أجدكِ أرقَّ جانبًا بعضَ الشيء.»

سألته كاثرين برقة وعذوبة: «أخشى أنك خاب ظنك، أليس كذلك؟»

أجابها بمدلول بغيض في نبرته: «بلى، لكننا لم نخرج من هنا بعد.»

فقالت مؤكِّدة: «لا يمكنك أن تُخيفني. أنت بالطبع رجل — بشكلٍ ما — وأنا امرأة، لكنني لا أظن أنك ستجد لك أفضلية عني إذا ما آلَت الأمورُ إلى العنف. لكننا نَحيد عن محور حديثنا. إنني أطالب بالمساواة معك في حق الاطِّلاع على أي شيء قد تكتشفُه في أوراق السيد أوردين. بل ربما أطالب بالأسبقية في الاطلاع عليه إن شئتُ ذلك.»

ردَّ فين وقد اكتسى وجهه بتقطيبة بغيضة: «حقًّا؟» وأردف: «إن السيد جوليان أوردين صديقٌ خاص لكِ، أليس كذلك؟»

قالت كاثرين: «في الواقع، نحن مخطوبان تمهيدًا للزواج. لم تكن خِطبةً جادة. فقد أعلن هو ذلك في شهامةٍ بالغة من جانبه؛ لكي يُنقذني من عواقب محاولةٍ خَرْقاء للغاية من جانبي للحصول على الرسائل. لكن هكذا صار الأمر. كل فرد في أسرته في الوقت الراهن يعتقد أننا مخطوبان وأنني قد أتيتُ إلى لندن من أجل لقاء سفيرنا.»

قال فين ساخرًا: «إن كنتما مخطوبَين، فلمَ لم يُخبرك بالمزيد من أسراره؟»

فكرَّرَت كاثرين كلمته في شيء من السخرية: «أسرار!» واستطردت: «لا أظن أن لديه أيَّ أسرار. أظنُّ أن بالإمكان التحريَ عن تفاصيل حياته اليومية دون أدنى شعور بالخوف.»

«ظنُّكِ في غير محله إذن.»

«يا له من أمر مثير! أنت تُثير فضولي. وهل يجب أن تستمرَّ في الإمساك بمعصمي بهذا الشكل؟»

«إذن دعيني أغلق هذا المكتب.»

«لا!»

«لمَ لا؟»

«أريد أن أطَّلع على تلك الأوراق.»

وبحركة سريعة حظي فين بأفضليةٍ لحظية وأغلقَ المكتب. غير أن المفتاح سقط على السجاد بفِعل الاهتزاز، وحصلت كاثرين عليه. وبعدها قفزت بخفَّة مبتعدةً عنه وضغطت على الجرس.

سألها: «تبًّا لك، ماذا أنتِ فاعلةٌ الآن؟»

أجابته: «سترى. لا تقترب، وإلا فستجد أن بإمكاني أن أكون مزعجة.»

هزَّ فين كتفَيه في لا مبالاة وانتظر. والتفتت تجاه الخادم الذي سرعان ما ظهر.

وقالت: «روبرت، هلا تُجري مكالمة هاتفية من أجلي؟»

أجابها الرجل: «بكل تأكيد يا سيدتي.»

«اتصل بالرقم ١٨٨٤ في ويستمنستر. قل إنك تتحدث من طرف الآنسة آبواي، واطلب من السيد فورلي أو السيد كروس أو أيًّا مَن كان موجودًا أن يأتيَ في الحال إلى هذا العنوان.»

قاطعها فين: «أنصِتي لي، لا طائلَ من ذلك.»

فقالت في إصرار: «هَلا تفعل كما طلبتُ منك فضلًا يا روبرت؟»

انحنى الرجل وغادر الغرفة. وعاد فين متجهمًا إلى المكتب.

ثم أذعن قائلًا: «حسنٌ إذن، أُعلن استسلامي. أعطيني المفتاح، وسأريكِ الخطاب.»

«هل ستفي بكلمتك؟»

فقال مطمئنًا إياها: «سأفعل.»

مدَّت يدها مناولةً إياه المفتاح. فأخذه وفتح المكتب، وبحث بين كومة الأوراق الصغيرة، وسحب نصف الورقة وأعطاها إياها.

ثم قال: «هاكِ»، ثم أضاف في تأكيدٍ بغيض: «رغم أنني مندهشٌ من أن السيد جوليان أوردين قد أخفى عنكِ سرًّا كهذا لو كنتِ مخطوبةً له حقًّا.»

تجاهلَته كاثرين وشرعت تقرأُ الرسالة، ونظرت نظرة خاطفة في البداية إلى العنوان في أعلى الورقة. كان الخطاب من جريدة «ذا بريتيش ريفيو» ويعود تاريخها إلى بضعة أيام مضت:

عزيزي أوردين

أعتقد أن من الأفضل أن أُعلمك — إن كنت لم ترَ ذلك بنفسك — أن هناك مكافأةً قدرها ١٠٠ جنيه عرضها أحدُهم بغرض معرفة اسم مؤلف مقالات «بول فيسك». إن سرية هُويتك محفوظة على نحوٍ ممتاز حتى الآن، لكنني أجد نفسي مرغمًا على تحذيرك بأن الإفصاح عنها قد بات وشيكًا. خُذ بنصيحتي وتقبَّلْها بطيبِ نَفْس. لقد رسَّختَ نفسك بصورةٍ لا يمكن زعزعتها لدرجة أنَّ قيمة أعمالك لن يُنتقَص منها شيءٌ باكتشاف حقيقة أنك نفسك لا تنتمي إلى الطبقة التي كنت تكتب عنها على هذا النحو الرائع.

أتمنى أن أراك في غضون بضعة أيام.

المخلص
إم. هالكن

حتى بعد أن أنهت كاثرين قراءة الخطاب، كانت لا تزال تُحدِّق به. ثم قرأت مرةً أخرى الجملة الحاسمة: «إن سرية هُويتك محفوظةٌ على نحوٍ ممتاز حتى الآن.» ثم انفجرت فجأةً في نوبة شبهِ هستيرية من الضحك.

وصاحت قائلة: «إذن هذه هي الصحافة المأجورة!» وأضافت: «جوليان أوردين هو بول فيسك!»

قال فين: «لا أعجبُ من كونكِ متفاجئة. أربعة عشر جنيهًا من أجل بِذلة يرتديها، ويظنُّ أنه يفهم الرجل العامل!»

أدارت كاثرين رأسَها في بطءٍ نحوه ونظرت إليه. كان في عينيها لهيبُ غضب غريب ومكبوت. فقالت: «أنت شخصٌ أحمق للغاية. إن والديك كانا يُديران متجرًا صغيرًا أو شيئًا من هذا القبيل، حسَبما أظن، وقد ترعرعتَ في مدرسةٍ داخلية بينما ترعرع جوليان أوردين في إيتون وأكسفورد، لكنه يفهمُ وأنت لا تفهم. أتعلم، إن للقلب والتعاطف والرغبة في التفاهم أهميةً كبيرة. وأشكُّ أن هذه الأشياء موجودة حقًّا حيث أتيتَ.»

أمسكَ فين بقبعته. كان وجهه في غاية الشحوب. وكان صوته مرتعشًا من شدة الغضب.

ثم صاحَ في غضبٍ قائلًا: «هذا خطؤنا نحن أننا سمحنا لشخصٍ ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية بأن يكون له مكانٌ في مجالسنا! سنُطهرها من هؤلاء المساعدين أمثالكِ ومن الأصدقاء المزيَّفين أمثال جوليان أوردين قبل أن نتقدم خطوةً واحدة.»

كرَّرَت كاثرين قائلة: «أنت شخص أحمق للغاية. لكن مهلًا. لماذا كل هذا الغموض؟ لماذا حاولتَ أن تُخفي عني ذلك الخطاب؟»

قال فين بنبرة الواعظ: «تصوَّرتُ أنه سيكون في مصلحة قضيتنا أن تظل سرية هُوية «بول فيسك» محفوظة.»

قالت كاثرين ساخرة: «هُراء!» واستطردت تقول: «كنتَ خائفًا منه. يا لنا من حَمْقى! سنُخبره بالحقيقة كلِّها. سنخبره بمخططنا العظيم. سنُخبره بما كنا نعمل لأجله، طيلة هذه الأشهر العديدة. سيخبره الأسقف، وأنا وأنت، ومايلز فورلي، وكروس. سيسمع كلَّ شيء عن الأمر. إنه معنا! لا بد أن يكون معنا! ينبغي أن تضمَّه إلى المجلس. ها قد حُلَّت معضلتك الكبرى.» ثم أردفت في حماسة متزايدة: «ما من عاملٍ في البلاد لن يحتشدَ تحت لواء «بول فيسك». ها هو قائدكم. هو مَن سيُطلق إنذاركم الأخير.»

قال فين ملقيًا فجأةً بقبعته على الأرض وقد تحرَّك نحوها في غضب جمٍّ: «فلتحلَّ عليَّ اللعنة إن حدثَ ذلك!» وأضافَ: «أنا ...»

ثم فُتِح الباب. وكان روبرت واقفًا عنده.

بدأ حديثه يقول: «الرسالة يا سيدتي»، ثم توقَّف فجأةً. فاجتازت كاثرين الغرفة متجهة نحوه.

وقالت: «أظن أني وجدتُ الطريقة التي سيعود بها سيدُك إليك يا روبرت. هَلا تصحبني إلى الطابق السفلي، وتُحضِر لي سيارة أجرة من فضلك؟»

«بكلِّ تأكيد يا سيدتي!»

ثم نظرَت خلفها من عند عتبة الباب.

وقالت: «سأُهاتف ويستمنستر في غضون دقائق قليلة يا سيد فين. وآمُل أن أصل في الوقت المناسب لأمنعَ الآخرين من المجيء. ربما من الأفضل أن تنتظر، حال كانوا قد تحركوا بالفعل.»

لم يُجبها فين. وكان العالم بالنسبة إلى كاثرين قد أصبحَ رائعًا لدرجة أن وجوده لم يَعُد له أهمية تقريبًا.

الفصل الثاني عشر

وجدَت كاثرين، برغم شعورها بالإثارة، سعادةً غامرة في حماسة الأسقفِّ المشوبة بالذهول التي تلقَّى بها تلك الأخبارَ المذهلة. وجدَته وحيدًا في ذلك المنزل الكبير الكئيب الذي كان يسكنه عادةً في لندن، وكان يعمل في مكتبة كئيبة دخلَت إليها كاثرين بعد تأخيرٍ طال بضعَ دقائق. وبطبيعة الحال، تلقى الأسقفُّ في البداية الأنباءَ التي جاءت بها بارتيابٍ شبهِ تام. غير أن سعادةً حقيقية غمَرَته لدى تيقنه منها.

قال الأسقف: «دائمًا ما كنتُ معجبًا بجوليان. دائمًا ما كنت أعتقد أنه ذو كفاءة وبراعة.» ثم أردف بابتسامة صغيرة غريبة: «لكن يا إلهي، يا لها من ضربة للإيرل!»

ضحكَت كاثرين.

«أتتذكَّر تلك الأمسيةَ التي تحدَّثنا فيها جميعًا عن مسألة حزب العمال؟ يبدو أن الزمن قد تحرَّك بسرعةٍ كبيرة مؤخرًا، لكن لم يكد يمضي أسبوعٌ واحد على ذلك.»

أقرَّ الأسقف قائلًا: «أتذكَّر.» وأضافَ بحرارة: «وأنا الآن يا آنستي العزيزة أشعر أن بإمكاني أن أقدِّم لكِ أصدق تهانئي.»

أشاحت بوجهها بعضَ الشيء.

وقالت متوسِّلة: «لا تفعل. كنت ستعرف عما قريب وبأي حال من الأحوال أنَّ خِطبتي لجوليان أوردين كانت مجردَ ادعاء.»

«ادِّعاء؟»

شرَحَت له كاثرين قائلة: «كنت يائسةً، كنتُ أشعر بأن عليَّ أن أستعيدَ تلك الرسائل بأي ثمن. فذهبتُ إلى جَناحه في محاولةٍ لسرقتها. ثم وجدوني عنده. فاختلق أمرَ خِطبتنا لكي يُساعدني في الخروج من ذلك المأزق.»

فقال الأسقف مذكِّرًا إياها: «لكنكما توجَّهتما إلى لندن معًا في اليوم التالي لذلك؟»

تنهَّدَت قائلة: «كان الأمر كله جزءًا من اللعبة. لا بد أنه ظنَّ أنني حمقاءُ للغاية! لكنني سعيدة. أنا سعيدة جدًّا لدرجة الجنون. سعيدة من أجل قضيتنا، وسعيدةٌ من أجلنا جميعًا. لدينا عضوٌ جديد عظيم أيها الأسقف، أعظم عضو يمكن أن نحصل عليه. فكِّر في الأمر! حين يعرف الحقيقة، لن يكون هناك المزيدُ من المشكلات. سيُسلِّمنا الرسائل. حينها سنعرفُ أين نقف. سنعرف في الحال ما إن كان لدينا الجُرأة على توجيه الضربة الكبرى.»

أخبرها الأسقف قائلًا: «كنتُ في ويستمنستر عصرَ اليوم. يبدو أن آلية مجلس العمال برُمَّتها قد اكتملت. عشرون رجلًا يتحكَّمون في إنجلترا الصناعية. إنهم يتمتَّعون بقوةٍ مطلقة. وهم في انتظار الكلمة المفقودة فقط.» ثم أردف الأسقف: «وتخيُّلي أنه كان من المقرر لي أن أقابل جوليان غدًا. كان من المقرر أن أستخدم قدراتي في الإقناع.»

صاحت كاثرين: «لكن لا بد أن ننطلق الليلة.» وأردفت: «ما من سببٍ يدفعنا إلى تضييع لحظةٍ واحدة.»

فوافقها الأسقفُ في سرور: «سيسعدني ذلك كثيرًا. أين هو؟»

فجأةً بدَا على قسمات كاثرين الحزنُ وخيبة الأمل.

وأقرَّت قائلة: «ليس لديَّ أدنى فكرة. ألا تعرف أين هو؟»

هزَّ الأسقف رأسه نافيًا.

وأجابها: «كانوا سيُرسلون معي أحدهم غدًا، لكن فين يعرف مكانه على أي حال. يمكننا أن نذهب إليه.»

لوَت كاثرين وجهها.

وقالت بنبرة متثاقلة: «السيد فين لا يروقُ لي. لقد اختلفتُ معه. لكن هذا لا يهم. ربما من الأفضل أن نذهب إلى مقر المجلس. سنجد بعض الأعضاء هناك، وربما نجد فين. ثَمة سيارة أجرة تنتظرني.»

وبعد قليل انطلقا بالسيارة إلى ويستمنستر. كان معظم الطابق الأرضي من تلك البناية الكبيرة، الذي كان يعجُّ في ذلك الوقت بمكاتب رجال حزب العمال المختلفين، مظلمًا، لكن في الطابق العلوي كانت توجد غرفة كبيرة تُستخدَم كنادٍ ومطعم وتُستخدَم أيضًا للاجتماعات غير الرسمية. تواجد ستة أو سبعة من بين الثلاثة والعشرين عُضوًا، لكن فين لم يكن بينهم. وكان كروس — وهو رجل ضخم البنية مفتول العضلات من نورث آمبر — يلعب مباراة شِطْرنج مع فورلي. وكان الآخرون يكتبون خطابات. وقد التفتوا جميعًا لدى دخول كاثرين عليهم. فمدَّت يدَيها نحوهم في ابتهاج.

وصاحت قائلة: «لديَّ أخبار رائعة يا أصدقائي!» وأردفت: «أضيئوا حجرةَ اجتماعات اللجنة. أريد أن أتحَّدث إليكم.»

تبعها أولئك الذين كانوا مخوَّلين بذلك إلى الغرفة الموجودة في الجانب المقابل من الممر. وظلَّ سكرتير أو اثنان وزائرٌ في الخارج. جلسَ ستة منهم إلى طاولة طويلة، وهم فينياس كروس، عامل المناجم من نورث آمبر، ومايلز فورلي، وديفيد ساندز الذي يُمثِّل مليون عامل من عمال المصانع في يوركشاير، وتوماس إيفانز، وهو عامل مناجم من ساوث ويلز.

قال فورلي: «وصلَتنا رسالةٌ منكِ يا آنسة آبواي قبل قليل. لكنكِ ألغيتِها في اللحظة نفسِها التي كنا فيها على وشك التحرك إليكِ.»

صادقَت كاثرين على حديثه قائلة: «أجل!» وأردفت: «آسفة. لقد حدَّثتُكم من شقة جوليان أوردين. هناك أتينا على ذلك الاكتشاف العظيم. أنصِتوا لي جميعًا! لقد اكتشفتُ هُوية بول فيسك.»

سادت جلَبةٌ طفيفة في الغرفة. كان اهتمام الرجال لا يُوصَف. فقد كان بول فيسك هو موضعَ إعجابهم، ومُعلِّمهم، وقائدهم الملهم بلا منازع. كان هو مَن عبَّر بأحرفٍ من نار عن الحقائق التي لم يكن لها سبيلٌ لحسن التعبير في أذهان هؤلاء الرجال. كان بول فيسك هو مَن أشعلَ فيهم جذوةَ الحماسة تجاه القضية التي كانت في البداية أقربَ إلى مسألة حياة أو موت لهم. كان بول فيسك هو مَن شكَّل أذهانهم ورسَّخ للحُجج العظيمة في عقولهم، وسلَّحَهم جميعًا بالمنطق القوي. أربعة رجال عاديُّون تمامًا، من أطياف شتى، رجال مخلصون، ينتمون جميعًا إلى طبقة العامة، لم يخلُ أحدٌ منهم من العيوب، إلا أنهم جميعًا اجتمعوا على غاية واحدة، وتُحرِّكُهم جميعًا جذوةُ الحماسة نفسُها. جلسوا متكئين على الطاولة مقتربين نحوها. ربما بدَت وكأنها تُدير طاولة قمار وهم المقامرون الذين ألقَوا بآخرِ ما لديهم من أموال الرِّهان على الطاولة.

قالت كاثرين: «وجدتُ في شقة جوليان أوردين خِطابًا من مُحرِّر جريدة «ذا بريتيش ريفيو»، يُحذره فيه أن هُويته لن تظل سريَّة طويلًا، وأنه قبل مضيِّ عدة أسابيع سيكون العالم قد عرَف بأنه هو بول فيسك. ها هو الخطاب.»

ثم مرَّرَته لهم. راحوا يتدارَسونه واحدًا تلو الآخر. وكانوا جميعًا مذهولين بعضَ الشيء.

صاحَ فورلي في دهشة تامة: «جوليان!» وأردفَ: «لقد كان يتندَّر عليَّ لأكثرَ من عام!»

قال كروس لاهثًا: «إنه ابن إيرل!»

صرَّحَت كاثرين قائلة: «لا تُلقوا بالًا لذلك. إنه مُوالٍ للديمقراطية وصادقٌ في ولائه حتى النخاع. وسيُخبركم الأسقفُ بذلك. فقد عرَفه طيلة حياته. فكِّروا! ليس لدى جوليان أوردين أيُّ غرض يُحققه ولا مصلحة شخصية يبتغيها. ليس لديه شيءٌ ليفوز به، ويمكن أن يخسر كلَّ شيء. إن لم يكن جوليان مخلصًا، وإن كانت كلماته تلك التي نتذكرها جميعًا لم تنبع من قلبه، فأين يمكن أن نجد المبرِّر أو السببَ وراء ما يُدافع عنه؟ فكِّروا فيما يعنيه هذا لنا!»

سألَ ساندز في غموض: «أليس هو الرجلَ الذي يتولون أمره بالأسفل هناك؟»

أجابته كاثرين: «لا أعرف أين يقعُ «بالأسفل هناك» ذلك، لكنه في حوزتكم في مكانٍ ما. لقد غادر شقته يوم الخميس الماضي في نحو السادسة والربع ليأخذَ تلك الرسائل إلى وزارة الخارجية، أو ليقوم بترتيبات تسليمها هناك. لكنه لم يصل أبدًا إلى وزارة الخارجية. ولم يُسمَع عنه شيءٌ منذ ذلك الحين. بعضكم يعرف أين هو. وأنا والأسقف نريد أن نذهب ونلتقيَ به في الحال.»

صرَّح كروس قائلًا: «فين وبرايت يعرفان مكانه. إنها مهمة برايت.»

تساءلَت كاثرين في نفاد صبر: «ولِمَ يضطلعُ برايت بهذه المهمة؟»

قطَّب كروس جبينه وزمَّ شفتيه، في حيلة غريبة كان يستخدمها حين يكون منزعجًا.

قال موضحًا: «يُمثِّل برايت العمالَ في المصانع الكيميائية. يقولون إنه لا يوجد سمٌّ سواءٌ كان سائلًا أو صُلبًا أو غازيًّا إلا ويعرف برايت كلَّ شيء عنه. ذلك الرجل يجعلني أقشعرُّ حين يقترب مني. وهو وفين يُديران فرع الخدمة السرية للمجلس.»

فاقترحَت كاثرين قائلة: «إن كان يعرف مكان السيد أوردين، أفلا يُمكننا أن نُرسل له في الحال؟»

تطوَّع فورلي وقال: «سأذهب أنا.»

ثم عاد في غضون دقائق قليلة.

وصرَّح قائلًا: «فين وبرايت بالخارج، وغرفهما مُوصَدة. وقد اتصلت بمنزل فين، لكنه لم يعد إلى منزله.»

ضربَت كاثرين الأرضَ بقدميها. كان نفاد الصبر يكاد يُفقدها صوابها.

صاحت كاثرين: «ألا يبدو الأمر مريعًا للغاية!» وأردفَت: «فقط لو تمكنَّا من الوصول إلى جوليان أوردين الليلة، لو تمكَّنتُ أنا والأسقف من التحدُّث إليه خمسَ دقائق، فسيُمكننا حينها أن نحصل على تلك الرسالة التي طال انتظارنا لها.»

هنا فُتِح الباب فجأة. ودخلَ فين وتلقى عاصفةً صغيرة من الترحاب. كان يرتدي معطفًا طويلًا خشنًا أسودَ اللون فوق ثيابه المسائية وقبعةً مستديرة سوداء. تقدَّم فين نحو الطاولة في شيء من الخُيَلاء المعروف به.

قال الأسقفُّ: «سيد فين، كنا ننتظر وصولك بفارغ الصبر. أخبِرْنا من فضلك أين يُمكننا أن نجد السيد جوليان أوردين.»

أطلقَ فين ضحكة ساخرة صغيرة تكاد تكون مكبوتة.

وقال: «لو سألتموني قبل ساعة، لأخبرتكم بأن تُحاولوا البحث في فيلا آيرس، أو على طريق أكاسيا، أو في هامبستيد. لقد جئتُ من هناك لتوي.»

سأله الأسقفُّ: «أرأيتَه؟»

أجابه فين: «هذا بالضبط ما لم أفعل.»

سألته كاثرين: «ولمَ لا؟»

«لأنه لم يكن هناك، منذ الثالثة بعد ظهر اليوم.»

سأله فورلي في لهفة: «هل نقلتموه؟»

أجابَ في تجهُّم: «هو مَن نقل نفسه. لقد هربَ.»

وأثناء الصمت القصير الذي سادَ من أثر الصدمة عقب تصريح فين، تقدَّم ببطءٍ إلى داخل الغرفة. في أثناء النقاش غيرِ الرسمي الذي دار بينهم، تصادفَ أن كان الكرسيُّ عند رأس الطاولة فارغًا. تردَّد الوافدُ الجديد ثانيةً واحدة، ثم خلعَ عنه قبعته ووضعَها على الأرض بجانبه وغاصَ في الكرسي الشاغر. ورمقَ كاثرين بنظرة متحدِّيةٍ بعضَ الشيء. بدا وكأنه يعرف تمامًا من أين سيأتيه الاعتراضُ على كلماته.

قالت كاثرين وهي تُحاول جاهدةً السيطرة على مشاعرها: «أنت تُخبرنا أن جوليان أوردين، الذي نعرف الآن أنه «بول فيسك»، قد هربَ. ماذا تقصد بذلك؟»

أجابها فين: «لا يُمكنني توضيحُ ما قلتُ أكثرَ من ذلك، لكنني سأحاول. لقد كان جميع أعضاء المجلس يُقدِّر الخطر الذي نواجهه جراء سقوط تلك الرسائل في الأيادي الخاطئة. فأسندتُ صلاحيات تقديرية لفرع الخدمة السرية الصغير الذي نُشرف عليه أنا وبرايت. ومُنِع أوردين من الوصول إلى وزارة الخارجية وجرى إعجازه عن ذلك لبعض الوقت. كان التفكير في الإجراء التالي المزمَع اتخاذُه يتوقَّف على سلوكه. وقعَ خطأٌ بسيط في معالجة برايت للمسألة. وبفضل ذلك بالطبع هرَبَ أوردين من المكان الآمن الذي وُضِع فيه. وهو الآن حرٌّ طليق، وعلى الأرجح ستطلع وزارة الخارجية في وقتٍ ما الليلة، على الرسائل التي بحوزته وعلى ما حدث له.»

علَّق كروس متجهمًا: «مما يُعطيهم الفرصة لتوجيه الضربة الأولى؛ بإصدار مذكِّرات ضبط بحقِّنا جميعًا بتهمة الخيانة العظمى، صحيح؟»

قال فين مؤكِّدًا: «لستُ أخشى ذلك، إنْ تصرَّفْنا بتعقُّل. أقترحُ أن نستبقَ الأمر، ويذهب أحدُنا غدًا لمقابلة رئيس الوزراء ويعرض الموقف برُمته أمامه.»

قال فورلي: «من دون الشروط.»

أوضحَ فين قائلًا: «أعرفُ ماذا ستكون هذه الشروط بالتحديد. المشكلة بالطبع تكمن في أن الرسائل المفقودةَ تحمل توقيعَ الضامنين الثلاثة. لا شكَّ أن الرسائل ستكون بين أيدي وزارة الخارجية بحلول الغد. ويمكن لرئيس الوزراء أن يتحقق من تصريحاتنا. سنوجِّه الإنذار الأخير في وقت مبكِّر قليلًا عما كنا ننتوي، لكننا سنكون قد وجَّهنا ضربتنا أولًا وسنكون مستعدين.»

مالَ الأسقفُّ في مكانه إلى الأمام قليلًا.

وقال في رجاء: «اعذرني إن قاطعتُك لحظة. أنت تقول إن جوليان أوردين قد هرب. أنفهمُ من ذلك أنه حر طليق وأنه في حالة صحية طبيعية؟»

تردَّد فين لحظة.

وقال: «ليس لديَّ ما يدفعني لاعتقاد عكس ذلك.»

فقال الأسقف في إصرار: «لكن، هل من الممكن ألا يكونَ جوليان أوردين في حالةٍ تسمح له بتقديم تلك الرسائل إلى وزارة الخارجية في الوقت الراهن؟ إن كان الوضع كذلك، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن رئيس الوزراء سيعتبرُ زيارتك له مجردَ خدعة. بالتأكيد، لن تكون لديك حُجةٌ قوية بما يكفي تدفعه إلى اقتراح الهدنة. لن يتحرك أيُّ شخص بِناءً على كلمتك وحدها. سيرغب في رؤية هذه الاقتراحات الرائعة مكتوبة، حتى لو كان مقتنعًا بعدالة حججك.»

سادت همهماتُ موافَقة طفيفة. فمالَ فين إلى الأمام.

وبعد ترددٍ لحظي صرَّحَ قائلًا: «أنت تقودني إلى كشفِ المزيد من الأمور، ومن ضمنها أمرٌ ربما كان عليَّ أن أكشفَ عنه بالفعل. لقد رتَّبتُ لإعداد نسخةٍ بديلة لتلك الرسائل وإرسالها. وقد شرَعتُ في ذلك الأمر بمجرد أن سمعنا من الآنسة آبواي هنا عن الواقعة المؤسفة التي حدثَت لها. ومن المتوقع أن تصلنا تلك النسخة البديلة في أي لحظة.»

قال الأسقف: «إذن، أقترحُ أن نُؤجلَ قرارنا إلى حينِ تسلُّم تلك الأوراق. تذكَّر أن المجلس حتى هذه اللحظة لم يُلزموا أنفسهم باتخاذ أي إجراء حتى يُطالعوا تلك الوثيقة ويدرسوها.»

اعترضَ فين قائلًا: «وبافتراض أن تم اقتيادُنا جميعًا غدًا في الثامنة صباحًا إلى برج لندن! قد تُصاب قضيتنا بالشلل، وسيذهب كلُّ ما عملنا لأجله كلَّ تلك الشهور سُدًى، وقد تستمرُّ تلك الحرب الدموية اللعينة حتى يرى ساستُنا أنَّ من الملائم أن يعقدوا سلامًا شفهيًّا.»

قال الأسقفُّ: «أنا أعرفُ السيدَ ستينسون جيدًا، وأنا مقتنعٌ تمامًا أنه رجلٌ أعقل مما يحلم بأخذِ مثل هذه الخطوة كما تقترحون. إنه يعرفُ ما يَعنيه حزبُ العمال على أي حال، إن كان الآخرون في وزارته ليس لديهم بُعد نظر كافٍ.»

قال فورلي: «أتفقُ مع الأسقف لأسباب عديدة.»

وقال كروس: «وأنا كذلك.»

كان الجوُّ العام للاجتماع واضحًا. ظهرت أسنان فين القبيحةُ للحظة، ثم أغلق فمه بسرعة بعضَ الشيء.

وقال: «هذا اجتماعٌ غير رسمي تمامًا. سأستدعي المجلس ليجتمع غدًا عند الظهيرة.»

قال الأسقفُّ: «أعتقد أن بإمكاننا أن ننام ليلتنا في أسِرَّتنا دون أن نخشى أيَّ إزعاج أو اعتداء، وإن كنتُ سأفاتح السيد ستينسون في الأمر إن كانت رغبة المجتمعين كذلك.»

فصرَّح فين في وقاحة: «أنت عضو شرفي بالمجلس. ولا نريد تدخلًا من أحد. هذه حركة عمالية قومية وعالمية.»

قال الأسقفُّ في هدوء: «أنا عضو في الحزب العُمَّالي المسيحي.»

فتدخَّل كروس: «وعضو مُشرِّف في هذا المجلس التنفيذي. أنت طليقُ اللسان الليلة بعضَ الشيء يا فين.»

فجاء ردُّه فظًّا: «إنما أفكِّر في أمر مَن أُمثِّلهم. إنهم كادحون ويرغبون من الكادحين أن يُبرهِّنوا على قوتهم. هم لا يريدون مساعدة من الكنيسة.» ثم أضافَ: «بل سأذهبُ إلى حدِّ القول إنهم لا يريدون مساعدة من الكتابات والمطبوعات الصحافية. إنها مهمتُهم وحدهم. هم مَن بدَءُوها، ويريدون أن يُنهوها.»

قال فورلي: «سيُظهِر اجتماع الغد مدى صحة وجهات نظرك. أرى أنَّ وضعي، ووضع الأسقف كذلك، كأعضاء في حزب العمال، يتساوى معك. وسأذهبُ إلى حَدِّ القول إنَّ روح مجلسنا تتجسَّد في تعاليم بول فيسك وكتاباته، أو جوليان أوردين كما نعرفه.»

نهضَ فين واقفًا. وكان يرتعش من الانفعال.

ثم أعلنَ في فظاظة: «رُفِعَ هذا الاجتماع غير الرسمي.»

لم يتحرَّك كروس نفسه.

وقال: «رُفِعَ أم لم يُرفع يا سيد فين، ولكن لستَ في موقعٍ يسمح لك بقول ذلك. لقد فرضتَ نفسك على ذلك الكرسي، لكن هذا لا يجعلك رئيسًا، لا الآن ولا في أي وقتٍ آخر.»

ابتلعَ فين بصعوبة الكلماتِ التي بدَت تتراقص على شفتَيه. فقد كان يعرف أعداءَه، لكن كان هناك آخرون ربما لا يزالون على الحياد.

وقال: «إن كنتُ قد اضطلعت بأكثرَ مما كان ينبغي أن أضطلعَ به، فأنا آسفٌ على ذلك. كنت أحمل لكم أخبارًا وكنت أتعجَّل توصيلها لكم. ثم تبعَ بعد ذلك ما تبع.»

نهضت المجموعة الصغيرة واتجهوا نحو الباب، وهم يتبادلون تعليقاتٍ هامسةً بشأن الأخبار التي جاءت بها كاثرين. ثم اجتازت كاثرين الغرفة إلى الجانب الآخر وواجهت فين.

قالت: «لا يزال هناك شيءٌ ينبغي قوله حول تلك الأخبار.»

لم تكن محاولة فين لتحرِّي الصراحة التامة مقنعة إلا بقدرٍ ما.

إذ قال: «لا يوجد أدنى سببٍ لإخفاء أي شيء يتعلَّق بجوليان أوردين عن أي عضو بالمجلس يرغب في معرفة المعلومات. إن تبعتِني إلى غرفتي الخاصة يا آنسة آبواي، وأنت يا فورلي، فسيسرُّني أن أُطلعكما على وضعنا الحالي.» ثم أضافَ وهو يلتفتُ إلى الأسقف: «وإنْ رافقكم الأسقفُ، فسيشرفني ذلك.»

لم يردَّ فورلي، لكنه همسَ بشيءٍ في أذن كاثرين، ثم أخذَ قبعتَه وغادرَ الغرفة. غير أن الاثنين الآخرَين نفَّذا كلام فين وتبعَاه إلى غرفته، وجلسَا في الكراسي التي وضعَها لهما، وانتظرا بينما كان فين يتحدَّث عبر هاتف إلى الشبكة الخاصة التي كانت موجودة في البناية نفسها.

وصرَّح قائلًا عندما وضعَ السمَّاعة: «يقولون لي إنَّ برايت عادَ لتوِّه وإنه في طريقه إلى هنا الآن.»

فارتعشت كاثرين.

«أهو ذلك الشخص البشع المظهر الذي حضرَ آخِر اجتماع للمجلس؟»

صدَّق فين على حديثها قائلًا: «على الأرجح هو ذلك الشخص الذي تقصدينه. إنه لا يُبدي اهتمامًا كبيرًا بعمَلنا التنفيذي، لكنه أحد ألمع العلماء في هذا الجيل أو في أي جيلٍ آخر. لقد خصَّصَت له الحكومة بالفعل ثلاثةَ معامل ليُجري فيها تجارِبَه، وكل غاز تقريبًا يُستخدَم على الجبهة يكون مُعدًّا وفقًا لتركيبته.»

تمتم الأسقف قائلًا: «سيدُ الأهوال.»

وهمست كاثرين بصوتٍ خفيض: «ومظهره يدلُّ على ذلك.»

جاءَ صوتُ طرقٍ على الباب بعد لحظة أو اثنتين، ودخلَ برايت. كان طوله يفوق المتوسط بعضَ الشيء، وقوامه طويل ونحيل، وبه تحدُّب واضح، وكان شعره مجعدًا أسود اللون وذا ملمس خشِن. وكان رأسُه، الذي كان مشرئبًّا للأمام بعضَ الشيء، ربما بسبب قِصَر نظره، طويلًا وجبهته صغيرة، وبشَرتُه ذات لون يقترب من الأخضر الزيتوني. كان يرتدي نظارة كبيرة تُشوِّه مظهره، وكان له شفتان بارزتان كشفاه السود. حيَّا كاثرين والأسقُف في غير انتباه، وبدا أن لديه شكوى ضد فين.

إذ سأله في نفاد صبر: «ماذا تريد يا نيكولاس؟» وأضافَ: «لديَّ تجاربُ أقوم بها في البلاد وليس لديَّ وقتٌ لأُضيِّعه.»

قال فين: «لقد ألغى المجلس تعليماته بشأن جوليان أوردين، ويتوقون للمثول أمامهم في الحال. وكما تعرف، نحن نقف عاجزين حيال هذا الأمر في الوقت الراهن. فهَلا تشرح للآنسة آبواي والأسقفِّ ما حدث؟»

أجابَ برايت بنبرةٍ حادة: «يبدو ذلك مضيعة للوقت، لكن إليكم القصة. غادرَ جوليان أوردين شقته في السادسة والربع من مساء يوم الخميس. وسار حتى شارع سانت جيمس وانعطفَ إلى الحديقة العامة. وبمجرد أنْ عبَر البابَ الجانبي لقصر مارلبورو، أُصيبَ بإغماءٍ مفاجئ.»

قاطعه الأسقف: «والذي أعتقد أنك كنتَ مسئولًا عنه.»

فأجابَ برايت: «أنا أو نائبي. لا يهمُّ ذلك. كان جوليان أوردين محظوظًا بما يكفي ليتمكَّن من الإشارة إلى سيارة أجرة اقتادته إلى منزلي في هامبستيد. وقد أمضى المدة الفاصلة، حتى الثالثة من عصر هذا اليوم، في معمل صغير ملحَقٍ بالمبنى.»

فتجرَّأ الأسقفُّ وقال: «أعتقد أنها كانت إقامةً جبرية، أليس كذلك؟»

قال برايت بصوته الأجش الخشن مؤكِّدًا: «إقامة جبرية جرى الترتيبُ لها بناءً على تعليماتٍ من المجلس. كان معظم الوقت تحت تأثير نوعٍ جديد من غازٍ مخدِّر كنت أُجري عليه تجارب. لكن لا بد أنني أخطأت في حساباتي الليلة. فبدلًا من أن يظل في حالة إغماءٍ حتى منتصف الليل، استعادَ جوليان أوردين وعيه أثناء غيابي ويبدو أنه غادرَ المكان.»

سألته كاثرين: «إذن فليس لديك أيُّ فكرة عن مكانه الآن؟»

قال برايت مؤكِّدًا: «ولا أدنى فكرة. كلُّ ما أعرفه أنه غادر المكانَ من دون قبعته أو قفازاته أو عصا المشي. فيما عدا ذلك، كان يرتدي ملابسه كاملة، ولا شك أنه كان معه الكثيرُ من المال في جيبه.»

سأله الأسقفُّ: «هل من المرجَح أن يُعاود الشعور بالتوعُّك الذي كان يُعاني منه جراء ما فعلته به؟»

أجابَ باقتضاب: «لن يحدث ذلك. ربما يجد ذاكرته قد تأثرَت مؤقتًا إلى حدٍّ ما. لكن يُفترَض أن يكون قادرًا على أن يجد طريقه للمنزل. وإنْ حدث عكسُ ذلك، فأعتقدُ أنكم ستسمعون أخبارًا عنه من خلال أقسام الشرطة أو أحد المستشفيات.» ثم أضافَ بعد أن سكتَ لحظة: «لم نفعل شيئًا من المرجَح أن يؤثر على صحته بصورة دائمة ولو بأقلِّ درجة.»

قال فين: «أنتِ الآن على دراية بكل شيءٍ يمكنك الاطلاع عليه يا آنسة آبواي. وأتفقُ معكِ على أن من المستحسَن للغاية العثورَ على السيد أوردين في الحال، وإنْ كان بوسعي اقتراحُ أي شيء يمكن أن يساعد في معرفة مكانه الحاليِّ، فسيسرُّني كثيرًا أن أُقدِّم يدَ العون. على سبيل المثال، أترغبين مني أن أتصل بشقته هاتفيًّا؟»

نهضت كاثرين واقفة.

وقالت: «شكرًا لك سيد فين. لا أظن أننا سنزعجك. فالسيد فورلي يتحرَّى عنه في شقته وفي النوادي التي يتردد عليها.»

فألحَّ في سؤاله بينما كان يفتح لهما الباب: «إذن أنا واثق أنكِ قانعةٌ تمامًا فيما يتعلَّق بصلتي بالأمر، أليس كذلك؟»

أجابته كاثرين وهي تنظر في وجهه: «قانعة تمامًا بأنك أخبرتنا قدرَ ما تُريدنا أن نعرف في الوقت الراهن.»

أغلقَ فين البابَ خلف كاثرين والأسقفِّ واستدار عائدًا إلى داخل الغرفة. وضحكَ منه برايت بصورة مزعجة.

«علاقة حُبٍّ لا تسير على ما يُرام، أليسَ كذلك؟»

ألقى فين بنفسه على الكرسي، وأخرج سيجارة من علبة ورقية وأشعلها.

وغمغم قائلًا: «تبًّا لجوليان أوردين!»

قال صديقه متثائبًا: «لستُ أعترضَ. ما الخطبُ الآن؟»

«ألم تسمَع بالأخبار؟ يبدو أنَّ جوليان أوردين هو ذلك الشخص الذي كان يكتب تلك المقالات عن الاشتراكية وحزب العمال ويُوقِّع عليها باسم «بول فيسك». مجرد ترَّهات مثالية، لكن الأسقف وجماعته بالطبع متحمسون له.»

فأقرَّ برايت وهو يُشعِل لنفسه سيجارة: «قرأتُ بعضًا من كتاباته، وهو جيدٌ في أسلوب تعبيره عن أفكاره، لكنه عتيق الطِّراز. فأنا أبحثُ عن شيءٍ أكثرَ من ذلك قليلًا.»

أمرَه فين متجهِّمًا: «لا تخرج عن الموضوع. الآن وبعد أن عرَفوا مَن يكون جوليان أوردين، يريدون إظهاره. يريدون انتخابه في المجلس وجعله رئيسًا فوقنا جميعًا، ويدَعونه يقطف ثمار المخطط الذي تفتَّقَت عنه أذهاننا.»

«يريدونه رئيسًا؟ هذا أمرٌ مزعج.»

غمغم فين: «مُزعِج لنا.»

قال برايت في تأكيد بطيءٍ وخبيث: «أعتقدُ أنَّ من الأفضل أن ينالوه. أجل، من الأفضل أن ينالوه. سنخلع قبعاتنا ونؤكِّد له أنَّ ما حدث كان خطأً.»

«فاتَ الأوان. لقد أخبرتُ الآنسة آبواي والأسقفَ أنه طليق. وقد أيَّدتَ كلامي.»

دسَّ برايت أصابعَه الطويلة البشعة الكثيرة العُقَد في جيبه وأخرجَ سيجارة مجعَّدة وأشعلها من سيجارة رفيقه.

ثم تساءَل: «حسنًا، ماذا تريد؟»

فقال فين في حزم: «لقد توصَّلتُ إلى استنتاج مفاده أنَّ ارتباط أوردين بقضيتنا ليس في صالحها بأي حال.»

قال برايت وهو يفكِّر: «نحن نتمتع بقدرٍ كبير من النفوذ، لكني يبدو لي أنك تميلُ إلى توسيعه. وما أفهمه أنَّ الآخرين يريدون تسليم جوليان. لا يمكننا معارضتهم.»

فأجابه فين بنبرة ذات مغزًى: «ليس إن كانوا يعرفون.»

اتجه برايت نحو المدفأة واتَّكأ بمرفقه عليه، وراحَ ينظر إلى رفيقه بوجهه الشديد القبح بتركيزٍ وثبات.

وقال: «نيكولاس، لا ألومك على التبارز، لكنني أفضِّل الكلمات الصريحة. لقد استفدتَ جيدًا من وراء هذا الحزب الجديد. أما أنا، فلم أستفد شيئًا. ليس لديك أيُّ هواية سوى ادخار أموالك. أما أنا فلديَّ مواهبُ أخرى. لقد خرَجتُ من آخر تجربتَين لي مفلسًا، برغم الإعانة الحكومية. أنا في حاجة إلى المال قدرَ احتياجكم إلى الخبز. يمكنني العيش دون طعامٍ أو شراب، لكن لا يمكنني أن أعيش من دون الوسائل التي تجعل مختبراتي تستمر في عملها. هل تفهمني؟»

أقرَّ فين بحديثه وهو يرتدي قبعته: «أفهمُك. تعالَ، سأذهبُ معكَ إلى بيرموندسي بالسيارة. وسنتحدَّث في الطريق.»

الفصل الثالث عشر

نهضَ جوليان قليلًا من وضعية الاضطجاع التي كان عليها لدى سماعِه صوتَ فتح الباب. وراحَ يرقُب فين بعينَين غائمتَين تائهتَين فيما كان الأخيرُ يجتاز أرضية السقيفة الخشبية غير المفروشة وخلعَ عنه معطفَه وتقدَّم إلى جوار الأريكة.

أمره الوافِدُ الجديد قائلًا: «اعتدِل في جلستك قليلًا.»

هزَّ جوليان رأسَه رافضًا.

وغمغم قائلًا: «لست أقوى على ذلك. ولو كان لديَّ القوة، لكَسرتُ عنقكَ اللعين!»

نظرَ إليه فين للحظة في صمت.

وقال: «أنت تأخذ هذا الأمرَ على محملٍ سلبي للغاية يا سيد أوردين. أعتقدُ أنَّ من الأفضل لك أن تتخلَّى عن المكابرة. أصدقاؤك قلقون عليك. ولأسبابٍ كثيرة سيكون من الأفضل لك أن تظهر مرة أخرى.»

ردَّ جوليان عابسًا: «وسيقلق أصدقاؤك عليك قليلًا إن خرجتُ من هذا المكان اللعين.»

«أخشى أنك تحملُ في نفسك ضغينة يا سيد أوردين.»

لم يُجبه جوليان. كانت عيناه مثبَّتتَين على الباب. ثم التفتَ عنه وهو يرتجف. كان برايت قد دلفَ إلى السقيفة. كان يحمل في يده قناعَين واقيَين من الغاز. تقدَّم برايت إلى جوار الأريكة، وبعد أن نظرَ إلى جوليان رفعَ يده وراحَ يتحسَّس نبضَه. ثم، وبحركة سريعة، أعطى أحدَ القناعين إلى فين.

وقال ناصحًا إياه: «انتبِه إلى نفسك. سأعطيه ترياقًا.»

ارتدَّ برايت خطوةً للخلف وعدَّل قناعَه، فيما حذا فين حذوَه. ثم أخرج الأولُ من جيبه ما بدا أنه أنبوبٌ صغير به ثقوب في أعلاه. ثم مالَ فوق جوليان وضغطَ على الأنبوب. فاندفعت سحابةٌ صغيرة من سديم خفيف عبر الثقوب؛ وخرجت رائحةٌ عطرية غريبة

بدَت تتسلَّل نحو أقصى أركان الحجرة وتزداد قوةً كلَّ لحظة. وفي أقلَّ من عشر ثوانٍ فتحَ جوليان عينيه. وفي غضون نصف دقيقة كان معتدلًا في جلسته. لمعت عينا جوليان مرةً أخرى، وجرت الدماءُ في وجنتَيه. ثم تحدَّث إليه برايت محذِّرًا.

قال برايت آمِرًا: «اجلس حيث أنت يا سيد أوردين. تذكَّر أن معي الأنبوبَ الآخر في يدي اليُسرى.»

صاحَ جوليان: «أيها الأوغاد الشياطين!»

قال فين بنبرة تأكيد: «السيد برايت ليس كذلك تمامًا. ولا أنا. إنما نحن رجلان نزيهان في موقفٍ عصيب. ليس هناك شيءٌ شخصي في طريقة معاملتنا لك. ولا نكنُّ لك أي عداوة. إنما أنت ببساطة شخص ارتكبَ جريمة سرقة.»

غمغمَ جوليان: «ما يُحيِّرني هو ما تتوقعان أني فاعله بكما إن قُدِّر لي الهرب من براثنكما.»

قال فين في هدوءٍ: «إن تمكنتَ من الهرب، فسترى الأمر بصورة مختلفة. في الواقع، ستجد أنك عاجزٌ عن فعل أي شيء. وستجد قانونًا جديدًا ونظامًا جديدًا سائدًا.»

قال جوليان ساخرًا: «القانون الألماني!»

واصلَ فين حديثه: «أنت تُسيء الحُكم علينا. أنا وبرايت رجلان إنجليزيان وطنيان. ونُشارِك في الوقت الراهن في محاولةٍ يائسة لإنقاذ بلادنا. وأنت مَن تقف في طريقنا.»

قال جوليان: «لم يخطر ببالي قط أنني سأبتسم في هذا المكان، لكنكما بدأتما تُسلياننني. لماذا لا تكونان أكثرَ صراحةً؟ لماذا لا تُثبتان ما تدَّعيان؟ فقد أستجيبُ لكما. أعتقدُ أن طريقتكما في إنقاذ البلاد هي بتسليمها للألمان، صحيح؟»

صرَّح فين: «طريقتُنا في إنقاذ البلاد هي إرساءُ السلام.»

ضحكَ جوليان ساخرًا.

وقال: «لا أعرفُ عنك سوى القليلِ يا سيد فين. لكنني أعرفُ السلام الذي ترغبُ في إرسائه، ذلك النوع الذي سيقترحه أيُّ شخص يُجري مراسلاتٍ سرية مع ألمانيا.»

كان فين قد رفعَ عنه قناعه لحظة، ثم أعاده إلى مكانه في بطء.

وقال: «سيد أوردين، لن نُضيِّع عليكَ المزيد من الكلام. أنت متحيِّز إلى حَدٍّ ميئوس منه ولا يُطاق. هل ستُخبرنا بالمكان الذي خبَّأت فيه الرسائلَ التي اعترضتها؟»

فأجابه جوليان: «ألم تسأما من سؤالكما هذا؟ لقد سئمتُ من سماعه. لن أخبركما.»

فقال فين متوسِّلًا: «هلا تدعني أحاول أن أُثبِت لك أنك تُسدي لبلادك خدمة بغيضة باحتفاظك بتلك الرسائل؟»

قال جوليان مؤكِّدًا: «لو تحدَّثتَ إلى يوم القيامة، فلن أصدق كلمةً مما قلت.»

بدأ فين يقول بنبرة بطيئة وفي عينيه لمعة خبيثة: «في تلك الحالة ...»

قاطعه جوليان: «حسنًا، لأجل الربِّ أنهيا المهمةَ هذه المرة! لقد سئمتُ من لعب دور فأر التجارِب لكما. إن كنتما تريدان قتلي فاقتلاني وأنهيا الأمر.»

كان برايت يعبث بأنبوب آخرَ أخرجه من جيبه.

ثم قال: «من واجبي أن أُحذِّرك يا سيد أوردين أن محتويات هذا الأنبوب الصغير من الغاز، التي ستصلك بلمسةٍ من إصبعي، قد تكون قاتلة ولا شك أنها ستتسبَّب لك بعجز دائم طوال حياتك.»

قال جوليان ساخرًا: «لماذا تُحذِّرني؟» وأضافَ: «أنت تعلمُ جيدًا أنني لا أتمتع بقوةِ هرَّة حتى، وإلا فلحَطَّمت عنقك.»

تابعَ برايت حديثَه في نبرةِ مداهَنة: «لدينا مبررنا لاستخدامنا لهذا الأنبوب؛ لأن نتائجه الأولى ستكون إدخالَك في نوبة هذَيان، نثقُ أنك خلالها ستبوح لنا بالمكان الذي خبَّأتَ فيه تلك الرسائل المسروقة. ونحن نستخدم هذه الوسيلة لصالح بلادنا، ومثل هذه المخاطرة التي ينطوي عليها الأمر قد تقع على رأسك.»

قال جوليان: «أنتما مُرائيان منافقان!» وأضافَ: «جرِّبا حالة الهذيان. فتلك الرسائل في المكان الوحيد الذي لن يمكنكما ولا أيًّا من أتباعكما الوصولُ إليها فيه.»

ذكَّره فين قائلًا: «هذه لحظة فاصلة يا سيد أوردين. أنت في رَيْعان شبابك، وهناك فضيحة ملتصقة بموقفك الحاليِّ لن يمحوَها اختفاؤك الدائم. تذكَّر ...»

هنا توقَّف فين فجأةً. كان هناك صافرةٌ تُدوِّي في زاوية الغرفة. اتجه برايت نحوَ مصدرها، لكن في تلك اللحظة كانت هناك أصواتُ خُطًى مسرعة على الدرج الخشبي بالخارج ثم فُتِحَ الباب بقوة. توقَّفَت كاثرين عند عتبة الباب وقد تقطعَت أنفاسها من السرعة، ثم تقدَّمَت إلى الأمام بصيحة طفيفة.

صاحت كاثرين: «جوليان!»

حدَّق جوليان بها وقد انعقدَ لسانه، ولكن لاحت في عينيه لمعةٌ جديدة. تقدَّمَت كاثرين عبر الغرفة وجثَت على ركبتَيها بجوار الأريكة التي كان جالسًا عليها. تراجَع الرجلان إلى الخلف. ثم انسلَّ فين بينها وبين الباب إلى الخلف. وأزال الرجلان قِناعَيهما، لكنهما أمسكا بهما في وضع الاستعداد.

تابعت كاثرين قائلةً: «أوه، كيف جَرُؤا على ذلك!» وأضافت: «أولئك الوحوش! أخبرني، هل أنت مريض؟»

قال متلعثمًا: «أنا ضعيفٌ كهِرَّة صغيرة. لقد سمَّماني بغازاتهما البغيضة.»

نهضت كاثرين على قدمَيها. ووقفت مواجِهةً الرجلَين، وكانت عيناها تلمعان من شدة الغضب.

ثم قالت في انفعال وغضب: «سيطلب المجلسُ تفسيرًا لذلك يا سيد فين!» وأضافت: «لقد أخبرتَنا قبل ساعة فقط أن السيد أوردين هربَ من هامبستيد.»

أجابها فين: «جرى تسليم جوليان أوردين إلى قسم الخدمة السرية التابع لنا بإجماع أصوات المجلس. ونحن نتمتعُ بمطلق الحرية في التعامل معه على النحو الذي نجده ملائمًا.»

فسألته كاثرين: «وهل تتمتعان بمطلق الحرية في الكذب بشأن مكانه؟» وأردفَت: «لقد تعمَّدتَ إبلاغ المجلس بأنه هرب، لكنني وجدتُك هنا معه في بيرموندسي، والفضلُ في ذلك كلُّه يعود إلى السيد فورلي. ماذا كنتما ستفعلان به حين دخلت؟»

أجابها فين عابسًا: «نُقنعه بإعادة الرسائل إن أمكننا ذلك.»

أجابته كاثرين: «هُراء!» واستطرَدَت: «تعرفان جيدًا أنه صديقنا. ليس عليكما سوى أن تُخبراه بالحقيقة، وحينها تنتهي مهمتُكما معه.»

غمغمَ جوليان: «حسبُك!» وأردفَ: «لا تتخيَّلي أنني أُكنُّ أيَّ تعاطف لشبكتكم الصغيرة من المتآمرين.»

قالت كاثرين مطمئنةً إياه: «هذا فقط لأنك لا تفهم. أنصِت لي، وستسمع الحقيقة الكاملة. سأخبرك بما في داخل تلك الرسائل وبأصحاب التوقيعات التي ستجدها عليها.»

أمسكَ جوليان برسغِها فجأة. وامتلأت عيناه بخوفٍ جديد. كان يراقب الرجلَين اللذين كانا يتهامسان معًا.

صاحَ جوليان محذِّرًا: «كاثرين، انتبهي! هذان الرجلان يبغيان أذيتَنا. ذلك الشيطان برايت يخترع كلَّ يوم غازًا سامًّا جديدًا. انظري إلى فين يُثبِّت قناعه. أسرعي! اخرجي إذا كان بإمكانكِ الخروج!»

لمست يدُ كاثرين صدرها. وهُرِع نحوها برايت، لكنه تأخَّر. فقد رفعت كاثرين صافرةً ذهبية صغيرة إلى فمها وراحَ صوتها يُدوِّي في أرجاء الغرفة. فألقى فين بقناعه ورمقَ برايت بنظرةٍ سريعة. وكان وجهه يشتعل غضبًا.

تساءل: «مَن بالخارج؟»

«الأسقفُ والسيد فورلي. إنَّ ثقتي بكما كبيرةٌ لدرجة أنني لم آمن أن آتي إلى هنا وحدي.»

كان صوت خُطوات الأقدام وهي تقترب مسموعًا بوضوح. هزَّ فين كتفَيه في محاولة يائسةٍ لإبداء عدم الاهتمام.

ثم قال: «لا أعرفُ ماذا يدور بخلَدكِ يا آنسة آبواي. بالكاد يمكنكِ أن تُصدِّقي أنكِ كنتِ في خطر بين أيدينا على أي حال.»

أجابته كاثرين في شراسة: «ما كنتُ لأثقَ بكم قِيدَ أنملة. على أي حال، من الأفضل أن يأتيَ الآخران. قد لا يُصدِّقني السيد أوردين. على الأقل سيُصدِّق الأسقف.»

صاحَ جوليان متسائلًا: «أصدِّق مَن؟»

هنا فُتِحَ الباب. ودخلَ الأسقف ومايلز فورلي يُهرَعان. وتقدَّمَت كاثرين للقائهما.

قالت موضحةً في حالة هستيرية بعضَ الشيء: «اضطررتُ إلى إطلاق الصافرة. فأنا لا أثقُ بأيٍّ من هذين الرجلين. ذلك الشيطان برايت بحوزته غاز سام في أنبوب جيب صغير. وأنا واثقة من أنهما كانا ينويان قتل جوليان.»

التفتَ الوافدان الجديدان إلى الأريكة وتبادلا التحايا مع جوليان في ذهول. وألقى فين بقِناعه على الطاولة وهو يضحك ضحكة مضطربة.

وقال معترضًا: «الآنسة آبواي تميل إلى الميلودراما. الغاز الذي يحوزه برايت في ذلك الأنبوب هو مجرد غاز يتسبَّب في إغماء بسيط ومؤقَّت. ربما نكون قد استخدمناه — وربما لا نزال نستخدمه — لكن إن تمكَّنتما من إقناع السيد أوردين بأن يُعيد الرسائل، فستكون مهمتنا معه قد انتهت. نحن لا نحتجزُه — أو ربما ليفضل أن يقول إننا نُعذِّبه — على سبيل التسلية. لقد أمر المجلس بضرورة انتزاع تلك الأوراق التي تعلمون أمرها منه، ومنحَنا تفويضًا مطلقًا فيما يتعلق بالوسائل التي سنستخدمها في ذلك. فإن تمكَّنتم من إقناعه بإعادة تلك الأوراق سلميًّا، فلتفعلوا. نحن مستعدان للانتظار.»

كان جوليان لا يزال يتناوب التحديق في زائرَيه الآخرَين. وكانت تعبيراتُ الدهشة على وجهه لا تزول.

ثم قال في الأخير: «أيها الأسقف، من فضلك اشرح لي ما يحدث، إلا إذا كنتَ ترغب في أن تراني أُجَن أمامك. لا يمكن أن تكون شريكًا لهذه الخلية من المتآمرين.»

ابتسم الأسقفُ ابتسامةً واهية بعضَ الشيء. ثم وضعَ يده على كتف ابنه بالمعمودية.

وصرَّح قائلًا: «صدِّقْني يا جوليان، لم أكن طرفًا في أمر احتجازك. لكنك إن استمعت إليَّ، فسأخبرك بالسبب الذي يدفعني للاعتقاد بأنَّ من الأفضل لك أن تُعيد تلك الرسائل إلى الآنسة آبواي.»

فتوسَّل له جوليان قائلًا: «أخبِرْ ذلك الوغد بأن يعطيني جرعة أخرى من غازه المنعش. فأنا لا أتحمَّل كل هذه الصدمات.»

التفتَ الأسقفُ إلى برايت مستفهمًا، فمالَ برايت مرة أخرى فوق جوليان وكان الأنبوب في يده. فخرجت سحابة الضباب الصغيرة ثانية، وسادت الرائحةُ النفاذة مرة أخرى. نهضَ جوليان واقفًا ثم جلسَ مرة أخرى.

وقال: «كُلي آذانٌ مصغية.»

بدأ الأسقف حديثه في جدِّية بينما كان يجلس على طرف الأريكة التي كان جوليان راقدًا عليها قائلًا: «أولًا، دعني أحاول أن أُزيل بعضًا من الأفكار الخاطئة التي لديك. الآنسة آبواي ليست جاسوسةً ألمانية بأي معنًى من معاني الكلمة. إنما هي وأنا والسيد مايلز فورلي والسيد فين والسيد برايت ننتمي جميعًا إلى منظَّمةٍ تحالفت من أجل غاية واحدة؛ فنحن عازمون على إنهاء الحرب.»

غمغم جوليان: «دُعاة سلام!»

قال الأسقف معترضًا: «تلك كلمة بلا معنًى؛ لأننا جميعًا في أعماقنا دعاة سلام. ليس منا مَن سيختار الحرب عن عمدٍ بدلًا من السلام. إنما المسألة هنا مسألة الثمن الذي نحن مستعدون لدفعه.»

«لماذا لا تتركون هذا الأمر للحكومة؟»

أجابه الأسقف: «الحكومة هي وكيلٌ عن الشعب. والشعبُ في هذه الحالة، يرغب في التعامل مع الأمر بصفة مباشرة.»

تساءل جوليان: «مرةً أخرى، لماذا؟»

«لأنَّ الحكومة تتألَّف بالكامل من الساسة؛ الساسة الذين تعهَّدوا على أنفسهم، في الكثير والكثير من الخطب، بأشياء كثيرة محددة. ومع ذلك، فسيكون للحكومة فُرصتُها في هذا الأمر.»

سأله جوليان: «اشرح لي لماذا تُجْرون مع ألمانيا اتصالاتٍ سريةً وغيرَ شرعية إن كنتم جماعة وطنية؟»

فأجابَ الأسقف سائلَه مؤكِّدًا: «إن ألمانيا التي نتواصل معها هي ألمانيا التي تُفكِّر في نفس ما نفكِّر فيه.»

قال جوليان: «إذن أنتم تَجْرون وراءَ سراب؛ لأن الألمان الذين يفكِّرون مثلما تفكِّرون يشكِّلون أقليَّة يائسة.»

مَدَّ الأسقفُ سبابته.

وقال: «أفهمُك يا جوليان. إنَّ ذلك الاعتقادَ الذي أبديتَه لتوك هو ذاتُه مبررنا؛ لأنه الاعتقاد السائد في جميع أنحاء البلاد. يمكنني أن أثبت لك أنك مخطئ، ويمكنني أن أثبت ذلك من خلال تلك الرسائل نفسِها المسئولة عن احتجازك هنا.»

قال جوليان في رجاء: «اشرح لي.»

قال الأسقف: «تلك الرسائل تحتوي على شروط السلام التي صاغها الحزبُ الاشتراكي وحزب العمال في ألمانيا.»

قال جوليان ساخرًا: «وهل تساوي تلك الشروط قيمة الورقة المكتوب عليها بالضبط؟»

أكملَ الأسقف مؤكِّدًا بقوة: «ومُصدَّق عليها من قِبل الثلاثة الكبار في ألمانيا، والمرفق توقيعهم مع تلك الوثيقة؛ وهم القيصر والمستشار وهندينبرج.»

صُعِقَ جوليان لدى سماع ذلك.

وتساءل: «هل تعني حقًّا أن تلك التوقيعات مرفقة بمقترحات السلام التي صاغتها الأحزابُ العمالية والاشتراكية في ألمانيا؟»

أجابَ الأسقفُ بثقة: «أعني ذلك حقًّا. وإن كانت الشروط غيرَ متوافقة مع الشروط التي قادونا لتوقعها، أو إنْ كانت التوقيعات غيرَ موجودة، فإنَّ المسألة برُمتها منتهية.»

قال جوليان بعد أن سكتَ برهة: «أنت تُخبرني بأشياءَ مدهشة يا سيدي.»

قال الأسقفُ في إصرار: «إنما أخبرُك بالأشياء التي ستكتشفُ بنفسك أنها الحقيقة. وأتوسَّل إليك يا جوليان ليس فقط من أجل إعادة تلك الرسائل، وإنما أستجدي تعاطفَك ومساعدتك ومشاركتك. يمكنك أن تُخمِّن الآن ما حدث. لقد أُزيحَ الستار عن هُويتك السرية. إنَّ المجلس العُمالي المشكَّل حديثًا والذي ننتمي له جميعًا يتوق ويتلهَّف للترحيب بك.»

فسأل جوليان: «هل وشى بي أحد؟»

هزَّت كاثرين رأسَها نافية.

وقالت موضِّحة: «لقد اكتُشِفت الحقيقة هذا المساءَ عند تفتيش شقتك.»

تساءل جوليان وهو مندهشٌ بعضَ الشيء مما تكشَّف له: «وممَن يتكوَّن ذلك المجلس العُمالي؟»

أجابه الأسقفُ في حماس قائلًا: «إنه يتكوَّن من مجموعة الرجال نفسِها التي تنبَّأتَ بها. انتُخِبَ عشرين عضوًا من أعضائه من النقابات المهنية ويُمثلون الصناعات الكبرى في الإمبراطورية؛ وهناك ثلاثة دخلاء، هم الآنسة آبواي، ومايلز فورلي، وأنا. ولولا نجاحُك

الباهر في إخفاء هويتك يا جوليان، لكنتَ أولَ شخص يلجأ إليه المجلسُ طلبًا للمساعدة. والآن وقد تكشَّفَت الحقيقة، أصبح واجبُك واضحًا. إنَّ مجد إنهاء هذه الحرب سيئول إلى الشعب، وبفضلك أصبح الشعب يُدرك مدى قوته.»

قال جوليان متجهمًا بعضَ الشيء: «موقفي في الوقت الراهن!»

قاطعَته كاثرين: «لا يمكنك أن تلومَ في ذلك أحدًا سوى نفسِك. لو علمنا مَن أنت، أتعتقد أننا كنا سنسمح لأولئك الرجال بأن يُعاملوك بهذه الطريقة؟ أتعتقد أنني ما كنت لأُخبرك بحقيقة تلك الرسائل؟ لكن كل هذا انتهى الآن. بِتَّ الآن تعرف الحقيقة. نحن الخمسة الأعضاء في المجلس المنعقد فعليًّا ليلًا ونهارًا في انتظار ... أنت تعلم ما ننتظره. فلا تذَرْنا معلَّقين في انتظار مساعدتك أكثرَ من هذا. أخبرنا أين نجد تلك الرسالة؟»

مرَّر جوليان يده على جبهته في شيءٍ من الإرهاق.

وقال مُقرًّا: «أنا مشوَّش. لا بد أن أفكِّر. ففي النهاية، أنتم مشاركون في مؤامرة. قد لا تكون حكومة ستينسون هي الأقوى على وجه الأرض، أو أكثرَ الحكومات اقتدارًا وكفاءة، لكن ستينسون نفسه حمل عبءَ هذه الحرب بشجاعة.»

قال الأسقفُ موضحًا: «إن كانت شروط السِّلم المقترَحة تُشبه ما نتوقعه بأي حال، فهي أفضل من أي شيء يمكن للساسة أن يُناقشوه يومًا، حتى بعد سنوات من مزيدٍ من سفك الدماء. أظنُّ أن ستينسون سيُرحب بهذه الشروط، وأن البلاد، على وجه العموم، ستميل إلى قَبولها تمامًا.»

سألَ جوليان: «لنفترض أنكم ترون هذه الشروط معقولة، وأنكم قدَّمتم طلبكم إلى رئيس الوزراء، ورفضَ طلبكم. ماذا سيحدث حينها؟»

هنا تدخَّل فين بأسلوب رجل متطفل استُبعد من المحادثة أطولَ مما ينبغي: «في تلك الحالة، يحين دورنا نحن. بكلمة منا، يتوقف كلُّ منجم فحمٍ في إنجلترا عن العمل، وينطفئ لهيب المواقد والأفران، ويغدو كل مصنعٍ فيها خاويًا. ستظل القطارات على السكك الفرعية، أو في أي مكان يُصادَف أن تكون فيه وقت إصدار بياننا. والأمرُ نفسه مع الحافلات وسيارات الأجرة، وكذلك مترو الأنفاق. لن تُغادر سفينة واحدة أيَّ ميناء في المملكة المتحدة، ولن ترسوَ أي سفينة بها. ثمانٍ وأربعون ساعة على هذا النحو كافيةٌ لإحداث ضرر أفدحَ مما تُحدثه حربٌ أهلية تستمر عامًا كاملًا. ثمانٍ وأربعون ساعةً كفيلةٌ بخضوع رئيس الوزراء لمطالبنا خضوعًا تامًّا. إن قوَّتنا هي أعظمُ قوة شهدها العالم على الإطلاق. وسنستخدمها من أجل أسمى قضية عرَفها العالم؛ قضية السلام.»

قال جوليان: «كان هذا محتومًا بطريقةٍ ما.» وأضافَ قائلًا: «أتذكرُ أيها الأسقف الحديث الذي دار حين كنا في مالتينبي؟»

أذعنَ الأخير قائلًا: «أتذكره جيدًا.»

قال جوليان: «لقد دخلَ الريفُ تحت مظلة العبودية في شهر أغسطس من عام ١٩١٥. قد تكون تلك العبودية في صالحهم، وقد لا تكون كذلك. ولكي أكون صريحًا، أعتقدُ أن الأمر برُمته يتوقفُ على تشكيل مجلسكم. ووجودُك به أيها الأسقف يصبُّ في الصالح إلى حدٍّ كبير.»

قال فين بنبرةٍ حادة: «مجلسُنا في صورته الحاليَّة يتألَّف من رجال انتُخِبوا لمناصبهم به بأصواتِ عدة ملايين من رفاقهم الكادحين.»

أجابَ بنبرة جادَّة رزينة: «ربما كان الشعب حكيمًا في اختياراته، وربما يكونون قد ارتكبوا أخطاء. مثل تلك الأشياء معروفة. بالمناسبة، أعتقد أنَّ احتجازي هنا قد انتهى؟»

صرَّحَت كاثرين: «لقد انتهى بالشكل الذي تقرَّر انتهاؤه به. ولكن الآن وقد بتَّ تعرف كل شيء، هل ستتردد في إعطائنا الرسائل؟»

وافق جوليان قائلًا: «ستحصلين عليها. سأُعيدها إليكِ.»

صاحَ فين في لهفة: «كلما أسرعنا كان ذلك أفضل!» وأضاف: «وأريد أن أُحدثك قليلًا يا سيد أوردين.»

كان جوليان واقفًا بينهم في تلك اللحظة، وقد بدا واهنًا وشاحبًا للغاية تحت الهالة الخافتة للضوء الصادر من المصباح المعلَّق بالسقف. وجاء ردُّه باردًا ومتحفظًا في كلمة واحدة.

«حسنًا؟»

تابعَ فين قائلًا: «أثقُ بأنك ستتفهَّم أنني وبرايت كنا نُنفذ الأوامرَ ليس إلا. كنتَ لنا بمثابة العدو. فقد خنتَ ثقة أحد أعضائنا. وكان توصيل تلك الرسائل سريعًا يعني الخلاصَ لآلاف الأرواح. كان يعني توقف تلك المأساة العالمية المفجِعة. ربما قسَونا عليك، لكننا كنا نتصرف بِناءً على الأوامر.»

رمقَ جوليان يدَ فين التي كان قد مدَّها بعضَ الشيء إليه، لكنه لم يتحرَّك ليُقابلها. واتَّكأ قليلًا على ذراع الأسقف.

وقال متوسِّلًا: «هَلا تُساعدني في الخروج من هذا المكان يا سيدي؟» وأردفَ: «أما بالنسبة إلى فين وذلك الوغد الآخر، فسوف أُرجئ ما لديَّ عنهما إلى وقتٍ لاحق.»

الفصل الرابع عشر

بعد أكثرَ من نصف ساعة بقليل كان جوليان يصعد درجات سُلَّم ناديه في «بال مول» وطلبَ من حارس الردهة الخطابات. ولم يكن باديًا على مظهر جوليان شيءٌ يوحي بمروره بعدة أيامٍ من الإجهاد الشديد عدا أنه كان أكثرَ شحوبًا بقليل من المعتاد ويتَّكئ على عكازه بمزيدٍ من الثقل. وكان هناك نبرةُ فضول مختلطٍ بالدهشة في تحية الحاجب المهذَّبة له.

إذ قال: «كانت هناك تساؤلاتٌ كثيرة عنك في الأيام القليلة الماضية يا سيدي.»

فأجابه جوليان: «اضطُررت إلى السفر خارجَ المدينة فجأة.»

ألقى جوليان نظرةً سريعة على كومة الرسائل الصغيرة، واختار من بينها مظروفًا كبيرًا بعثه إلى نفسِه بخط يده. عادَ جوليان به إلى السيارة الأجرة حيث كانت كاثرين والأسقفُ يجلسان في انتظاره. راحا يُحدِّقان بأعينٍ مبهورة إلى المظروف الذي كان يحمله وقدَّمه لهما في الحال.

قال جوليان وهو يتكئ إلى الخلف: «أترَيان، ما من مكانٍ منيع في العالم مثل نادٍ يتمتَّع بسُمعة حسنة. إنه يتفوَّق على أفضل الخزائن المشفَّرة. وكان الأمر سيتطلب سكوتلاند يارد كلَّها من أجل سحبِ هذا المظروف من فوق الرف.»

تساءلت كاثرين لاهثة: «أهذا هو ... حقًّا؟»

قال جوليان مؤكِّدًا: «هذا هو الخطاب الذي سلَّمتِني إياه لأحتفظَ به في مكان أمين في مالتينبي.»

انطلقت بهم السيارة في صمت شبهِ تام إلى منزل الأسقف، حيث تقرَّر أن يقضيَ جوليان ليلتَه هناك. ترك الأسقفُ جوليان وكاثرين معًا أمام المدفأة في مكتبته، بينما كان يُشرف شخصيًّا على ترتيب حجرة لضيفه. اقتربت كاثرين وجثَت بجوار كرسيه.

وهمست قائلةً: «هل أطلبُ الصفحَ عن الماضي، أم أتحدَّثُ عن المستقبل، المستقبل المجيد؟»

سألها جوليان في تشكُّك بعضَ الشيء: «هل سيكون المستقبل مجيدًا؟»

أجابته كاثرين في حماسة: «يمكنك أن تجعلَه كذلك أكثرَ من أي شخص آخر على قيد الحياة. أتحدَّاك أنت، أنت يا بول فيسك، أن تُفنِّد مخططنا، وغاياتنا، والهدف الذي نُناضل لأجله. كلُّ ما كنا بحاجةٍ إليه هو قائد يُمكنه أن يرفعَنا فوق مستوى المحلية وضيق رُؤى هؤلاء الرجال. إنهم جادُّون إلى أبعدِ حَدٍّ، لكنهم لا يستطيعون أن ينظروا بعيدًا بما يكفي، وكلٌّ منهم يرى حتى حدوده فقط. صحيحٌ أن الشمس نفسها تسطع في النهاية، لكن لا يمكن لجَمْعٍ من الناس أن يتحركوا في عدة اتجاهات مختلفة ويُحافظوا على الهدف نفسِه نُصب أعينهم.»

لمسَ جوليان الرسائل.

وقال مذكِّرًا إياها: «لا نعرف بعدُ ما هو مكتوب هنا.»

ألحَّت كاثرين قائلة: «أنا أعرفها، قلبي يُنبئني. بالإضافة إلى أنني حصلتُ على الكثير من التلميحات. ثَمة أناسٌ في لندن يجبرهم وضعهم على التزام الصمت، لكنهم يعرفون ويفهمون.»

سألها جوليان في ارتياب: «غرباء؟»

«محايدون بالطبع، لكنَّ المحايدين الذين يتمتعون بحرية التصرف يكونون مفيدين للغاية. إن الجَناح العسكري في ألمانيا لا يزال يُقدِّم أداءً شجاعًا، لكنه ينهزم، بغضِّ النظر عن الانتصارات التي يُحققها. فالشعب مجتمعٌ هناك بالملايين. وصوتُهم أصبح مسموعًا بالفعل. هاكَ هو دليلنا على ذلك.»

قال جوليان معترضًا: «لكن حتى ولو كانت تلك الشروط المقترَحة ملائمةً كما تقولين، كيف لكم أن تفرضوها على مجلس الوزراء الإنجليزي؟ يوجد تحالفٌ أمريكي فرنسي. إنَّ مطلبكم ما هو إلا مطلب داخلي بحت. أما الحكومة فلديها أشياءُ أخرى تُفكِّر فيها وتضعُها في الاعتبار.»

قالت كاثرين: «فرنسا أعيَتها الحرب حتى النخاع. وستحذو حَذْو إنجلترا، لا سيَّما حين تعلم محتويات هذه الرسائل. أما عن أمريكا، فقد دخلت هذه الحربَ بعد التضحيات الكبرى التي قُدِّمت. وهي لا تُطالب بأي شيءٍ أكثرَ مما سيتم كشفه. إن المهتمين بالشئون الإنسانية في العالم لن يتردَّدوا في وضع نهايةٍ لهذه المذبحة الوحشية، ليس من أجل الأفكار الخيالية أو من أجل الفوز بالحظوة الدبلوماسية.»

راحَ جوليان يتفرَّس فيها في فضول. بدا وجهها جميلًا بصورة غريبة في ضوء النار المشتعلة. كانت معنويات كاثرين مرتفعةً بفعل حماسة أفكارها. وكان العُمق في عينيها البُنيتَين الناعمتَين لا حدود له؛ وكانت الرعشة التي في شفتَيها الناعمتَين العذراوين، ملهمة ومثيرة. كانت يدها مستندةً على كتفه. بدَت كاثرين تتفرَّس في تعبيرات وجهه، وتُنصت إلى كلماته في شغف. غير أنه أدركَ أنه لم تكن هناك نبرةُ خطاب شخصي في كل ما سمع منها. كانت كاثرين نصيرة لقضية مقدَّسة، تتَّقد بالعزم والإصرار.

قال جوليان في تفكير: «سيعني هذا قيامَ ثورة.»

أوضحت كاثرين قائلةً: «لقد تم إرساءُ الدعائم لثورة قبل عامَين، ومنذ ذلك الحينِ تقلَّد الشعبُ سلطاته.» وأردفت في حماسٍ وشغف: «سأخبرك بما أومنُ به اليوم، أنا أومن بأن الطبقة التي كانت الأكثرَ تعنتًا وتمسكًا بموقفها بخوض الحرب، والتي تُحكِم قبضتها بشدة على سيفها هي نفسُها الطبقةُ التي ستكون الأكثرَ امتنانًا للشعب الذي سينزع منهم زِمام المبادرة ويُريهم الطريقَ نحو سلام مُشرِّف وحتمي.»

سألها جوليان: «متى تنوين فضَّ هذه الأختام؟»

أجابته: «مساءَ الغد. سيكون هناك اجتماع للمجلس بكامل هيئته. وستُقرأ الشروط. وبعدها تتخذ قرارك.»

«ماذا سأقرر؟»

«ما إن كنت ستقبلُ بمنصب المتحدِّث الرسمي، ما إن كنت ستُصبح السفيرَ الذي سيتحدَّث إلى الحكومة.»

قال جوليان معترضًا: «لكن قد لا ينتخبونني.»

أجابته كاثرين في ثقة: «سينتخبونك. لقد كنتَ أنت مَن أظهرت لهم مدى قوتهم. كان إلهامُك هو ما قادهم وحرَّك حماسهم؛ أنت مَن ستكون مُمثِّلهم.» ثم أردفت: «ألا تُدرك أنَّ ارتباط رجال مثلك ومثل مايلز فورلي والأسقفِّ بهذه الحركة هو ما سيُضفي عليها صفة الواقعية في عيون الطبقة البرجوازية في البرلمان والبلاد؟»

هنا عادَ مُضيفهما يتبعه كبيرُ الخدم حاملًا صينيةً من المرطبات، فنفَضوا عنهم عبءَ الأمور الجادة. ولم يَعُد أيٌّ من الرجلين إلى التطرق إلى المسألة الكبرى التي سيطرت على أفكارهما إلا بعد أن غادرتهما كاثرين وبقيا برهةً بالقرب من النار قبل أن يخلدا إلى النوم.

قال الأسقفُّ بشيءٍ من القلق في صوته: «أنت تفهم يا جوليان أنني أتخذ موقفك نفسَه فيما يتعلَّق بالمقترحات التي قد يحويها هذا المظروف؟ لقد اشترطتُ عند الانضمام إلى هذه

الحركة — أو المؤامرة كما يُفترض أن يُطلَق عليها — أن تكون الشروط الموضوعة شروطًا قد تفخر بقَبولها دولةٌ مسيحية محبة للقانون قدَّم أبناؤها بالفعل تضحياتٍ عظيمة في سبيل قضية الحرية. وإن كانت غير ذلك، فسيتحوَّل كلُّ ما قد أملك من ثقلٍ وتأثير لدى الناس إلى الجانب الآخر. أعتقدُ أن الأمر كذلك بالنسبة إليك؟»

وافقه جوليان قائلًا: «تمامًا.» ثم أضافَ: «ولكي أكونَ صريحًا معك، فإنَّ ما ينتابُني من شكوك لا يتعلَّق بشروط السلام نفسِها بقدر ما يتعلق بقدرة الديمقراطية الألمانية على فرضها.»

أقرَّ الأسقفُّ قائلًا: «لقد اعتمدنا كثيرًا على تقاريرَ من أشخاص محايدين.»

ابتسم جوليان في تجهُّم بعضَ الشيء.

ثم قال: «لقد ألصقنا الكثيرَ من الألقاب والصفات بالدبلوماسية الألمانية انتقادًا لها، لكن يبدو أن ألمانيا تعرف كيف تُحكِم قبضتها على معظم أولئك المحايدين. أتعرف ما قاله ذلك الفرنسي؟ «وراء كل محايدٍ مسئولٌ دعائي ألماني»!»

قادَ الأسقفُّ جوليان إلى الطابق العلوي. وخارج باب حجرة جوليان، وضعَ الأسقفُّ يده في حُبٍّ وعطف على كتف الشاب.

وقال: «ابني بالمعمودية، لم نتحدَّث بعدُ بشأن هذه المفاجأة الكبرى التي قدَّمتها لنا، أعني مفاجأة بول فيسك. كلُّ ما سأقوله لك الآن هو الآتي. أنا فخورٌ للغاية بكونك ضيفي الليلة. وتسرُّني كثيرًا فكرةُ أننا سنكون زملاءَ عمل بدءًا من الغد.»

بينما كانت كاثرين تنتظر وصول الشاي في استراحة كارلتون بعد ظهر اليوم التالي، راحت تُحدِّق في النخيل المتدلِّي الذي يظلُّ الطاولة المنعزلة بعضَ الشيء التي كانت تجلس إليها في مشهدٍ بديع للغاية. كانت الساعة قد بلغَت الخامسة تمامًا، وكان هناك حشدٌ كبير متزاحِم من اللندنيِّين المتأنقين يستمعون إلى أنغام فرقة موسيقية شهيرة، أو يُحاولون الاستماع إليها قدرَ ما يمكنهم وسط ضجيج المحادثات الدائرة بين الناس.

قالت كاثرين لرفيقها: «الأمر مدهشٌ إلى حد كبير، أليس كذلك؟»

أنزلَ الأخير نظارته — وكان ملحقًا في إحدى سفارات الدول المحايدة — وراحَ يلمِّعها بمنديلٍ حريري، كان مطرزًا في إحدى زواياه بتاج صغير بارز بعضَ الشيء.

وصرَّح قائلًا: «إنه يصلح لأن يكون دراسةً مثيرة للاهتمام. إنَّ برلين الآن غارقةٌ في الصخب والملذَّات بجنون، وباريس تتحلَّى بالرزانة والاحتشام. فقط لندن هي مَن لا تزال طبيعية؛ لأنَّ جلدَها هو الأغلظ، ولأنَّ وعيها هو الأقل حِدَّة، وأنانيتها هي الأعمق.»

راحت كاثرين تُفكِّر مَليًّا للحظة.

ثم قالت: «أظن أن التاريخ الفلسفيَّ للحرب سيُشكِّل موضوعًا مثيرًا للاهتمام كثيرًا لَمن سيأتون مِن بعدنا. أقصد دراسة المزاج القومي العام قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها. سيكون الشيء الملحوظ على الدوام هو الكراهية الشديدة التي تُكنُّها أنت — وربما أنا والغالبية العظمى من المحايدين بالتأكيد — تجاه إنجلترا.»

صادق الشابُّ بنبرةٍ جادة على ذلك قائلًا: «هذا صحيح. يجد المرءُ ذلك في كل مكان.»

تابعت كاثرين قائلةً: «قبل الحرب كانت ألمانيا هي المكروهةَ في كل مكان. كانت تشقُّ طريقها إلى أفضل الأماكن في الفنادق والمنتجعات الصحية، كمونت كارلو على سبيل المثال، والمنتجعات الشهيرة الأخرى. واليوم، يبدو أن تلك الكراهية المتراكمة تحوَّلت إلى إنجلترا. أنا نفسي لستُ من أشدِّ المعجبين بهذا البلد، لكنني أسأل نفسي لماذا؟»

فقال الشاب: «إنجلترا متعجرفة، متحجرة القلب، ومنافقة وإن كان ذلك بلا عَمْدٍ منها. إنها تتخذ موقفًا استنكاريًّا ساخطًا حيالَ جرائم جيرانها وأخطائهم، ولا تُدرك أخطاءها. إنَّ الألمان متعجرفون، لكن المرء يُدرك تلك الحقيقة ويتوقعها. أما الإنجليز فهم مزعِجون.» ثم أضافَ خافضًا صوته قليلًا وراحَ ينظر حوله ليتأكَّد من أنهما بمفردهما: «لا شك أن تعاطُفَنا نحن المحايدين المتبقِّين يظل مع دول المحور.»

قالت كاثرين متنهدة: «لديَّ بعض الأصدقاء الأعزَّاء في هذا البلد أيضًا.»

«بين أولئك المنتمين إلى طبقتك بالطبع. لكن ثَمة اختلافًا طفيفًا جدًّا بين الطبقات الأرستقراطية في كل عِرق من الأعراق في العالم. إنما الطبقة المتوسطة هي مَن تؤثر، وتضع طابَعَها على شخصية الأمة وتسبغ عليها صفاتها المميِّزة.»

كان الشاي الخاصُّ بهما قد وصلَ، ولبضع لحظاتٍ اتخذت المحادثةُ مساراتٍ ألطفَ وأخف. فراحَ الشابُّ — الذي كان شخصًا ذا مكانة وحيثية في بلاده — يتحدَّث بأريحية عن المسارح والأصدقاء المشتركين وإحدى الرياضات التي كان يُمارسها. وعادت كاثرين إلى الدور الذي كان دورها الأول في الحياة؛ ألا وهو دور الشابة الأنيقة العصرية. وبهذا لم يجذبا انتباهَ أي أحد عدا بعض نظرات الإعجاب الخاطفة التي كانت موجَّهةً إلى كاثرين من جانب المارة. وحين بدأت أعداد الناس من حولهم في التناقص بعضَ الشيء، أصبح حديثُهما أكثرَ ألفةً وحميمية.

إذ قال الشاب متأملًا: «سأظل دومًا أشعر بأنني عايشتُ في هذه الأيام أحداثًا عظيمة. لقد رأيتُ وأدركتُ ما سيرويه المؤرِّخون من مصادرَ غيرِ مباشرة. فأعظم الأحداث تتحرك كالقشِّ في الرياح. قبل شهر واحد، بدا وكأنَّ دول المحور ستخسر الحرب.»

قالت كاثرين: «أعتقدُ أن الأمر يعتمد كثيرًا على ما تقصد من الفوز بالحرب؟ إنَّ شروط السلام هي شروط النصر، أليس كذلك؟»

كرَّر الشابُّ الكلمة في تأمل: «شروط السلام.»

تابعت كاثرين متحدثةً بنبرة خفيضة للغاية: «نحن نعرف تلك الشروط، أليس كذلك؟ الشروط الأساسية على أي حال.»

قال الشابُّ بنبرة بطيئة: «أتقصدين الشروط المقدَّمة من قِبَل الحزب الاشتراكي الألماني لضمان تحقيق هدنة؟»

قالت مذكِّرةً إياه: «ووافقَ عليها القيصر وأهمُّ رجلَين من رجال الدول الألمان.»

راحَ الشابُّ يعبث بفنجانِ شايه، ثم أخرج علبة سجائر ذهبية اللون من جيبه وتخيَّر منها سيجارة وأشعلها.

وقال وهو يبتسم إلى رفيقته: «تُحاولين أن تجعليني أُصدِّق أنكِ اليوم لستِ في أذكى حالاتكِ.»

استجدَته كاثرين بجدِّية قائلةً: «اشرح لي ما تقصده من فضلك.»

راحَ الشاب يُدخن سيجارته في تبلد لعدة لحظات.

ثم قال: «أظن أنكِ تحتفظين معي بشيءٍ من ذلك الجهل المصطنَع بمهارة شديدة، الذي يعتبر القناعَ الحقيقي للشخصية الدبلوماسية. لكنني أتساءل، هل الأمر يستحق؟»

التقطت كاثرين أنفاسها.

وغمغمت وهي تنظر إليه خِلسةً قائلة: «أنت بارع للغاية.»

واصلَ الشابُّ حديثه قائلًا: «لقد رأيتِ كيف جاهدَت ألمانيا، التي هي في حاجةٍ ماسة إلى السلام، من أجل استغلال أكثرِ القُوى ازدراءً فيها لأجل مصلحتها، وأقصدُ بذلك الحزب الاشتراكي. فبعد أن كانوا يُعامَلون بازدراء واحتقار، رأى الرجلُ الأول بذاته فجأةً، في وقتِ اقتراح مؤتمر ستوكهولم، أنهم يستحقون الاهتمامَ والملاحظة. لقد أدركَ فجأةً مدى الاستفادة الرائعة التي يمكنه تحقيقُها من ورائهم. كان فخًّا بارعًا للغاية تم تزويده بطُعم، وعدم وقوع الحلفاء في هذا الفخ لا يرجع إلى أيِّ بصيرة ثاقبة أو براعة من جانب هذا البلد.» ثم استطرد: «أقولها مرةً أخرى إن الحظ فقط هو ما حالَ دون تمثيل الحُلفاء في ذلك المؤتمر والانزلاق إلى حافة الهاوية.»

قالت كاثرين موافقةً إياه: «أنت محقٌّ تمامًا.»

أكمل الشابُّ قائلًا: «قد تكون الدبلوماسية الألمانية غبيةً وبليدة في بعض الأحيان، لكنها على الأقل مُثابرة. وبالتأكيد ستُصنَّف خطوتهم التالية في التاريخ باعتبارها الأذكى

والأشدَّ دهاءً منذ بداية الحرب.» وتابعَ الشابُّ وهو يُثبِّت سيجارته في حامِل طويل كهرماني اللون قائلًا: «لا يسَعُنا نحن مِمَّن ليسوا بألمان سوى أن نُخمِّن تلك الحركة بالطبع، لكن حتى التخمين مدهش.»

قالت كاثرين في رجاء: «أكمِل من فضلك يا عزيزي البارون. فأنا أشعر وكأنني أستمع إلى بيسمارك آخرَ حين تتحدَّث بهذا الشكل وتُطلعني على ما تُفكِّر فيه.»

قال الشابُّ: «أنت تُجامليننني أيتها الكونتيسة، لكن هذه الأحداث مثيرةٌ بالفعل. تتبَّعي مسارها بنفسكِ بعد فشل مؤتمر ستوكهولم. لقد أسَّس القيصر علاقاتٍ بعينها مع الحزب الاشتراكي. مرةً أخرى اتجه إليهم. إنه يتصنَّع إنهاكًا من الحرب لا يشعر به. إنه يضع في رءوسِهم أنَّ عليهم أن يتَواصلوا من دون إثارة أيِّ قلاقل مع رجالٍ بأعينهم في إنجلترا يحظَوْن بأتباع عُمَّاليين كُثْر. لقد بدأ المخطط. وتعرفين جيدًا مدى التقدُّم الجيد الذي يُحرزه.»

قالت كاثرين موافقةً إياه: «بالطبع، لكن أخبرني أين ستتدخل تلك الدبلوماسية الرائعة في النهاية؟ إنَّ شروط السلام ليست شروطَ دولة مُعتدية. ستتعهَّد ألمانيا بالتخلي عن كل ما أقسمَت على احتلاله، بل ستدفع تعويضات، وستُعيد كلَّ الأراضي المحتلة، وستسحب كلَّ قواتها إلى ما وراء نهر الراين.»

ثبَّت الشابُّ ناظرَيه على رفيقته لعدة ثوانٍ.

ثم قال: «كما يقولون بلغة هذا البلد، أرفعُ لكِ القبعة أيتها الكونتيسة. أنتِ تُحافظين على قناع الجهالة حتى النهاية. حتى إنني أجدُني في الواقع أسأل نفسي، هل تُصدِّقين حقًّا أن ألمانيا تنوي فعل ذلك؟»

قالت كاثرين مذكِّرةً إياه: «لكنك نسيتَ أنني كنتُ واحدةً من أولئك الذين حضروا مناقشة الإجراءات التمهيدية. لقد وصلَ التأكيدُ على الشروط المتفَق عليها ومعها التوقيعات، وستُقدَّم أمام المجلس العُمَّالي في السادسة من مساء اليوم.»

بدا الشابُّ متحيرًا للحظة. ثم ألقى نظرةً سريعة على ساعة ذهبية صغيرة حول معصمه، وأخرجَ السيجارة من حاملها وأعادَ الحاملَ بحرص في علبته.

ثم قال: «هذا شيقٌ ومثير للغاية أيتها الكونتيسة. لقد نسيتُ مكانتَكِ الرسمية بين الاشتراكيين الإنجليز في الوقت الراهن.»

مالت كاثرين للأمام ولامست كمَّ معطفه.

وصرَّحَت في لهفة قائلة: «لم تنسَ شيئًا. ثمة شيءٌ في ذهنك لم تبُح به.»

أجابها: «لا، لقد أفصحتُ عن الكثير مما يجول في ذهني، وربما أفصحتُ عن أكثرَ مما ينبغي، بالنظر إلى أننا نجلسُ في هذه الاستراحة العصرية للغاية ومحاطون بكثيرٍ من الناس. ينبغي أن نتحدَّث عن هذه الأمور الخطيرة في مناسبةٍ أخرى أيتها الكونتيسة. سأزور عمتكِ في غضون الأيام القليلة القادمة إن سمحتم لي بذلك.»

قالت كاثرين وهي تُخرِج قفازاتها في إصرار: «لماذا تتجنَّب الرد عليَّ؟» وأردفَت: «كلانا يعرف، فيما يتعلق بشروط السلام تلك، أن ...»

قاطعَها قائلًا: «إنْ كان كِلانا يعرف، فليحتفظ كلٌّ منا بما يعرف. أحيانًا ما تكون الكلمات خطيرةً للغاية، وهناك أحداثٌ جِسام تلوح في الأفق. إذن أيتها الكونتيسة! أعتقدُ أنَّ معكِ سيارة، أم سأحظى بشرف اصطحابكِ إلى وجهتكِ؟»

قالت له وهي تهمُّ بالنهوض: «أنا ذاهبة إلى ويستمنستر.»

قال الشابُّ وهما يشقان طريقهما عبر المكان: «في تلك الحالة، ربما من الأفضل ألا أعرضَ اصطحابكِ، وإن كانت لديَّ رغبة شديدة في الوجود هناك بشخصي. أنتِ من بين أولئك الذين سيصنعون التاريخ اليوم.»

قالت كاثرين في رجاءٍ خافضةً صوتها بعضَ الشيء: «أرجو أن تأتي لزيارتي قريبًا. وسأبوحُ لكِ بقدرِ ما يمكنني البَوحُ به.»

فأقرَّ قائلًا: «هذا شيءٌ مغرٍ، فأنا أريدُ معرفة ما تمَّ في ذلك الاجتماع.»

قالت كاثرين موجهةً إليه دعوة: «يمكنك أن تعرف إذا ما أتيتَ لتناول العشاء معنا مساءَ الغد في تمام الثامنة والنصف. ستسعد عمَّتي كثيرًا برؤيتك. لا أذكر إن كان هناك أشخاصٌ سيأتوننا في ذلك الموعد أم لا، لكنك ستكون موضعَ تَرحاب كبير.»

انحنى الشابُّ وهو يُساعد رفيقته في ركوب سيارة أجرة.

وغمغمَ قائلًا: «سيكون ذلك من دواعي سروري، عزيزتي الكونتيسة.»

الفصل الخامس عشر

بدا المجلسُ المجتمِع في ذلك المساء في ويستمنستر بلا طموحٍ في نبرة حديثه ولا روحٍ في مظهره، بالنسبة إلى جَمْعٍ من الرجال تتعلَّق على قرارهم قضايا جسيمة. فقد ضاعَ شيءٌ من الوقت في غرفة الانتظار، حيث قُدِّم جوليان إلى الكثير من الممثلين والمفوضين. وعلى الرغم من أن الإفصاح عن هُويته أثار اهتمامًا بالغًا، فلم يكن موضعَ سعادةٍ محضة للغالبية العظمى منهم إلا بالكاد. فأولئك الذين كانوا جادِّين — وكان معظمهم في غاية الجدِّية والصرامة — كانوا يأمُلون أن يجدوه رجلًا أقربَ إلى طبقتهم الاجتماعية. أما فين وبرايت فكان لديهما أسبابُهما التي تدفعهما للوقوف بعيدًا عن هذا الموقف، ولاحظ دُعاة السلام المتشدِّدون حقيقةَ أن جوليان كان جنديًّا. غير أن مجيئه كان حَدثًا لم يُحاول أحدٌ إخفاء أهميته.

انتُخِبَ الأسقفُ رئيسًا للجلسة حين احتشدت المجموعة الصغيرة في الشقة التي كانت مُخصَّصة لاجتماعاتهم الأكثرِ أهمية. كان مايلز فورلي هو مَن اقترح انتخابَه، ولمَّا كان قد أُعلن أنه لن يكون مرشَّحًا لقيادة الحزب على نحوٍ دائم تحت أي ظرف من الظروف، فقد حظيَّ انتخابُه لرئاسة الاجتماع بالموافقة دون تعليقٍ من أحد. كانت قد دُوِّنت عدة ملاحظات إرشادية للأسقفِّ في وقت مبكر من اليوم. وكان موضوع النقاش الرئيسي بالطبع هو الرسالةَ التي وصلت مؤخرًا من هيئة تابعة تتألَّف من مجموعة من أصدقائهم في ألمانيا، ووُزِّعَت نسخ منها على الأعضاء.

صرَّح الأسقفُّ عند افتتاح فعاليات الاجتماع قائلًا: «لقد طُلِب مني أن أوضِّح أن الوثيقة التي ندرك جميعًا أنها على قدرٍ غير مسبوق من الأهمية، قد نُسِخت على يد السيد فين بنفسه، وبما أنَّ هذه النسخ قد وُزِّعَت على الأعضاء، فقد أُغلق البابُ الأماميُّ للمبنى

ووُضِعت الهواتف تحت المراقبة. هذا بالطبع لا يمكن أن يعنيَ أن أيًّا منكم قد يكون محلَّ شك، لكن من الأهمية بمكانٍ ألا تعرف الحكومة أو الصحافة أو الشعب بما يحدث، حتى يتخذ المفوض الذي ستختارونه الخطوة الأولى. وثمة اقتراحٌ بعدم مغادرة أي عضو مفوَّض هذا المكان إلى ما بعد لقاء مفوضكم برئيس الوزراء. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ماذا عن الشروط نفسها؟ سأطلبُ من كل واحد منكم توضيحَ وجهات نظره، وسأبدأ بالآنسة آبواي.»

أدلى كلٌّ واحد من الأعضاء الثلاثة والعشرين — أو بالأحرى الأربعة والعشرين بعد انضمام جوليان — ببضع كلمات، وكان فحوى ملاحظاتهم متطابقًا. وكانت المقترحات منطقية تمامًا كأساسٍ لشروط السلام، ولم تَبدُ بأي حال عُرضةً لسوء التأويل. وقد عُرِضَت في ثمانية بنود.

(١) الجَلاء التامُّ عن شمال فرنسا وبلجيكا، مع التعويض الكامل عن كل الأضرار التي حلَّت بهما.

(٢) تحدِّد الألزاس واللورين موقفهما من خلال تصويت يضم الشعب كلَّه.

(٣) إعادة تأسيس صربيا ورومانيا كمَمْلكتَين مستقلَّتين، مع إجراء ما ستستقرُّ عليه لجنةٌ مشتركة بينهما من تصحيحاتٍ وتعديلاتٍ على الحدود.

(٤) إعادة المستعمرات الألمانية كلِّها.

(٥) تظل الأجزاء المحتلة من بلاد ما بين النهرين تحت حماية الحكومة البريطانية.

(٦) إعلان بولندا مملكةً مستقلة.

(٧) التنازل عن تريستي وأجزاءٍ معينة من ساحل البحر الأدرياتي إلى إيطاليا.

(٨) انتخاب لجنةٍ دولية في الحال؛ بغرض التوصل إلى خُطة لنزع السلاح دوليًّا.

أوضحَ مايلز فورلي قائلًا: «لا بد أن نتذكَّر أن الحكومة الحاليَّة تعهدت فعليًّا بعدم الدخول في مفاوضات سلام مع هوهنزولرن.»

فقال الأسقف: «أؤكِّد أنه ما كان ينبغي التصريح بذلك أبدًا. فأيًّا ما كانت مشاعرنا تجاه الحكومة الألمانية، فقد جمع القيصر الأمة معًا وهو في الوقت الراهن قائدُها المسئول. وإن كان لديه من الحكمة والمنطق السليم ما يجعله يُذعِن لمطالب شعبه، كما تُثبت هذه الوثيقة، فلا بد بالتأكيد من نسيان مثلِ ذلك التصريح. لكنَّ لديَّ أسبابًا تدفعني إلى الاعتقاد بأن المفاوضات حتى ولو بدأَت باسم القيصر، فمن المحتمَل أن يحدث تغييرٌ عاجل ومباشر في الدستور الألماني.»

تدخَّل فين قائلًا: «أفهم أن شكل الحكومة الألمانية الجديدة سيكون على غِرار حكومتنا، التي ستكون أقربَ ما يمكن إلى الديمقراطية المثالية بعد إلغاء مجلس اللوردات والتنازل عن الامتياز الملَكي. سيكون هذا التغيير في حدِّ ذاته هو أقوى ضماناتنا ضد كلِّ الحروب المستقبلية. فما من ديمقراطية حضَّت يومًا على سفك الدم. فمن الثابت بوضوح، في رأيي، أن الحروب هي نِتاج الدسائس في البلاط الملكي. لن يكون هناك مزيدٌ من ذلك. إن إلغاء الحكم الملكي في ألمانيا سيعني نهايةَ الحكومات الاستبدادية كافة.»

سرت همهماتُ اتفاقٍ بسيطةٌ مع ما قيل. ثم طرحَ جوليان — الذي كانت كاثرين تهمس له — سؤالًا.

فقال: «أعتقد أنه لا يمكن التشكيك قطُّ في سلامة التوقيعات الثلاثة المرفقة بهذه الوثيقة؟»

علَّق فينياس كروس من نورث آمبر من مكانه في الجانب الآخر من الطاولة قائلًا: «كان هذا الأمر يدور في خلَدي يا سيد فيسك، أو يا سيد أوردين. إن هؤلاء الألمان قادرون على أيِّ مراوَغات مُهلِكة. فهل سنقبل، دون أي تشكيك، أن هذه الوثيقة حقيقية تمامًا؟»

تساءل فين قائلًا: «كيف لنا أن نفعل غير ذلك؟» وأضافَ: «إن فرايشتنر، المسئولَ عن هذه الوثيقة، على اتصالٍ غير رسمي بنا منذ بداية الحرب. نحن نعرف خطَّ يده، ونعرف شخصيته، وأُتيحت لنا مائةُ مناسبةٍ مختلفة لنختبرَ فيها جدِّيته وجدارته بالثقة. هذه الوثيقة مكتوبة بخطِّ يده، ومرفقٌ بها ملاحظات وإشارات لرسائل سابقة بما يجعل مصداقيتَها لا تقبل الجدل.»

قال جوليان: «إذا سلَّمنا بأن المقترحات نفسَها حقيقية، فلا تزال هناك التوقيعات الثلاثة.»

قال فين معترضًا: «ولِمَ التشكيك فيها؟» وأردفَ: «فرايشتنر يضمنُ لنا مصداقيتها، وهو صديقنا، إنه صديق العمال ونصيرهم في العالم كلِّه. ومحاولتُه خداعَنا من شأنها أن تُلحق به العار مدى الحياة.»

قال جوليان موضحًا: «لكن هذه الشروط تختلف جوهريًّا عن أي شيء سمح الألمانُ بإعلانه حتى الآن.»

تدخَّل مايلز فورلي قائلًا: «ثَمة عاملان هنا قد ينبغي لنا أخذُهما في الاعتبار. الأول أن الوضع الاقتصادي لألمانيا أسوأ بكثير مما سمحت لنا بأن نعرفه. والثاني — وهو مثيرٌ

للاهتمام كثيرًا لنا — هو الزيادة المطَّردة في التأثير والقوة، وفي أعداد أعضاء الحزب العُمالي والاشتراكي في ألمانيا.»

قال الأسقف مذكِّرًا إياهم: «لقد وصَلَتنا تنويهاتٌ متكررة كثيرًا عن كِلا هذَين العاملين من أصدقائنا المحايدين. واسمحوا لي أن أُخبركم بكل ما يدور في ذهني. أعتقد أن تلك الشروط قريبةٌ إلى حدٍّ كبير لما يحقُّ لنا أن نتوقعه، حتى وإن كانت جيوشنا قد وصلت إلى نهر الراين. ومن الممكن أن نحصل على تعديلاتٍ بسيطة إذا ما واصلنا الحرب، لكن هل تستحقُّ تلك التعديلات خَسارةَ أرواح بشرية أخرى تُقدَّر ببضع مئاتٍ من الآلاف في غضونِ بضعة شهور إضافية من هذه المجزرة الوثنية البشعة، والانتهاك الذي يلحق بالعالم الجميل الذي خلقه الرب؟»

سرَت همهماتُ استحسان بين الحضور لما قاله. وهنا مالَ على الطاولة ديفيد ساندز — وكان رجلًا نحيلًا هزيل الجسد من يوركشاير ونصيرًا للعقيدة الويزلية، وواعظًا محليًّا — وصوته يرتعش من فرط الجدية:

فصاح قائلًا: «هذا صحيح!» واستطرد: «إنها كلمة الرب! علينا أن نُوقِف الحرب. إن أوقفناها الليلةَ بدلًا من الغد فقد نُنقذ ألفَ روح، ألفَ حياة بشرية، إنها حياة إخوتنا في الإنسانية. لقد أعطانا رفاقنا العمال في ألمانيا الفرصة. لا تدَعونا نتأخَّر ولو خمسَ دقائق. اجعلوا مَن سننتخبه من بيننا يلتقي برئيس الوزراء الليلة ويُسلم إليه رسالة الشعب.»

قال كروس موافقًا إياه: «لستُ أرى سببًا يدعو إلى التأخير.»

وصدَّقَ فين بحرارةٍ قائلًا: «ما من سبب لذلك. أقترحُ أن نمضيَ نحو انتخاب مُمثِّلنا؛ وبعد أن ننتخبه، نُرسله إلى رئيس الوزراء برسالتنا، ونظل نحن هنا في هذا المبنى حتى يأتيَنا تقريره.»

سألَ الأسقف قائلًا: «هل قرَّرتم بالإجماع إذن أن نتخذ الخطوة الأخيرة؟»

كان هناك عاصفةٌ صغيرة من الموافقة. واتكأ فين إلى الأمام في موضعه.

وأعلن قائلًا: «كلُّ شيءٍ جاهز. آلياتنا مثالية. وعُملاؤنا في كل مدينة ينتظرون تعليماتنا.»

سألَ الأسقفُ في قلق: «لكن هل تتخيلون أن تلك الوسائل الأخيرة ستكون ضرورية؟»

أجابَ فين: «أرى ذلك بكل تأكيد. تذكَّر أن الشعب إذا عقَد السلام من أجل البلاد، فإن الشعب هو مَن سيتوقع أن يحكم البلاد. سيكون ذلك بمثابةِ إشعارٍ للساسة لكي يستقيلوا. إنهم يعرفون ذلك. وفي اعتقادي أنهم سيُقاومون بكل ما أوتوا من قوة.»

نظر برايت في ساعته.

وأعلن قائلًا: «سيكون رئيس الوزراء في داونينج ستريت حتى التاسعة. والساعة الآن السابعة. أقترح أن نشرع من دون مزيدٍ من التأخير في انتخاب ممثلنا.»

قال فين موضحًا: «بطاقات الاقتراع أمام كل شخص. ولدى كلٍّ شخص صوتان، وينبغي أن يكون الصوتان لمرشحَين مختلفتين. بعد ذلك ينبغي طيُّ البطاقات، وأقترح أن يجمعها الأسقف؛ ذلك أنه ليس مرشَّحًا. وطِبقًا لما قرأتُ من القواعد غيرِ المكتوبة لهذا المجلس التشريعي، فإن كل فرد هنا يصلح للترشح، عدا الأسقف والآنسة آبواي والسيد أوردين والسيد فورلي.»

سرَت همهمات خافتة. ومال فينياس كروس إلى الأمام في مكانه.

وصاح قائلًا: «ما هذا؟» وأردف: «جميعنا يعرف أن الأسقف والآنسة آبواي خارج هذه المنافسة. والسيد فورلي أيضًا يُمثِّل الاشتراكيين المثقفين، وعلى الرغم من أنه معنا في هذا الأمر، فإنه ليس بشخصية عُمالية في الواقع. لكن السيد أوردين، أو بول فيسك؟ ذاك أمرٌ مختلف تمامًا، أليس كذلك؟»

قال فين بنبرة بطيئة: «السيد أوردين كاتِب مثقف. وهو متعاطف مع قضيتنا، لكنه ليس من أبنائها.»

قال فينياس كروس: «لو أن أي شخص قرأ الرسالة التي كتبها لنا بول فيسك بقلمٍ من ذهب، وظلَّ مقتنعًا بأنه ليس واحدًا منا، فلا بد أنه غاضبٌ تمامًا. أقول إن السيد أوردين هو عقلُ حركتنا وروحُها. لقد بثَّ الحياة والشجاعة في شمال إنجلترا مع أول مقال كتبه. ومنذ ذلك الحين، لم يَعُد هناك رجلٌ يحترمه حزبُ العمال ويُبجله مثل السيد أوردين.»

ثم تدخل ديفيد ساندز قائلًا: «هذا صحيح، كلُّ كلمة قلتَها صحيحة. لم يكتب أحدٌ من أجل العمال مثله. وإن لم يكن السيد أوردين عُماليًّا، فما من أحدٍ منا كذلك. لا أبالي إن كان ابن إيرل أو مساعدَ جصَّاص كما كنتُ أنا. إنه الشخص المناسب لهذه المهمة، ويتمتَّع بموهبةِ تنسيق الكلمات معًا، وقلبه ينتمي إلى حيث ينبغي به أن يكون.»

قال فين بصوتٍ مرتعش بعضَ الشيء: «ما من أحد يُكنُّ إعجابًا لكتابات بول فيسك مثلَ إعجابي بها، لكنني ما زلت أؤكد أنه ليس من العمال.»

قال كروس آمرًا: «اجلس يا فتى. سنُصوِّت على ذلك. وأنا أؤيد الرأي القائل إن للسيد جوليان أوردين، الذي كتب تلك المقالات تحت اسم «بول فيسك»، عضويةً كاملة هنا في

مجلسنا، وجديرٌ بأن يكون رسولَنا إلى رئيس الوزراء. وأطلبُ من الأسقف أن يُضيف هذا إلى محضر الاجتماع.»

أجمعَ ثمانيةَ عشر عضوًا على الموافقة على هذا الاقتراح. وجلسَ فين دون أن ينبس بكلمة. كان وجهُه شاحبًا. وكانت يداه اللتان كانتا مرتكزتَين على الطاولة ترتعشان. بدا كرجلٍ غارق في الأفكار ولم يتذكَّر أن يملأ بطاقةَ اقتراعه إلا حين طلبها منه الأسقف. ثم ساد صمتٌ قصير في حين كان الأخير يحتسب الأصوات بمساعدة كلٍّ من كروس وساندز. ثم نهض الأسقف واقفًا.

وأعلن قائلًا: «وقع الاختيار على السيد جوليان أوردين، المعروفِ لديكم جميعًا باسم «بول فيسك»، بأغلبيةٍ كبيرة لكي يكون ممثلًا عنكم، ويضطلعَ بتوصيل رسالة الشعب إلى رئيس الوزراء.»

صاح فين في غضب: «أعترضُ على ذلك!» وأردفَ: «هذه هي الزيارة الأولى للسيد أوردين بيننا. إنه غريبٌ عنا. أُكرِّر أنه ليس واحدًا منا. أين هو تأثيره؟ ليس له أيُّ تأثير. هل يستطيع القيام بما يمكن لأحد منا القيام به؛ هل يستطيع أن يُوقِف نبض الأمة؟ أيمكنه أن يُخمد نيرانَ أفرانها؟ أيمكنه أن يُفرغ الموانئ والمصانع، ويوقف القطارات على خطوطها، ويُخرج عمَّال المناجم من باطن الأرض؟ أيمكنه ...»

قاطعه فينياس كروس: «يمكنه القيامُ بكل تلك الأشياء؛ لأنه يتحدث بالنيابة عنا، إنه مُمثلنا المنتخَب رسميًّا. اجلس يا فين. إن كنتَ تريد تلك المهمة، فأنت لم تحصل عليها، وهذا كل ما في الأمر، ورغم أنك طليقُ اللسان كأي أحدٍ منا هنا، ورغم أنَّ لك أتباعًا كُثرًا مثلي، بالمناسبة، فإنني أقول لك إنني ما كنتُ لأُعطيَك صوتي أبدًا ولو لم يكن هناك رجلٌ غيرك. ولذا ضع ذلك التبغ في غليونك ودخِّنه، يا فتى.»

قال الأسقف بنبرةٍ آمرة لفرض النظام: «أي مناقشات إضافية تُعد خروجًا عن النظام. جوليان أوردين، هل تقبل بهذه المهمة؟»

نهضَ جوليان واقفًا. واتكأ بقوة على عصاه. وكانت تعبيرات وجهه مضطربةً على نحو غريب.

ثم قال: «أيها الأسقف، وأنتم أيها الأصدقاء، لقد حدث كلُّ هذا على نحوٍ مفاجئ للغاية. لا أتفق مع السيد فين. فأنا أعدُّ نفسي واحدًا منكم. وفي رأيي أنني في غضون السنوات العشر المنصرمةِ أدركتُ المكانة التي كان ينبغي لحزب العمال احتلالُها في الإدارة السياسية في العالم. لقد رأيتُ الخطر الكامن في أن يظلَّ صوت الشعب غيرَ مسموع مدةً

طويلة. وروسيا اليوم تُشكِّل مثالًا عمَليًّا وشنيعًا لهذا الخطر. إن إنجلترا بلد حر، بطريقتها الخاصة، وحكومتنا حكومةٌ جيدة، لكن في تاريخ العالم تحلُّ أزماتٌ في بعض الأوقات لا يمكن لأي شكلٍ نمطي للحكم أن يتعاطى معها، حينها يكون الشيء الوحيد المرغوب فيه هو التمثيلَ الواضح والنزيه لأولئك الذين يُشكِّلون أغلبيةً في هذا العالم، أولئك الذين يرَون الحقيقة في بساطتهم وفي غيابهم عن الروابط السياسية والسوابق والعلاقات المتبادَلة. هذا هو السبب الذي دفعَني إلى تسخير قلمي لخدمة العمال، ولإنهاء هذه الحرب. هذا هو السبب الذي سيجعلني أذهب عن طيب خاطرٍ إلى رئيس الوزراء الليلةَ ممثلًا عنكم.»

مدَّ الأسقف يده. وساد صمتٌ تبجيلي؛ إذ كانت كلماته تحمل في طابَعِها معنى المباركة.

قال الأسقف في وقار: «وليكن الربُّ معك يا رسولنا.»

الفصل السادس عشر

انطلق جوليان في مهمته رسميًّا، وانتظر مدةً قصيرة إلى حدٍّ لم يكن يتوقَّعُه في الجناح الكبير القاتم الذي كان كبيرُ خدم السيد ستينسون قد أرشده إليه في شيءٍ من الارتياب. دلف رئيس الوزراء في شيء من العجلة. كان هو أيضًا متفاجئًا بعض الشيء.

صاح قائلًا وهو يمدُّ يده إليه: «عزيزي أوردين، ماذا يمكنني أن أفعل لك؟»

أجابه جوليان بنبرة جادة: «الكثير. لكن أولًا وقبل كل شيء، ثمة تفسير يجب أن أُقدِّمه لك.»

قال السيد ستينسون في أسفٍ: «أخشى أنني مشغول كثيرًا هذا المساء ولن يمكنني التطرقُ إلى المسائل الشخصية. فأنا في انتظار رسولٍ هنا في أمر رسمي غايةٍ في الأهمية.»

صرَّح جوليان قائلًا: «أنا ذلك الرسول.»

ذُهِل السيد ستينسون. كانت نبرة زائره جادةً ومقنعة.

«أخشى أن ثمة سوءَ فَهم. إنما أنا في انتظار مبعوثٍ عن الحزب العمالي.»

«أنا ذلك المبعوث.»

صاح السيد ستينسون في ذهول تام: «أنت؟»

«ربما ينبغي لي أن أفسِّر الأمر أكثر. لقد كنتُ أكتب عن القضايا العمالية لبعض الوقت تحت اسم «بول فيسك»، وهو اسمٌ مستعار.»

شهقَ السيد ستينسون في دهشة قائلًا: «بول فيسك؟» وأضافَ: «أنت ... بول فيسك؟»

أومأ جوليان بالإيجاب.

ثم تابع قائلًا: «أنت مندهش بالطبع، لكنها الحقيقة. لقد ظهرَت هذه الحقيقة لتوها إلى النور، ودُعيتُ للانضمام إلى هذا المجلس الطارئ الجديد، الذي يتألف من رجل أو اثنين من الاشتراكيِّين والكتَّاب، ومن بينهما أسقفٌ بارز للغاية؛ وهناك أيضًا أعضاء في البرلمان

عن حزب العمال، وممثِّلون عن مختلِف النقابات المهنية؛ مجموعة من الرجال لا شك أنك تعرف عنهم كلَّ شيء. وقد حضرتُ اجتماعًا معهم في ويستمنستر قبل ساعةٍ مضت، وعُهد إليَّ بمهمة التحدث إليك.»

جلس السيد ستينسون فجأة.

وصاح قائلًا: «ليرحم الرب روحي!» وأردف: «أنت ... جوليان أوردين!»

عمَّ صمتٌ للحظة. غير أن السيد ستينسون كان رجلًا يتمتع بقدرات هائلة على التعافي من الصدمات واستيعابها. فاستوعب الموقفَ الجديد وامتثل له دون مزيدٍ من الاعتراض.

وقال معترفًا: «لقد أتيتَني بمفاجأة العمر يا أوردين. لكن ذلك أمرٌ شخصي. إن هاناواي ويلز في غرفة المكتب. أعتقد أنك لا تعترض على وجوده؟»

«ليس لديَّ أدنى اعتراض.»

دقَّ السيدُ ستينسون الجرسَ، وفي غضون دقائقَ قليلة انضم زميله إليهما. ولم يُضيِّع الأول أي وقت لكي يشرح الأمر.

إذ قال: «لا شك أنك ستندهش مثلي يا ويلز، حين تعلم أن صديقنا جوليان أوردين هنا بصفته ممثلًا عن المجلس العمالي الجديد. ومؤهلاته لذلك — من بين مؤهلات أخرى — أنه كاتِب تلك المقالات الرائعة التي كانت بمثابة المنارة ومصدر الإلهام للحزب العمالي على مدى العام الماضي، والتي كتبها تحت اسم «بول فيسك».»

كان السيد هاناواي ويلز يتفاخر بأنه لا يندهش من أي شيء أبدًا. وكانت الطريقة الوحيدة ليحفظَ سُمعته هذه المرةَ هي أن يمسك عليه لسانه.

واصل السيد ستينسون ملتفتًا إلى زائره: «نحن مستعدان الآن لسماع رسالتك.»

بدأ جوليان حديثه قائلًا: «أظن أنك تعرف شيئًا عن ذلك المجلس العمالي الجديد؟»

أجاب السيد ستينسون: «القليل الذي نعرفه وصلَنا بصعوبة بالغةٍ من خلال قسم الخدمة السرية. أظنُّ أن تحالفًا صغيرًا من الرجال تشكَّل في نطاق ميلٍ واحد من مجلسَي البرلمان، وهم متهَمون بالخيانة والتواصل مع الأعداء، بغضِّ النظر عن دوافعهم.»

أقرَّ جوليان قائلًا: «بالضبط، أنت محقٌّ تمامًا بلا شك.»

أضاءَ السيد ستينسون مصباحًا كهربائيًّا.

ثم قال موجهًا دعوة إلى جوليان: «اجلس يا أوردين. لسنا بحاجة إلى أن نقف ونُحدِّق بعضنا في بعض. فلقاؤنا هذا له أهمية حقيقية بما يكفي ولا يحتاج إلى مزيد من الميلودراما.»

ألقى رئيس الوزراء بنفسه في كرسيٍّ وثير. واختار جوليان كرسيًّا من خشب البلوط ذا ظهر مرتفع وهو يتنهَّد تنهيدةَ ارتياحٍ بسيطة، وأسند قدميه على مسند قدم. وظلَّ هاناواي ويلز واقفًا على البساط المفروش أمام الموقد.

قال السيد ستينسون في رجاء: «ادخل في صُلب الموضوع من فضلك يا أوردين. لنرَ إلى أي حدٍّ وصلَت تلك المؤامرة اللعينة.»

قال جوليان: «لقد قطعتُ أشواطًا كبيرة للغاية. يوجد أعضاء في هذا المجلس العُمالي المؤلَّف حديثًا كانوا على اتصال لبضعة أشهر مع الحزب الاشتراكي في ألمانيا. وقد تسلَّموا من ذلك الأخير مقترحَ سلام محدَّدًا وموثوقًا فيه، وممهورًا بتوقيعات أهم ثلاثة رجال في ألمانيا. وأنا هنا لأعرضَ أمامك مقترح السلام ذاك، وأطلبُ منك أن تتخذ بشأنه إجراءً دون تأخير.»

ثم أخرجَ جوليان لفافة الأوراق. بينما ظلَّ الرجلان بلا حَراك. فقد وصلوا إلى الذروة بسرعةٍ تشل الأوصال.

قال السيد هاناواي ويلز بنبرة صريحة: «نصيحتي لك يا سيدي ...» والتفت إلى رئيسه: «هي أن ترفض مناقشة هذه المقترحات أو النظر فيها، أو حتى النظر في تلك الوثيقة. أؤكِّد على أنك رئيس حكومة جلالة الملك، وأن أيَّ تواصل مصدره دولة أجنبية ينبغي أن يكون موجَّهًا إليك. وإن درست هذه المسألة وناقشتها مع السيد أوردين هنا، فأنت بذلك تربط اسمك بخرق للقانون ينطوي على خيانة.»

لم يُبدِ السيد ستينسون ردًّا مباشرًا. إنما نظر تجاه جوليان، وكأنه يريد سماع ما لديه.

أقرَّ جوليان قائلًا: «إن نصيحة السيد هاناواي ويلز، بلا شك، صحيحة من الناحية العمَلية، لكن الأمر جلَل والقضايا المتعلِّقة به أفظعُ من أن نقيم فيها وزنًا للأصول أو حتى اللياقة. الأمر راجعٌ إليك يا سيدي في أن تُقرر الأفضل للبلاد. ولن تكون ملزَمًا بشيء بقراءتك لهذه المقترحات، وأقترح عليك أن تقرأها.»

فقرر السيد ستينسون قائلًا: «سنقرؤها.»

مرَّر جوليان الأوراق. واتجه الرجلان إلى الجانب الآخر من الغرفة ومالا على طاولة الكتابة الخاصة برئيس الوزراء. وسحبَ السيد ستينسون المصباح الكهربائي إلى أسفل، وظلا هناك في مباحثات مغلقة نحو ربع الساعة. وجلس جوليان موليًا ظهره لهما وأغلق أذنَيه تمامًا دون أي محاولة لاستراق السمع. بدا لجوليان، في ذلك الجو السياسي، أن موقفه

غريب وأحمق. فقد راوده إحساسٌ بالوهم ألقى بثقله على أفكاره. وحتى تلك البرهة من الصمت التي تخللت المفاوضات الفعلية ملأته بالشكوك. وبالكاد استطاع أن يُصدِّق أنه هو من يُملي الشروط على الرجل المسئول عن حكم البلاد؛ أنه من يفرض قرارًا يحمل في طياتِه تبعاتٍ بعيدةَ المدى على العالم بأسره. لاحت هيئتا فين وبرايت أمامه على نحوٍ يُنذر بالسوء، على الرغم من أنه قد حاول جاهدًا أن يُبعدهما عن ذهنه. هل كان هو مَن يحمل تعليمات لمثل هذين الرجلين؟

بعد قليلٍ عاد الوزيران إلى مكانهما. كان جوليان قد سمع صوتهما يتحدَّثان خلال الدقائق القليلة الماضية دون أن يتمكن من تمييز كلمةٍ واحدة من حديثهما الفعلي.

قال رئيس الوزراء: «لقد نظرنا في الوثيقة التي أحضرتَها يا أوردين، ونُقرُّ صراحةً أننا نجد محتوياتها مذهلة. إن شروط السلام المقترَحة تُشكِّل أساسًا ممكنًا تمامًا للمفاوضات. وفي الوقت نفسه، أنت تُدرك على الأرجح أن وزراء جَلالته لم يضَعوا في حُسبانهم مناقشة أي شروط سلام مع القيادة الألمانية الحاليَّة تمامًا.»

قال جوليان على سبيل التذكير: «مَن أملى هذه الشروط ليس القيصر ولا مستشاريه، بل الحزب الاشتراكي والعمالي.»

أوضحَ السيد ستينسون قائلًا: «من الغريب أننا لم نسمع سوى القليلِ عن ذلك الحزب. بل من المذهل أن نجدهم في موقعٍ يُمكِّنهم من إملاء شروط سلامٍ على أسرة هوهينتزولرن.»

فسأله جوليان: «ألا تشكُّ في موثوقية الوثيقة؟»

أجاب السيد ستينسون في حذر: «لن أذهب إلى ذلك الحد. فقد أبلغتنا الخدمة السرية لدينا منذ مدة أن فرايشتنر، زعيم الاشتراكيِّين الألمان، كان على اتصالٍ بأشخاص بأعيُنِهم هنا في هذا البلد. ولا يُراودني أدنى شكٍّ في أن هذه المقترحات التي بين يدَيَّ هي مقترحات الحزب الاشتراكي المفوَّض في ألمانيا. لكن ما لا أفهمه هو كيف اكتسَبوا فجأةً القدرة على الدفع نحو وضع مقترحاتٍ للسلام كهذه.»

قال جوليان: «لقد تمت الإشارة إلى أنه حتى أسرة هوهينتزولرن، بل الزمرة العسكرية الألمانية، يرَون أمامهم الآن استحالة جني ثمار حملاتهم الناجحة. لقد صار السلام ضرورةً حتمية لهم. ولذا سيُفضِّلون أن يُبدوا أنهم مستسلمون لمطالب الاشتراكيِّين لديهم، بدلًا من الاستسلام لضغط أجنبي.»

أقرَّ السيد ستينسون: «قد يكون الأمر كذلك. لِنَمضِ قدُمًا. لقد انتهى الجزء الأول من مهمتك يا أوردين. ماذا في جعبتك أيضًا؟»

قال جوليان: «لديَّ تعليمات بأن أناشدك بأن تدعوَ إلى إقامة هدنة، من خلال السفير الإسباني، أثناء النظر في هذه الشروط وعقد الترتيبات الخاصة بمناقشتها.»

«وإذا رفضت؟»

«لن أتهرَّبَ حتى من هذا السؤال. من بين الأعضاء الثلاثة والعشرين في المجلس العمالي الجديد، هناك عشرون عضوًا يُمثِّلون النقابات العمالية للصناعات الكبرى في المملكة. وهؤلاء الأعضاء العشرون سيُعلنون بالإجماع إضرابًا عامًّا، إذا ما رفضتَ الهدنة المقترحة.»

قال السيد ستينسون بنبرةٍ جافة: «بعبارة أخرى، سيُغرقون السفينة بأنفسهم. هل توافق على هذه الخطط؟»

قال جوليان: «أرفض الإجابة عن هذا السؤال، لكنني سأوضح لك أنك مهَّدت الطريق لمثلِ هذه الأزمة حين اعترفتَ بهزيمتك من عمال المناجم في ساوث ويلز.»

أقرَّ السيد ستينسون قائلًا: «قد يكون ذلك صحيحًا. لكنني في هذه اللحظة ليس عليَّ سوى أن أتعامل مع الوضع الحاليِّ للأمور. فهل تعتقد جديًّا أن المجلس العمالي، كما يُطلقون على أنفسهم، سيتخذ التدابير التي يُهدد بها إن أجبتُ بالرد الوحيد الذي يبدو متاحًا أمامي الآن؟»

قال جوليان بنبرة جادة: «أعتقد أنهم سيفعلون. أعتقد أن البلاد تنظر إلى أي استمرارٍ لهذه الحرب على أنه استمرار لمذبحة مروِّعة لا مبرر لها. وتغيير الموقف العسكري على نحوٍ ملحوظ يعني التضحية بملايين الأرواح، ويعني استمرار الحرب عامَين آخرَين. وأعتقد أن الأشخاص المؤثِّرين ذَوي الحيثية في ألمانيا لهم الرأي نفسُه. في رأيي أن التغيير الحتمي للحكومة في ألمانيا سيُبرز أمامنا أمةً متحررة من شهوة الغزو البشعة تلك، أمَّةً حين تتطهر من سموم السنوات المنصرمة يمكننا أن نعيش معها بشكل أخويٍّ ومنفعة متبادَلة.»

قال هاناواي ويلز: «أنت رجل متفائل جدًّا يا سيد أوردين.»

أجاب جوليان: «لم أجد المتشائم قطُّ يمشي ورأسه موجَّه نحو الحقيقة.»

سأله رئيس الوزراء بعد برهة من الصمت: «كم لديَّ من وقتٍ قبل أن أرسل ردِّي؟»

ردَّ جوليان: «أربعٌ وعشرون ساعة، وفي أثناء تلك المُهلة نأمُل أن تتواصل مع حُلفائنا وتمهِّد الطريق نحوَ مزيدٍ من التفاهم. إنَّ المجلس العُمالي لا يطلب منك وعدًا أو التزامًا فيما يتعلَّق بسلامتهم. نحن نعرف جيدًا أننا جميعًا متهَمون بالخيانة من الناحية القانونية. لكن على الجانب الآخر، فإن اتخاذ خطوةٍ واحدة من شأنها تقييد حرياتنا سوف يعني شللًا كاملًا في كلِّ صناعة من صناعات المملكة المتحدة.»

قال السيد ستينسون بجفاء: «أُدرك الموقف تمامًا الآن.» وأضاف: «لا أعرف بالضبط ماذا يمكن أن أقول لك على الصعيد الشخصيِّ يا أوردين، لكن ربما من الأفضل لنا لو أن المجلس اختار سفيرًا يمكن التناقش معه على أي حال. ومع ذلك، أشعر بأن عليَّ أن أذكِّرَك أنك قد أخذتَ على عاتقك واحدًا من أكثر الأعباء المحفوفة بالمخاطر يمكن لرجلٍ أن يحمله، بالنظر إلى أصلك وتعليمك.»

أجاب جوليان بنبرة حزنٍ مفاجئة في صوته: «لقد فكَّرتُ مليًّا في العواقب. أنا أعرف كم السخط الذي تحمله صفة «داعٍ للسلام». وأعرف كم نحن ملتزمون كأمَّةٍ بسلام نظفر به بقوة السلاح. وأعرف كيف يغلي دمُنا الإنجليزي من فكرة ترك دولةٍ أخرى أجنبية تتمتع بالكثير من الميزات العسكرية كالتي تتمتَّع بها ألمانيا. لكنني أشعر أيضًا أن ثمة جانبًا آخرَ للأمر. لقد أحضرتُ لك دليلًا على أننا لا نُقاتل الأمة الألمانية، رجلًا في وجه رجل، إنسانًا في وجه إنسان. في اعتقادي أن الاستبداد وأسرة هوهينتزولرن سيتَداعيان نتيجةً لمفاوضات اليوم، تمامًا كما أنا متأكد من أننا ضحَّينا بالكثير من الأرواح التي لا يعلم عددها إلا الربُّ من أجل تحقيق قدرٍ أكبرَ من الانتصار العسكري.»

هنا دقَّ رئيس الوزراء الجرس.

ثم قال: «أنت رجل مخلص يا جوليان أوردين، ومبعوث محترم. أجِبْهم بأننا سنأخذ مهلتنا في التفكير. هذا يعني أننا سنلتقي في التاسعة من مساء الغد.»

ومدَّ يده مودِّعًا إياه، في فعلٍ جعل جوليان يرحل في حالةٍ أكثرَ سعادة بطريقة ما.

الفصل السابع عشر

في صباح اليوم التالي لزيارته لرئيس الوزراء، كان جوليان مصابًا بقلقٍ مستمر وغريب. فاتجه إلى أرض تيمبل ووجد مايلز فورلي في حجرة تعبق بدخان التبغ ورائحة سهرةٍ استمرت حتى ساعةٍ متأخرة من الليل.

قال جوليان بينما كان الرجلان يتصافحان: «لا يمكنني الشعور بالراحة يا مايلز.»

أقرَّ فورلي: «أشعر بالارتباك نفسِه. لقد جلست هنا حتى الرابعة صباحًا. وجاء فينياس كروس، ونصف دزينة من الآخَرين. شعرت أنَّني لا بد أن أتحدَّث إليهم، لا بد أن أستمرَّ في دراسة الأمر تفصيلًا. نحن على صواب يا جوليان. لا بد أننا على صواب!»

«هذه مسئولية ضخمة. أتساءل ماذا سيقول التاريخ عنا.»

قال فورلي متأوهًا: «هذا أسوأ ما في الأمر. أولئك الذين سيكتبون قدَّاسنا الجنائزي أو رِثاءنا ستكون لديهم نظرةٌ أكثر شمولًا للأمر برمَّته. هل قرأتَ الصحف هذا الصباح؟ إنها جميعًا تُلمح إلى تحركٍ كبير في الغرب. الأمر يتردد في النوادي. بل إنني سمعتُ ليلة أمسِ أننا كنا في أوستيند. الأمر كله تلاعبٌ بالطبع. يريد ستينسون أن يربح بعض الوقت.»

سأله جوليان: «مَن افتتح تلك المفاوضات مع فرايشتنر؟»

«فين. لقد التقاه في مؤتمر جنيف، في العام السابق للحرب. والتقيتُ به أنا أيضًا، لكنني لم أرَه كثيرًا. إنه رجلٌ رائع يا جوليان، على عكس أي ألماني نمطي التقيتَ به قبل ذلك على الإطلاق.»

«إنه شخص نزيه، على ما أعتقد؟»

أجاب بثقة: «كوضَح النهار. لقد دخل السجن مرتين كما تعلم؛ لصراحته في الحديث. إنه الرجل الوحيد في ألمانيا الذي خاض الحرب منذ بدايتها بكل ما أُوتي من قوة.»

أمسك جوليان صديقَه من كتفه.

وقال: «مايلز، أتعتقدُ حقًّا في صميم قلبك أن لدينا ما يُبرر ما نفعله؟»

«لم أشكَّ في ذلك قط.»

«أتُدرك أننا عمليًّا صنعنا ثورة ... أننا أسسنا لديكتاتورية؟ لا بد لستينسون أن ينصاع وإلا فسيُواجه الفوضى.»

قال فورلي: «إنه صوت الشعب ورأيُه. أنا مقتنعٌ بأن لدينا مبررَنا. مقتنعٌ بعدم جدوى استمرار هذه الحرب.»

تنهَّد جوليان تنهيدة ارتياح صغيرة.

وقال: «لا تظنَّ بأنني أتخاذل. تذكَّر أن هذا الأمر جديدٌ بالنسبة إليَّ في الواقع العملي، على الرغم من أنني قد أكون مسئولًا عن جزءٍ من النظرية التي وراءه.»

قال فورلي: «الشعب هو الأصحُّ دائمًا في إدارة سياسة الأمة. فالسياسات العليا تتحوَّل الآن إلى شيءٍ أشبهَ إلى حدٍّ كبير بمباراة شِطرنج مع الوقت؛ فهي محاطة من كل جوانبها بالأصول والسوابق. إن ما نريده هو إنقاذُ الحياة الإنسانية يا جوليان. فالشعب لا يكفُّ عن إدراك المأساة المفجِعة لموت ولو رجلٍ واحد ... رجل واحد له دائرته الصغيرة من الأقارب والأصدقاء. فالمرء يُصيبه النسيان في خضمِّ لعبة الحرب. لقد صار البشر من شتى الأطياف — العمال الكادحين، والعاملين على منضدة النجار، والصيادلة، والمزارعين، وعمال المحاجر — يرتدون الزيَّ العسكري، يتحولون إلى جنود عسكريِّين، ويبدو أن ثَمة شيئًا مختلفًا قد ألمَّ بهم. كثير من الأرواح البشرية تُزهَق كل يوم؛ الجنود هم الخَسارة التي يجب أن ندفعها في سبيل تقدمٍ طفيف أو انسحاب مكلِّف. ويا إلهي، كل واحد منهم أسفل زيِّه الكاكي، بشر! الساسة لا يُدركون ذلك يا جوليان. هذا هو مبررنا فيما نفعل. في اليوم الذي تُوقَّع فيه الهدنة، سوف تنجو عدةُ مئات — وربما آلاف — من الأرواح على أقل تقدير؛ سوف تستمرُّ الشمس في السطوع لعدة مئات من النساء. فكِّر فيما سنجنِّبه للآباء، والمحبين، والأطفال، وكل هؤلاء!»

قال جوليان: «لقد رُدَّت إليَّ الروحُ مجددًا. لنذهب إلى ويستمنستر. ثمة أشياءُ كثيرة أريد أن أسال المسئول التنفيذي عنها.»

انطلقا بالسيارة إلى المبنى الكبير الذي يشغله أعضاء مختلفون من المجلس العمالي. كان لكل ممثلٍ عن كل نقابة مهنية مكتبُه الخاص وطاقمٌ من الموظفين وهاتفٌ خاص. أما فين، الذي حيَّا الرجلين بحرارة مفرطة، فقد نصَّب نفسه دليلًا لهما. فراح يصحبهما من

غرفةٍ إلى أخرى وينتظر فيما يتبادل جوليان الملاحظات مع بعضٍ من المفوضين الذين لم يلتقِ بهم بصفة شخصية.

أوضح فين قائلًا: «كل عضو من أعضاء مجلسنا على اتصال مباشر بالسكرتير المحليِّ لكل مدينة تُمثَّل فيها صناعته. أترى هذه؟»

ثم توقَّف ووضع يده على كومة صغيرة من نماذج البرقيات كُتِب على كلٍّ منها كلمةٌ واحدة.

وتابع فين قائلًا: «هذه البرقيات كلُّها جاهزة لإرسالها في اللحظة التي نسمع فيها من السيد ستينسون ردًّا سلبيًّا. وهذه النماذج مقسَّمة إلى دفعات، وستُرسَل كلُّ دفعة من مكتب بريد مختلف؛ حتى لا يكون هناك أيُّ تأخير. وفي غضون سبع ساعات، على أقصى تقدير، طبقًا لتقديراتنا، سيكون النبض الصناعي للبلاد قد توقف عن الخفقان.»

سأل جوليان: «كم من الوقت استغرق تأليف منظمتك؟»

قال ديفيد ساندز وهو يستدير في كرسيِّه المتحرك عن المكتب الذي كان يكتب عليه: «ثلاثة أشهر بالضبط. وقد بدأنا في مخططنا بعد بضعة أيام من نشر مقالك في جريدة «بريتيش ريفيو». وقد اتخذنا شعارك منطقًا لنا «التنسيق والتعاون».»

شقوا طريقهم إلى قاعة الاجتماعات وعلى مائدة الغداء، في وقتٍ لاحق من اليوم، جاهد جوليان من أجل تحسينِ معرفته بالرجال الذين كانوا يجلسون حوله. كان بعضهم أعضاءً معروفين بالبرلمان، وبعضهم الآخرُ انحصر في نطاقه المحليِّ إلى حدٍّ بالغ، لكنهم جميعًا بدَوا جادِّين وذَوي فطنة ورؤية ثاقبة. بدأ فينياس كروس في الحديث عن الحرب بصفة عامة. كان قد عاد لتوِّه من زيارة مع أعضاء آخرين بحزب العمال إلى الجبهة، رغم أنه ليس من المؤكَّد ما إن كانت نتيجةً تلك الزيارة تتفق تمامًا مع نوايا القُوى التي دعَته.

قال كروس: «سأخبركم بشيءٍ عن الحرب يتناقضُ تمامًا مع كل تجربة أخرى. قلما كان في العالم موضوعاتٌ كبرى لا يتحتَّم عليك أن تتعامل معها كوحدةٍ واحدة وتُقدِّرها بصورة شاملة من أكبر وجهة نظر. أما في الحرب، فالأمر مختلف تمامًا. إذا ما أردتَ أن تفهم ما هو أكثرُ من البديهيات العامة، فعليك أن تنظر إلى جزءٍ واحد فقط من القتال. لنقل إن هناك خمسين رجلًا إنجليزيًّا، من خيرة الرجال، انتُزِعوا من مِهَنهم ووظائفهم كتجَّار متجولين أو حِرفيِّين صغار أو عمال، وما إلى ذلك، واختلطوا مع عددٍ مماثل لهم من الألمان. إن أولئك الألمانَ ليسوا بالشياطين الذين نقرأ عنهم. فهم لا ينضَحون بالنزعة العسكرية. ولا يرغبون في السيطرة على العالم بأسرِه. إن لديهم الميولَ نفسَها، والنظرة

العامة نفسها تجاه الحياة كالرجال الإنجليز الذين أجبرتهم يدٌ حديدية على بذلِ أقصى ما لديهم لقتلهم. وأولئك الرجال الإنجليز لم تكن لديهم رغبةٌ في قتلِ أحد مثلهم في ذلك مثل الألمان. بل كانوا مضطرِّين لفعل ذلك أيضًا؛ لأن ذلك ببساطة كان جزءًا من اللُّعبة. رأيتُ هناك مجموعةً من الأسرى الألمان، وكانوا يتحدَّثون مع حارسهم ويتبادلون معه السجائر. كان أحدُ أولئك حلَّاقًا في بلدة ريفية. وكان الرجل الذي يُصاحبه لحراسته حلَّاقًا إنجليزيًّا. ويا للعجب، كان الرجلان يتحدثان بابتهاجٍ وحماسة! لم يكن ذلك الحلاق الألماني يريد أي شيء في الحياة سوى وَفْرة من الطعام والشراب، وأن يكون زوجًا ووالدًا صالحًا، وأن يدخر ما يكفي من المال لشراء منزل صغير له. وكان الإنجليزي مثله تمامًا. كان الإنجليزي سيتخذ الألماني رفيقًا له في يومِ صيد أو في نُزهة في الريف، كما كان سيفعل أي شخص آخر. لم يكن أيٌّ منهما يحمل ضغينةً تجاه الآخر. فأين بحق الجحيم روحُ الكراهية هذه؟ فلتكمل مسيرتك، ميلًا بعدَ الآخر، وستجد أن معظم مجموعات الرجال الصغيرة التي يواجه بعضها بعضًا على الحال نفسِه. ستجد هنا وهناك شعورًا بالمرارة من قتالٍ يبدو جائرًا وبلا حق، لكن هذا لا شيء. تظل الحقيقة أن أولئك الملايين من الرجال لا يكرهون بعضهم بعضًا، وأنه لا يوجد ما يكره بعضُهم بعضًا لأجله، وأنهم منقادون لذبح بعضهم البعض كالحيوانات الضارية. ومن أجل ماذا؟ ربما يمدُّك السيد ستينسون بإجابة هذا السؤال. وربما يمدُّك بها محرِّروك العظماء. وقد يكون جنرالاتك العظام لَبِقين في الإجابة. يمكنهم أن يكتبوا في ذلك مجلدات، لكن ما من شيء فعليٍّ في كلامهم. في رأيي أنه ليس هناك مَدْعاة للقتال في هذا الجيل، وما كان ينبغي أن يكون هناك أيُّ قتال.»

قال جوليان: «أنت لستَ محقًّا فقط، بل محقٌّ بصورة مذهلة يا سيد كروس. هذا حديث إنساني.»

أجاب كروس ببساطة: «إنما هي كلمات وأفكار رجل عادي.»

قال فين متذمرًا بصوته الرفيع: «ولكنني إن تحدَّثتُ بهذا الشكل، يَصِفوني بأنني نصيرٌ للسلام، وينهض الكثير من المشاغبين ويشرعوا في غناء «لِتَسُدْ بريطانيا» ويُحاولوا طردي من القاعة التي أتحدَّث فيها.»

أشار كروس وهو يضع كأس الجِعَة التي كان يشرب منها، قائلًا: «أترى، ثمة اختلافٌ أيها الفتى. في بعض الأحيان تتحدَّث بذلك الحديث الجبان حول عدم رد الصاع إن كان هناك مَن يريد إيذاءك، وتجرُّ ضميرك ووجدانك إلى ذلك، وتُردد أن كل الناس إخوةٌ وما إلى ذلك من اللغو والهراء. والإنجليزي الأصيل لا يحبُّ ذلك؛ لأننا جميعًا نريد أن نحميَ

ما لدينا، بأي شكل وبأي ثمن. لكن هذا لا يُغيِّر حقيقة أن ثمةَ خَطبًا في العالم حين نُساق إلى القيام بهذه الحماية على نطاقٍ شامل، ونُرغَم على القتل على نطاقٍ لا يُمكن أن يتخيَّله أو يفكِّر فيه سوى الشياطين. إن مَن هم على رأس السلطة هم المسئولون عن هذه الحرب، وحين يأتي الشعب ليُحاسبهم، سيقولون إن المسئولية مُلقاةٌ على عاتق كلِّ مسئول في حكومات القُوى المتقاتلة، لكن كانت ثَمة مسئولية أكبرُ بكثير على الألمان أكثرَ من غيرهم، وهذا هو السبب في أن مئات الآلاف من شبابنا ممَن أبغَضوا الحرب، وكان شعورهم حيالها مثلَ شعوري، ذهبوا إليها وأدَّوا دورهم وأبقَوا أفواههم مغلقة.»

قال فين مجادلًا: «لا يمكنك أن تُنكر أن الحرب مناقضة للمسيحية.»

أجابه كروس وهو يغمز بعينه لجوليان الجالسِ في الجهة الأخرى من الطاولة: «لا أعرف يا فتى. يبدو لي أنه كان هناك الكثيرُ من القتال العنيف في العهد القديم، وكان الربُّ في العموم منحازًا لجانبٍ أو لآخر. لكنني لن أدخلَ معك في جدال وتشاحُن يا سيد فين. إن أول قرار اتخذه هذا المجلس، حين ضمَّ أكثرَ من دُزينة منا على اختلاف أساليبنا في التفكير، كان أن نغلق أفواهنا على أفكارنا ونلتزم بالمخطط. ولذا أعطني حفنة من التبغ من غليونك، وسنتناول فنجانًا من القهوة معًا.»

وضعَ كيس التبغ الخاصَّ بجوليان أولًا على الطاولة، وقام الرجل من نورث آمبر بملء غليونه بتؤدة.

قال في نبرةِ استحسان وهو يُعيد التبغ إلى جوليان: «إنه تبغٌ من نوع جيد يا سيدي. إنني أتحول إلى رجلٍ مسالم إلى حدٍّ بعيد بعد العشاء ...» وأضاف وهو ينظر إلى السكرتير وهو يبتعد عنهم: «حتى حين يأتي فين مثرثرًا. لكنني لا أُخفي هذا. لقد أدركتُ منذ البداية أن هذا الدمج لكلِّ الفئات العمالية مقترحٌ رائع. إنه يجعل منا قوة، رغم أنه قد يجعلنا على مَشارف الثورة كما قلت أنت يا سيد أوردين في أحد مقالاتك. لكن هذا هو كل ما أمكنني فعله من أجل أن أحمل نفسي على الجلوس إلى الطاولة نفسِها مع فين وصديقه برايت.» ثم أوضح قائلًا: «كما ترى، فهناك لحظاتٌ تُضطر فيها إلى فعل شيء ترفضه من الأساس وتعرف أنه خطأ. إنني أستهجن هذه الحرب وأرفضها، وأعرف أنها خطأ؛ إنها فوضى مَقيتة جرَّنا إليها أولئك الذين كان يُفترض أنهم يعرفون أكثر، لكنني لستُ مثل فين في هذا الصدد. إننا نخوضُ هذه الحرب وينبغي لنا أن نخرج منها، ليس كالجبناء وإنما كإنجليز، ولو كان القتال هو السبيلَ الوحيد للخروج، لأيدتُ القتالَ حتى الرمق الأخير. ولحُسن الحظ، استطعنا أن نتواصل مع العقلاء من الجانب الآخر. ولو لم نكن قد تمكنَّا

من ذلك ... حسنًا، لن أقول أيَّ شيء آخر سِوى أنَّ لي ولدَين يخوضان الحرب وأحدهما مدفون في إبرس، ولديَّ ولدٌ ثالث يتدرَّب على القتال رغم أنه ما زال صغيرًا للغاية.»

قال جوليان: «لقد أفدتَني أكثر من أي شخص تحدَّثتُ معه منذ بداية الحرب يا سيد كروس.»

أجابه كروس: «هذا صحيحٌ يا فتى. فأنت تسمع لحديث شخص واحد، وليس ذلك فقط، بل هو حديث مليون شخص آخَرين خلفي، يُشاركونني الشعور نفسه.» ثم أضافَ وهو يجول ببصره عبر الغرفة ويخفض صوته قليلًا: «لكن احذَر من ذلك الشيطان المخادع فين. فهو لا يحمل لك أيَّ نوايا طيبة.»

قال جوليان وقد استغرقَ في الذكريات: «لم يكن سجَّانًا حسَن الضيافة.»

تابعَ كروس قائلًا: «أنا لا أتحدَّث عن ذلك فقط. فلم يكن بيننا مَن لم يُصوِّت لصالح انتزاع تلك الوثيقة منك بطريقةٍ أو بأخرى، ولو تطلَّب الأمر ليَّ عنقك من أجل الحصول عليها، فلا أدري مَن كان سيتردد في ذلك؛ ذلك أنك كنت تقفُ حائلًا بيننا وبين غايتنا الأسمى. لكن فين وذلك الحقير الفظ المدعو برايت لا يُؤتمَنان في رأيي، ويبدو لي أنهما ينتقدانك دومًا. فمن ناحيةٍ كان فين يُعوِّل على أن يكون رئيسَ هذا المجلس، وهناك أمر تلك المرأة الشابة من ناحية أخرى، أليس كذلك؟»

كرَّر جوليان متسائلًا: «امرأة شابة؟»

أومأ كروس بالإيجاب.

«تلك الشابة الروسية، الآنسة آبواي. كما تدعو نفسها. فقد كان فين طوعَ بَنانها؛ فيصطحبها لتناول العشاء بالخارج وما إلى ذلك. أردتُ فقط تحذيرك، هذا كل ما في الأمر. أنت جديدٌ بيننا يا سيد أوردين، وقد تظن أننا جميعًا رجالٌ شرفاء. لكن في الواقع، لسنا جميعًا كذلك؛ هذا كل ما في الأمر.»

استعاد جوليان وعيه بعد نوبةٍ من الذهول اللحظي.

وقال: «أنا مَدين لك كثيرًا لصراحتك وسلامة نيتك يا سيد كروس.»

قال الرجل القادم من نورث آمبر في رجاء: «يمكنك أن تتغاضى عن كلمة «سيد» هذه يا سيدي.»

ردَّ جوليان مبتسمًا: «وأنت كذلك يمكنك أن تتغاضى عن كلمة «سيدي».»

أقرَّ كروس قائلًا: «خيرُ الأمور الوسط. وبما أننا تطرَّقْنا إلى هذا الموضوع يا صديقي الجديد، فاسمح لي أن أُخبرك بالآتي. إنني لكي أشعر بالارتياح التامِّ تجاه هذا المجلس، يوجد ثلاثة أشخاص أرغب في رؤيتهم خارجه: فين وبرايت وتلك الآنسة الشابة.»

بادره جوليان متسائلًا: «ولمَ الآنسة الشابة؟»

أجابه الآخر: «وربما تسألني أيضًا «لماذا فين وبرايت»؟» واستدرك: «وسوف أُجيب عن السؤال. كما تعرف، نحن أهل الشمال نؤمن بالخرافات، ونُصدق حَدْسنا بشدة. وكل ما يمكنني أن أُخبرك به هو أنني لا أثق في أيٍّ من هؤلاء الثلاثة قِيدَ أنملة.»

قال جوليان معترضًا: «لكن الآنسة آبواي فوق مستوى الشبهات بلا شك، أليس كذلك؟» وأردفَ: «لقد تخلَّت عن مكانةٍ اجتماعية مرموقة، وكرَّسَت الجزء الأكبر من ثروتها لخدمة القضايا التي نُناضل أنا وأنت ونحن جميعًا من أجلها.»

قال كروس: «هناك الآن الكثير من الأعمال التي عليها القيامُ بها في روسيا.»

قال جوليان مذكِّرًا إياه: «ليس هناك شخصٌ واحد ذو أصول نبيلة يمتلك أدنى فرصةٍ للعمل بكفاءة في روسيا في الوقت الراهن. بالإضافة إلى ذلك، فإن الآنسة آبواي نصفُ إنجليزية. وبخذلانها لروسيا، فمن الطبيعي أن تختار هذا البلد لتُسديه أكبرَ قدر ممكن من النفع والخير.»

بدا الرد الذي كان سيردُّ به الآخر وقد تلاشى عن شفتيه. وانعقد حاجباه الأشعثان قليلًا بينما كان ينظر تجاه الباب. تبعَ جوليان نظراته إلى حيث كانت تتَّجه. ودلفت كاثرين إلى الغرفة وراحت تجول بنظرها في أرجائها وكأنها تبحث عن أحد.

كانت كاثرين تضع حجابًا كثيفًا أكثرَ من المعتاد. وكان فستانها وقبعتها بلونٍ أسودَ قاتم، وكانت أكثرَ قلقًا واضطرابًا في أسلوبها. اقتربت كاثرين ببطءٍ نحو الطرَف الذي كانا يجلسان إليه من الطاولة، على الرغم من أنه كان واضحًا أنها تبحث عن شخص آخر.

وقالت متسائلة: «أتعرفان أين السيد فين؟»

رفعَ جوليان حاجبَيه مندهشًا.

وأجابها قائلًا: «كان هنا قبل بِضع دقائق، لكنه تركنا فجأة. أظنُّ أنه استهجن محادثتنا.»

قالت كاثرين: «ربما ذهب إلى غرفته. سأصعد إلى الطابق العلوي.»

واستدارت لكي تنصرف. لكن جوليان تبعها إلى الباب.

وسألها قائلًا: «هل سأراكِ مرة أخرى قبل أن تُغادري؟»

«بالطبع، إذا كنت ترغب في ذلك.»

ساد صمتٌ ملموس بينهما لحظة.

ثم تابعت كاثرين الحديث قائلة: «ألن تصعد معي إلى غرفة السيد فين في الطابق العلوي؟»

«ليس إن كنتِ تُريدينه في أمر شخصي.»

بدأت كاثرين تصعد الدرج.

وقالت: «ليس بأمرٍ شخصي، لكنني أريد من السيد فين أن يُخبرني شيئًا ما بالتحديد، وهو — كما تعرف — شخصٌ غريب الأطوار. ربما كان من الأفضل أن تنتظرني بالأسفل إن كنت لا تُمانع.»

كان رد فعل جوليان غامضًا بعضَ الشيء. لكن كاثرين تركَته من دون أن يبدوَ عليها أنها لاحظت تردده وطرقَت باب غرفة فين. وجدته جالسًا خلف مكتبه، ويملي بعض الخطابات على كاتبٍ على الآلة الكاتبة، وقد لوَّح له فين بالانصراف لدى دخولها عليه.

صرَّح فين في حماس: «أنا مسرورٌ لرؤيتكِ يا آنسة آبواي، بل في غاية السرور! تعالي واجلسي من فضلك، وحدِّثيني. كان صباحنا اليومَ حافلًا. وعلى الرغم من أن الآلة جاهزة للبدء في العمل، فإنها في حاجة إلى يدٍ يقظة طوال الوقت.»

غاصت كاثرين في الكرسي الذي أزالت عنه كومةً من الأوراق ورفعت حجابها.

وأقرَّت قائلة: «أتيتُ لرؤيتك يا سيد فين؛ لأنني في غاية القلق.»

نكَصَ فين بعضَ الشيء. وضاقت عيناه. وأصبح أكثرَ حذرًا في سلوكه.

وكرَّر قائلًا: «قلقة؟» وأردفَ: «حسنًا، ما الأمر؟»

«أريد أن أسألك: هل وصلك أيُّ شيء من فرايشتنر خلال اليوم أو اليومين المنصرمين؟»

تجمَّد وجه فين. كان ما زال لا يُظهر أيَّ علامة انزعاج، فقط كان صوته غير طبيعي تمامًا.

وكرَّر مفكِّرًا: «خلال اليوم أو اليومين المنصرمين؟» ثم أردف: «لا، لم يصلني منه شيءٌ يا آنسة آبواي. لستُ في حاجة إلى أن أُذكِّرك بأننا لا نُخاطر بالتواصل إلا حين تقتضي الضرورة ذلك.»

قالت كاثرين في رجاء: «هَلا تحاول التواصل معه في الحال؟»

سألها فين رامقًا إياها بنظرة متفحصة: «لماذا؟»

قالت كاثرين: «ذات مرة كتبَ أحدُ كتَّابِنا الروس يقول إن هناك ألفَ دوامة في تيارات الفرص. وقد صادفتُ إحداها اليوم أو بالأحرى أمس. إن فرايشتنر شخصٌ فوق مستوى الشبهات، أليس كذلك؟»

أجابها في ثقة: «بل يفوق مستواها بكثير. وأنا لستُ الشخصَ الوحيد الذي يعرفه. اسألي عنه الآخرين.»

فألحَّت في سؤالها قائلة: «أتظن أن من الممكن أن يكون قد تعرَّض للخداع؟»

«بأي شكل؟»

أردفت كاثرين في لهفة: «فيما يتعلَّق بقوته، بقوة حزبه. أتظن أن من الممكن أن يكون الإمبرياليون قد تظاهَروا بأنهم يرَون فيه عنصرًا أهمَّ بكثير في هذا الموقف يفوق أهميته الحقيقية؟ أن يكونوا قد تظاهروا بالإذعان لشروط السلام تلك بنيَّةِ نقضها بمجرد أن نتمادى ونتجاوز كلَّ الحدود؟»

بدا فين وقد انكمش في كرسيِّه للحظة. وتاهت عيناه أمام نظراتها القوية. وانقصم حاملُ الأقلام الذي كان يُمسكه بين أصابعه. ومع ذلك كان صوته هادئًا متماسكًا.

وقال معترضًا: «عزيزتي الآنسة آبواي، مَن أو ما السبب في إثارة هذه الأفكار في رأسكِ؟»

فأجابته: «تسبَّبت فرصةٌ حقيقية أمسِ في أن أتواصل مع رجل — من المحايدين — من المفترض أنه على معرفة وثيقة بما يحدث في ألمانيا.»

تساءل فين في لهفة محمومة: «وما الذي أخبركِ به؟»

أقرَّت كاثرين قائلةً: «لم يخبرني بشيء. لم يكن لديَّ شيءٌ أردُّ به سوى رفعِ حاجبي في حيرة واستغراب. لكنني خرجتُ من الموقف بشعور من الاضطراب وعدم الارتياح. ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر بالبؤس. وما زلت بائسةً إلى الآن. أناشدك أن تتواصل في الحال مع فرايشتنر. يمكنك أن تفعل ذلك الآن دون أي مخاطرة. اطلب منه فقط تأكيدًا على الموقف الراهن.»

وعدها فين قائلًا: «هذا أمرٌ سهل للغاية. سأفعل ذلك دون تأخير.» ثم أضاف وهو يمسح شفتَيه الجافتَين بلسانه: «لكن في تلك الأثناء، ألا يُمكنكِ أن تعرفي ما يرمي إليه هذا الرجل، أو هذا المحايد؟»

أجابته قائلة: «للأسف لا يُمكنني ذلك، لكن سأحاول. لقد دعوتُه على العشاء الليلة.»

«إذا ما عرَفتِ أيِّ شيءٍ، فمتى ستُعلمينا به؟»

وعدَته قائلة: «في الحال. سأتصل بالسيد أوردين هاتفيًّا.»

فقدَ فين السيطرة على نفسه للحظة.

وسألها في انفعال: «لماذا السيد أوردين؟» واستطرد: «إنه أصغرُ أعضاء المجلس. ولا يعرف شيئًا عن مفاوضاتنا مع فرايشتنر. أنا الشخص الذي عليكِ أن تتواصلي معه بالتأكيد، أليس كذلك؟»

قالت مذكِّرة إياه: «سيكون ذلك في ساعة متأخرة جدًّا من المساء، والسيد أوردين صديقٌ شخصي لي، خارج نطاق المجلس.»

سألها فين في شراسة: «وأنا لست كذلك؟» وأردفَ: «أريدُ أن أكون صديقًا شخصيًّا لكِ. لقد حاولتُ أن أكون كذلك.»

ويبدو أنها وجدَت انفعاله مثيرًا للقلق، فانسحبت بعضَ الشيء بعيدًا عن الأصابع المتلئةِ بالبقع الصفراء التي حاولت أن تتسلل إليها.

وقالت مراوِغةً إياه: «نحن جميعًا أصدقاء. ربما لو كان هناك أي شيء ذا بال، حينها سآتي إليك أو سأرسل لك.»

هبَّ فين واقفًا، ولم يبدُ تصرفه هذا من باب اللباقة؛ إذ كانت تهمُّ بالمغادرة، بقدر ما كان بنية الاقتراب منها أكثر. غير أنه جلس فجأةً مرة أخرى، وقبضَ أصابعه معًا في الهواء وبدا وجهُه شاحبًا بصورة شنيعة.

سألته قائلة: «هل تشعر بتوعك يا سيد فين؟»

صبَّ لنفسه كوبًا من الماء بأصابع مرتعشةٍ وراحَ يشربه بغير ثبات.

وقال: «أعتقدُ أنها الأعصاب. لقد اضطُررت إلى تحمل عبءِ هذه المفاوضات كاملًا على عاتقي، ولم أحصل إلا على نذرٍ يسير من المساعدة، ودون أي تعاطف مُرضٍ.»

تعارضت دفقة لحظية من الشفقة مع نفورها الشديد من الرجل.

وقالت محفزة إياه: «لا بد أن تتذكَّر أن ما تقوم به عملٌ مجيد، وأنك تحظى بتعاطفنا وامتناننا.»

فتساءل فين في فورة انفعال بسيطة أخرى: «حقًّا؟» وأردف: «امتنان، حقًّا! لو كان المجلس يشعر بالامتنان، فلمَ لم يقع الاختيار عليَّ لمخاطبة رئيس الوزراء بدلًا من جوليان أوردين؟ التعاطف! لو كان لديكِ شيء منه — وأنتِ الشخص الوحيد الذي أرغب في تعاطفه — فلِم لا يُمكنكِ أن تكوني أكثرَ لطفًا معي؟ لمَ لا تستجيبين، ولو قليلًا، لما أُكنُّه تجاهكِ من مشاعر؟»

تردَّدت كاثرين لحظة، باحثةً عن أقل الكلمات إيذاءً لمشاعره. ونظرًا إلى كونه شخصًا أخرق كعادته، فقد أساء فهمها.

ثم مضى يقول في لهفة: «ربما تعثَّرتُ قليلًا في مسيرتي، لكن اللُّعبة لم تنتهِ بعد. صدِّقيني، ما زال لديَّ أوراق مؤثِّرة في جُعبتي. أعلم أنكِ معتادة على الرغد والثراء.» وأردفَ خافضًا صوته إلى همسٍ أجش: «آنسة آبواي، لم أكن أتباهى أو أتفاخر في تلك الليلة. لقد ادخرتُ أموالًا، وضاربتُ في البورصة وحالفني الحظ ... أنا ...»

خنقت النظرةُ التي لاحت في عينَيها استرسالَه البليغ. فتوقَّف عن الكلام، وحَلَّ به صمتٌ واجم.

قالت كاثرين: «سيد فين، للمرة الأخيرة، هذا النوع من الحديث بغيضٌ إلى نفسي. أنا لا أفهم قدرًا كبيرًا مما تقول. وما أفهمه منه يُشعرني بالنفور.»

ثم تركته وعلى محياها نظرةٌ مبهمة. لم يحاول فين أن يفتح لها الباب. بل وقف يتسمَّع خطوات أقدامها وهي تبتعد، واستمع إلى أصوات جرس استدعاء المصعد الحادَّة، واستمع للمصعد نفسِه وهو يُقعقع في طريقه للأسفل. ثم عاد إلى كرسيه وجلسَ إلى مكتبه. ولم يكن مظهرُه يَسرُّ الناظرَ إليه بأي حال؛ إذ عقد يدَيه معًا في حركة عصبية، وكانت هناك بقعةُ حبر على وجنته، فيما كان فمه مفتوحًا بعضَ الشيء كاشفًا عن أسنانه المشوَّهة وغير المنتظمة.

نفخَ فين في بوقٍ بجانبه وتمتم بأمر غير مفهوم. وفي غضون دقائق معدودة جاءَ برايت.

قال الأخير باقتضاب وهو يُغلق الباب خلفه: «أنا مشغول.»

فجاء الرد الصارم: «ستكون مشغولًا أكثرَ في غضون دقائق قليلة. ثمة شيءٌ يدعو إلى الريبة.»

وقفَ برايت بلا حَراك.

وسأله بعد أن سكت لحظة: «هل هناك مَن أزعجك؟»

فأعطاه فين أمرًا مقتضبًا قائلًا: «انزل إلى مكتبك في الحال. واطلب من أحدهم تتبُع الآنسة آبواي. أريد تقاريرَ عن تحركاتها في كل ساعة. سأظل هنا طوال الليل.»

ابتسم برايت ابتسامة مقيتة.

«شمشون آخر، صحيح؟»

فجاء ردُّ فين عنيفًا: «اذهب إلى الجحيم، وافعل ما أُمِرت!» وأردفَ: «عيِّنْ أفضل رجالك لهذه المهمة. لا بد أن أعرف، لأجلنا جميعًا، اسمَ الشخص المحايد الذي ستُقابله الآنسة آبواي الليلة والذي تتبادلُ معه الأسرار.»

هزَّ برايت كتفَيه وغادر الغرفة. وأضاء نيكولاس فين المصباح الكهربائي، وأخرج من درج مكتبه دفترَ حساب مصرفيًّا، وبعد أن ألقى به في النار، راحَ يُراقبه حتى التهمته تمامًا.

الفصل الثامن عشر

جلسَ البارون هيلمان في ارتياح إلى طاولة العشاء المستديرة المزيَّنة ببراعة بين كاثرين من أحد الجانبين وسيدةٍ أخرى لم يتم تقديمه لها على الجانب الآخر منه، وراح يتأمل قائمة الطعام من خلف نظارته الثابتة في تؤدة، ثم فتح فوطة المائدة الخاصة به وواصل حديثه مع مضيفته الذي كان الإعلان عن العَشاء قد قطعه.

أقرَّ قائلًا: «أنتِ محقة تمامًا أيتها الأميرة.»

«إن موقف المحايدين، لا سيَّما في العالم الدبلوماسي، يصبح صعبًا إلى أقصى الحدود في حالة حربٍ كهذه، وفي بعض الأحيان يكون مثيرًا للإحراج. فالحفاظ على توجه سليم وصحيح غالبًا ما يُسبِّب ضغطًا شديدًا على قدرة المرء على ضبط النفس.»

أومأَت الأميرة في تعاطف.

ثم أسرَّت إلى الجنرال الذي اصطحبها إلى العشاء: «إن هذا البارون شابٌّ جذاب للغاية. كنت على معرفة وثيقة بأبيه وعمه في تلك الأيام السعيدة التي سبقَت الحرب، حين كان المرءُ معتادًا على التنقُّل من بلد إلى آخر.»

قال الجنرال الذي كان يكره الأجانب كلَّهم: «إنَّ له ملامحَ دبلوماسية.» ثم تابعَ في شيءٍ من التعصُّب الطفيف: «من سوء حظهم أن الأوروبيين المحايدين جميعًا، سواءٌ الهولنديون، أو الدنماركيون أو النرويجيون أو السويديون، يشبهون الألمان أكثرَ مما يُشبهون الإنجليز.»

التفتَ البارون تجاه كاثرين وشرَع في مجاملة هامسة. كانت ترتدي فستانًا رائعًا من المخمل الأسود من طرازِ حقبةِ ما قبل الحرب، وكان يلتصق بجسدها لكنه لم يكن يُقيِّد قوامها الطبيعي المشوق بأي شكل. ومن عنقها تدلَّى عِقد من اللؤلؤ، وكان هو الشيء الوحيد الذي تتزيَّن به.

أقدم البارون في جُرأة يقول: «هل تسمحين لي أيتها الكونتيسة أن أعبر عن إعجابي برِدائكِ، أليس كذلك؟»

قالت مذكِّرةً إياه بابتسامة: «هذا غير معتاد في إنجلترا، لكن لكونك صديقًا قديمًا للعائلة، فسنسمح بذلك. إن هذا الرداء، في الواقع، هو آخِر ما اشتريتُ من باريس. أما الآن، صار المرء يفكِّر في أشياء أخرى.»

فعلَّق قائلًا: «أنتِ واحدة من النساء القليلات اللائي ينخرطن في الأمور الجِسام، ولكنهن يحتفظن بأنوثة طاغية.»

قالت متنهِّدة: «الأمور الجسام لا تسرُّني الآن.»

أجابها قائلًا: «لكنها مثيرةٌ للاهتمام. إنَّ الجو العام في هذه اللحظة مثير ومشحون بكل أنماط الاحتمالات الغريبة. لكننا نتحدث بجِدِّية أكثرَ من اللازم. ألن تُعلميني بأسماء بعض ضيوفكم؟ إنني أعرف الجنرال كروسلي بالفعل.»

قالت في شيء من اللامبالاة: «إنهم غيرُ مهمين كثيرًا حقًّا. هذا التجمع هو تجمعُ مساء الجمعة الخاص بعمتي، وهم جميعًا أصدقاؤها. هذه هي الليدي مالتينبي الجالسة قُبالتك، وزوجها هو الجالس على الجانب الآخر من عمتي.»

كرَّر البارون قائلًا: «مالتينبي. آه، أجل! لهما ابنٌ برتبة عميد، أليس كذلك؟ وهناك آخرُ نراه في أرجاء البلدة في بعض الأحيان، اسمه السيد جوليان أوردين.»

«هذا هو الابن الأصغر.»

واصل البارون حديثه قائلًا: «هل أتخطى حدود الصداقة أيتها الكونتيسة لو تساءلتُ بشأن إن كان هناك شائعةُ خِطبة بينكِ وبين السيد أوردين قد سرَت قبل بضعة أيام؟»

أقرَّت قائلةً: «سرَت هذه الشائعة بالفعل، لكن لم يتقرَّر شيءٌ في الوقت الحالي. فللسيد أوردين عاداتٌ غريبة. لقد اختفى عن الجميع تمامًا قبل بضعة أيام، وعاد لتوه فقط.»

«كان يعمل في الرقابة على المطبوعات، أليس كذلك؟»

صدَّقَت كاثرين على كلامه بقولها: «شيءٌ من هذا القبيل. لكنه ذهبَ إلى فرنسا وأبلى بلاءً حسنًا للغاية. لقد فَقَدَ قدمه هناك.»

علَّق البارون قائلًا: «لاحظتُ أنه يستخدم عكازًا. ودائمًا ما أجده شابًّا ذا مظهر مميَّز ولطيف.»

أكملَت كاثرين تقول: «حسنًا، هذا هو السيد بريثويتر الكاتِب المسرحي، على اليسار قليلًا، ذلك الرجل ذو الشعر الرمادي الناعم والنظارة. وبالطبع تعرف السيدة هاملتون بيردزمور؛ زوجها قائد كتيبة في مصر.»

«والسيدة الجالسة إلى يساري؟»

«الليدي جرايسون. تأتي من الريف مرةً كل شهر لشراء الطعام. لا تُلقي لها بالًا. إنها صمَّاء وتُفضِّل تناول الطعام على الكلام.»

أقرَّ البارون بتنهيدة خفيفة: «أشعر بالراحة كثيرًا. لقد تحدَّثتُ معها ونحن نتخذ مجالسنا، لكنها لم تُبدِ ردًّا. ورحتُ أتساءل إن كنت قد أسأت إليها.»

تابعت كاثرين قائلةً: «الرجل الجالس بجواري هو السيد ميلسون جراي. إنه مليونير أمريكي، وهو هنا ليدرس مناهجَ جمعية الشبان المسيحيين. ولا يتحدَّث في أي شيء في العالم إلا عن أكواخ جمعية الشبان المسيحيين والاستثمارات الأمريكية، وهو جائع للغاية.»

قال البارون: «تبدو الظروف مواتيةً لمحادثة خاصة.»

ابتسمَت كاثرين في وجهه الهادئ. كان النبيذ قد لوَّن وجنتيها بلون وردي خفيف، وتنهَّد الشاب في أسفٍ لفكرة خِطبتها المحتمَلة. فطالما كان أحدَ أشدِّ معجبي كاثرين وكان إعجابه واضحًا وصريحًا.

سألته كاثرين: «لكن فيمَ سنتحدَّث؟» وأردفت: «إنَّ شفتَيك دائمًا ما تنغلقان في الموضوعات المهمة حقًّا. أنت مدهش فيما يتعلق بالكتمان والحذر أيها البارون، حتى معي.»

«ربما هذا لأنكِ تُخفين شخصيتكِ الحقيقية تحت الكثير من الأسماء المستعارة.»

تمتمَت قائلة: «ينبغي أن أُعيد التفكير في ذلك.»

تابعَ البارون حديثه قائلًا: «أنتِ سيدة راقية تنتمين للطبقة الأرستقراطية. ويمكنني إلى حدٍّ كبير أن أتفهم أنكِ وجدتِ مكانتكِ في روسيا غيرَ متوافقة مع الأفكار الحديثة. والأرستقراطية الروسية، واغفري لي ذلك، بصدد مواجهة مرحلة سيئة فعلَت أفضلَ ما في وسعها بما جعلها جديرةً تمامًا بأن تمرَّ بها. لكن بالكاد يمكنني أن أتفهَّم مكانتكِ في إنجلترا. لقد أتيتِ هنا إلى بلدٍ يحكمه حكومة رشيدة، بلد يحكمه الشعب ومن أجل الشعب من كل الأوجه العملية. لكنكِ هنا وفي غضون عامَين فقط صنعتِ من نفسكِ واحدة من أنصار الديمقراطية. فلماذا؟ الناسُ هنا لا يلقَون معاملة سيئة. بل على النقيض، يمكنني القول إن الناس هنا مدلَّلون.»

قالت كاثرين في جدية موضحة: «أنت لا تفهم. في روسيا كانت الطبقة الأرستقراطية هي مَن تضطهد الشعب على نحوٍ خبيث ومخجل. أما في إنجلترا، فإن الطبقة البرجوازية هي مَن تحكم البلاد وتحجب الرؤية عن الطبقة العاملة. إن الانتهازيين والرأسماليين الجُدد والوسطاء هنا هم مَن أصبحوا قوةً قبيحة ومسيطرة. الطبقة العاملة تملك الوسائل

التي تُمكِّنها من تأكيد وجودها والمطالبة بحقوقها، لكنهم لم يمتلكوا أبدًا القادة أو التدريب من أجل القيام بذلك. كان ذلك هو موضوع محاضراتي هنا منذ البداية. أريد أن أُعلِّم الناسَ كيف يسحقون الوسطاء. أريد أن أوضِّح لهم كيف يكتشفون قوتهم وكيف يستفيدون منها ويستغلونها.»

تساءل البارون: «ألا ينطوي ذلك على شيءٍ من الخطورة؟» وأردفَ: «فقد تُثيرين بذلك حالة من الفوضى بسهولة.»

أقرَّت قائلة: «ربما لبعض الوقت، لكن لن تستمر أبدًا وقتًا طويلًا. كما تعلم، فالإنجليز يتمتعون بصفة فائقة؛ وهي أنهم يمتلكون المنطق السليم والفطرة. فهم ليسوا بمثاليين كالروس. إن الرجال الذين أنخرط معهم لا يسيرون ورءوسهم نحوَ السماء ولا يخوضون في الوحل. إنما ينظرون أمامهم فقط، ويطلبون ما يرونه ممكنًا.»

غمغم البارون قائلًا: «فهمت. والآن وقد وصلنا إلى هذه المرحلة في حديثنا اسمحي لي أن أسألكِ. هل تقرَئين الصحف؟»

قالت مؤكِّدة: «بدأب.»

«هل لاحظتِ نبرة اضطرابٍ غريبةً جدًّا خلال الأيام القليلة الماضية؛ تلميحات إلى أزمة في الحرب لا يبدو أن لها مبررًا في الموقف العسكري، إشارات مبهمة ولكنها كئيبة إلى حدٍّ ما إلى سلام مبكِّر؟»

قالت كاثرين موافقةً إياه الرأي: «الجميع يتحدَّث عن ذلك. وفي ظني أنني وأنت لدينا فكرة ما عمَّا يَعنيه ذلك.»

سألها البارون في هدوء: «أحقًّا؟»

تابعت كاثرين وقد أخفضَت صوتها قليلًا: «وأعتقد، بطريقةٍ ما، أن ما تعرفه يتخطَّى ما أعرفه أنا بكثير.»

لم يُصدِر البارون أيَّ إشارة، ولم يُبدِ ردًّا. فقد جاءه سؤالٌ من شخص على الجانب الآخر من الطاولة يتعلق بفعلٍ أتاه أحدُ وزراء بلاده. فأجابَ البارون عليه وانجرفَ بصورة سلسة وطبيعية تمامًا إلى حديث عام. ومن دون أي جهد واضح، بدا راغبًا في إنهاء محادثته الخاصة مع كاثرين. لم تُظهر كاثرين أي دلالة إحباط أو خيبة أمل، بل سايرته في الحديث وبذلَت محاولاتٍ ضاريةً للهجوم على موضوع أكواخ جمعية الشبان المسيحيين بمشاركة جارها الجالس على الجانب الأيمن منها. وانقضى بقية وقت العشاء على هذا المنوال، ولم يتجاوز حديثُهما الكلمات العارضة، إلا بعد أن تقابلا بعد ساعةٍ في قاعة الاستقبال

الشهيرة الخاصة بالأميرة. كانت الأميرة تحب الترفيه عن ضيوفها بأسلوبها الخاص. فكان ذلك الجناح الطويل بتجاويفه الجدارية العديدة ونوافذه العميقة، يحتلُّ جانبًا كاملًا من جوانب المنزل الكبير، وكان يتميَّز بهيبة وفخامة غرف الصالون، إلا أنه كان يدعم جوًّا من الحرية بصالة الطعام الصغيرة والموسيقى التي يحويها وأرائكه الوثيرة وطاولات البريدج ولوحة الروليت، الأمر الذي جعلها صالحةً للسُّكنى على نحوٍ لافت للنظر.

سألته قائلة: «أتساءل أيها البارون، متى ستُغادر، وما إن كنت أستطيع التعويل على اصطحابك لي إلى حفل لوسونز الراقص؟ لا تتردَّد في الرفض لو كان لديك ارتباطٌ آخر؛ فهذا لن يعني سوى أنني سأتصل ببعض الأصدقاء.»

أجابها البارون على الفور: «أنا في خدمتكِ تمامًا أيتها الكونتيسة. في الواقع، كنت قد قطعت وعدًا بأن أذهب إلى هناك لمدة ساعة.»

سألته: «ربما تحب أن تلعب البريدج الآن؟»

فأجابها: «كانت الأميرة عَطوفة بما يكفي لتدعوَني، لكنني تجرأتُ على الاعتذار. رأيتُ أن الأعداد كانت متساوية من دوني، وكنت آمُل أن أتحدَّث معك أكثر قليلًا.»

جلسا معًا في ركن مريح للغاية. وأحضر لهما أحدُ الخدم القهوة، وعرضَ عليهما رئيس الخدم مشروباتٍ روحيةً غريبة. اتكأت كاثرين في جلستها إلى الخلف وأطلقت تنهيدة ارتياح خفيفة.

ثم قالت: «يصف الجميع هذه الغرفة الخاصة بعمتي بأنها استراحة فندق. إنني شخصيًّا أُحبها.»

اعترفَ البارون قائلًا: «إنها تُمثِّل لي أيضًا جناحًا مثاليًّا. ها نحن بمفردنا، وأريد أن أسألكِ سؤالًا كان على شفتيَّ حين كنا نتناول الشاي معًا في فندق كارلتون، والذي كنتُ لأطرحه عليكِ بالتأكيد لولا المحيط الذي كنَّا فيه.»

قالت مطمئنةً إياه بابتسامة صغيرة: «يمكنك أن تسألني عن أي شيء. فأنا أشعر بالسعادة والرغبة في الثرثرة. لا تحاول أن تدفعني إلى التحدث، وإلا فسأُفشي كلَّ أسرار حياتي.»

فقال البارون قاطعًا وعدًا: «لن أسألكِ الآن إلا عن سرٍّ واحد فقط. هل صحيحٌ أنكِ دخلت اليوم في خلافٍ مع ... سأصفهم بأنهم جمعٌ صغير من الرجال يعقدون اجتماعاتهم في ويستمنستر، وكنتِ على تواصل وثيق معهم بعضَ الوقت؟»

كانت نظرةُ الذهول على وجهها واضحةً لا التباسَ فيها.

«كيف عرَفتَ بذلك بحق السماء؟»

هزَّ البارون كتفَيه.

وقال: «نحن في وقتٍ ينبغي فيه للمرء أن يكون على معرفة بكل شيء إن كان يريد النجاح في مهنته.»

لم تتكلم كاثرين للحظة. كان سؤاله صادمًا لها نوعًا ما. لكن في غضون لحظة أو اثنتين، وجدَت كاثرين نفسها تُفكِّر في كيفية تحقيق استفادة شخصية من ذلك.

فأقرَّت قائلة: «هذا صحيح.»

راحَ البارون ينظر بإمعان في مقدمة حذائه اللامع.

ثم قال في جُرأة: «أليست هذه إحدى الحالات التي ربما يمكننا أن نتقارب من خلالها أيتها الكونتيسة؟»

فقالت كاثرين: «إن كان لديك ما تقترحه، فأنا على استعدادٍ للإصغاء إليك.»

تابع البارون قائلًا: «أتساءل إن كنت محقًّا في بعض أفكاري؟ لكنني سأضعها موضعَ اختبار. لقد اتخذتِ من إنجلترا مستقرًّا لك. وكان هذا طبيعيًّا لأسباب أُسريَّة. لقد أظهرتِ اهتمامًا كبيرًا بقطاع معيَّن من العامة الإنجليز. ونظريتي في ذلك هي أن اهتمامكِ بإنجلترا ينصبُّ على ذلك القطاع فقط، وأن إعجابكِ بصفات إنجلترا كبلدٍ لا يَزيد عن إعجابي أنا بها.»

أجابته كاثرين في هدوء: «أنت محقٌّ تمامًا.»

أردفَ البارون: «واهتمامكِ هذا منصبٌّ على الكادحين من الرجال والنساء، الناس الذين يحملون على أكتافهم أعباءَ الحياة كلها، الذين ترغبين باستمرارٍ في تحسين أوضاعهم. أفهم من ذلك أن تعاطفكِ عابر للحدود؟»

فقالت موافقةً إياه: «هو كذلك.»

«إذن فهل يُثير الناس من هذه الطبقة في ... لنقل في ألمانيا، تعاطفك بالدرجة نفسها؟»

«قطعًا!»

قال البارون: «مِن ثَمَّ فإنكِ تعملين من أجل تحسين أحوال الطبقة الأكثر تهميشًا، سواءٌ كانت ألمانية أو نمساوية أو إنجليزية أو فرنسية؟»

وافقته الرأيَ قائلة: «هذا صحيح أيضًا.»

«سأواصل نظريتي إذن. ألا تكترثين بقضية هذه الحرب، ما دام الشعب يستفيد؟»

أشارت كاثرين: «سوف يثبت ذلك من خلال عملي على مدى الأسابيع القليلة الماضية بين أولئك الرجال الذين كنت تتحدَّث عنهم.»

قال البارون مطلقًا تنهيدةَ ارتياح خفيفة: «إذن فقد اجتزنا الخطوط الشائكة ولم يعد بيننا أيُّ حواجز. أنا على استعداد الآن لأن أبادلكِ الأسرار. أنا لستُ بصديق لهذه البلاد. وليس لدى رئيسي أو حكومتي أدنى رغبةٍ في رؤية إنجلترا تربح هذه الحرب.»

فأقرَّت قائلة: «كنت أعرف ذلك.»

واصل البارون الحديث قائلًا: «والآن أطلبُ منكِ معلومات. هلا تُخبريني عن ذلك؟ لقد قدَّم أصدقاؤك الزائفون شروطَ السلام الألمانية المزعومة إلى السيد ستينسون. ماذا كانت نتيجة ذلك؟»

«أخذ مهلةَ أربعٍ وعشرين ساعةً للنظر فيها.»

سألها البارون وهو يميل نحوها قليلًا: «وماذا سيحدث لو رفض؟» وأردف: «هل سيستخدمون سلاحهم الفتاك؟ هل سيُكملون الطريق حتى النهاية، أم سيقبلون بتسوية؟»

قالت مؤكِّدة: «لن يقبلوا تسوية. لقد تم بالفعل كتابة البرقيات التي ستُرسَل إلى أمناء النقابات المهنية المختلفة. وستُرسَل في غضون خمس دقائق بعد إعلان السيد ستينسون رفضه لالتماس هدنة.»

ألحَّ البارون في سؤاله: «هل أنتِ واثقة من ذلك؟»

«واثقةٌ بما يتخطى أي شك.»

أومأ البارون ببطء.

وأقرَّ قائلًا: «معلوماتكِ قيِّمة بالنسبة إليَّ. وعلى الرغم من أنني مكتفٍ بهذه المعلومات، فلا يمكنني أن أخترقَ الدوائر الداخلية للمجلس نفسِه. لكن الأخبار التي ذكرتها مفيدة.»

قالت كاثرين: «والآن، أتوقَّع منك أن تبوح لي بأعجب الأسرار.»

فأجابها: «سأبوح لكِ بها بكل سرور. إن فرايشتنر موجود في حصن ألماني منذ بضعة أسابيع وقد يُعدَم رميًا بالرصاص في أي لحظة. إن القوة المزعومة للحزب الاشتراكي في ألمانيا ما هي إلا محضُ زيف وكذب. والتوقيعات المرفقة بالوثيقة التي جرى تسليمها إلى مجلسكم قبل بضعة أيام سيتم إنكارها والتنصُّل منها. إن مخطط التواصل مع طبقات العمال لديكم برُمته كان من صنيعة وزارة الحرب الألمانية وتحت رعايتها. ستوضع إنجلترا في موقف مذلٍّ ومثير للسخرية إلى أبعد الحدود. وسيعني هذا نهاية الحرب.»

قالت لاهثة: «وماذا عن ألمانيا؟»

قال البارون في هدوء: «ستكون ألمانيا قد خطَت أول خطوة كبيرة لها في طريق الصعود إلى سُلَّم السيطرة على العالم.»

الفصل التاسع عشر

كان من بين الحاضرين في قاعة المجلس في ويستمنستر في تلك الليلة شخصٌ أو اثنان لاحظا ولم ينسَيا مهابةً غامضة بدَت وكأنها جاءت لتُقدِّم العون إلى ستينسون ومكَّنَته من مواجهة محنة لا بد أنها كانت مثيرةً للقلق وغيرَ مرحَّب بها من دون أن يبدوَ عليه الانزعاج أو القلق. فقد دلفَ ستينسون إلى القاعة بصحبة جوليان وفينياس كروس، وبدا إلى حدٍّ كبير كرجل جاء في زيارة عمل، فيما يتعلق بالمسألة الأخيرة التي لا يمكن أن يكون هناك شكٌّ محتمَل حيالها. صافح ستينسون الأسقف بجدية لم تخلُ أيضًا من الدماثة، وأومأ للآخرين ممَن كان يعرفهم، وسأل عن أسماء القلة الحاضرة من الغرباء، وراحَ يحفظ في ذهنه بدقة الصناعات والأحياء التي كانوا يُمثِّلونها. بعد ذلك قبل الجلوس في كرسي كان بجوار الأسقف الذي افتتح الاجتماع من فوره.

بدأ الأخير بقوله: «أصدقائي، كما أرسلتُ لكم قبل وقتٍ قليل، فضَّل السيد ستينسون أن يحضر رده إليكم بنفسه. كان سفيرنا إليه، السيد جوليان أوردين، ينتظره في دوانينج ستريت في الساعة المتفَق عليها، والسيد ستينسون في زيارةٍ لنا الآن رغبة منه في لقائكم جميعًا.»

ثم أبدى الأسقفُ شيئًا من التردد، فأسرع رئيسُ الوزراء بسحب كرسيه ليقترب منهم أكثر.

وقال: «أيها السادة، إن القضية التي أثَرتُموها قضية ضخمة، وقد تكون نتائجها كارثية إلى حدٍّ دفعَني إلى الاعتقاد بأن من واجبي أن ألتمسَ من السيد أوردين الترتيب لزيارتي لكم لأتحدَّث معكم جميعًا؛ لأشرح لكم وجهًا لوجه، بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، الأسبابَ وراء عدم إمكانية تنفيذ مطلبكم.»

سأل أحد الممثلين الجالسين على الجانب الآخر من الطاولة في حدة: «إذن أنت لا تريد السلام؟»

فجاء ردُّه هادئًا إذ قال: «لا نريده. فنحن لسنا مستعدين له.»

قال فين في صرامة: «البلاد مستعدَّة له. نحن مستعدون.»

ردَّ في هدوء ورصانة: «هكذا أخبرَني سفيركم. ربما يُقال إنكم تُمثلون الأمة من حيث الأرقام. أما من جانب الفِطنة والمعرفة، المعرفة الباطنية، العقل، فأزعم أنني مَن أُمثلها. وأخبركم أن أي سلام الآن، ولو طبقًا للشروط التي اقترحها حُلفاؤكم الاشتراكيون في ألمانيا، سيكون سلامًا مُخزيًا ومُهينًا.»

سأله الأسقف في نبرة توسل: «هَلا تخبرنا السبب؟»

قال السيد ستينسون بنبرة بطيئة: «لأنه ليس السلامَ الذي وعدنا به أبطالُنا الموتى والأحياء. لقد انطلقنا في حربٍ من أجل الديمقراطية، قضيتكم. وسيبوء ذلك القتالُ بالفشل لو سمحنا لأكثرِ الطغاة استبدادًا وانعدامًا للضمير أن يجلس على عرش يومًا؛ أن يظلَّ في مكانه.»

قاطعَه فين قائلًا: «لكن هذا ما لن نفعله. لقد طمأنَنا فرايشتنر فيما يتعلق بذلك. إن السلام ليس من اقتراح القيصر. إنما هو سلام الحزب الاشتراكيِّ في ألمانيا، ويوم إعلان شروطه هو اليوم الذي تحرز فيه الديمقراطية أولَ انتصار لها.»

قال السيد ستينسون مؤكِّدًا: «لا أجدُ في الصحافة الأوروبية ولا في تقارير عملائنا في الخدمة السرية أدنى ضمان لأي فرضية من هذا القبيل.»

سأله فين: «هل قرأتَ خطاب فرايشتنر؟»

أجابه رئيس الوزراء: «قرأت كلَّ كلمة فيه. أظنُّ أن فرايشتنر رجلٌ نزيهٌ صادق، كأي واحد منكم، لكنني أظن أنه مخطئ. وأميلُ إلى الاعتقاد بأن تلك التوقيعات موثوق فيها وحقيقية. بل سأعتقد حتى أن ألمانيا سترحِّب بشروط السلام تلك، وإن كانت لن تسمح أبدًا بأن تنبثقَ من حكومتها. لكنني لا أظن أن الصدام والفوضى اللذَين سيعقبان نشرها سيُؤديان إلى الإطاحة بالسلالة الحاكمة الألمانية. أنتم لم تُقدِّموا دليلًا على ذلك أيها السادة. وأنتم أنفسكم ليس لديكم أيُّ دليل على ذلك. ولهذا أقول إنكم تقترحون العمل في الظلام، ويبدو لي أن عملكم هذا قد يؤدي إلى نهايةٍ مشئومة. أريدُ منكم أن تسمعوني لدقيقة واحدة.» ثم تابع وقد توهَّج وجهُه ببريقٍ من الجدية الشديدة: «لن أبحث في عقلي عن عباراتٍ منمَّقة أو حِكَم. نحن رجال بُسطاء هنا معًا، ومصير بلادنا على المحك. ولذا

أستحلفكم بالرب أن تستوعبوا مسئولياتكم وتعوها. إنني أريدُ السلام. بل أتوق إليه. لكن لن يكون هناك سلام أبدًا في أوروبا إذا ما ظلت ألمانيا أوتوقراطية استبدادية لا تعرف الهزيمة. لقد وعَدْنا موتانا وأحياءَنا أن نطيح بذلك الوحش الفاسد من فوق عرشه. لقد وعَدنا حلفاءنا العظام في فرنسا بذلك. واتفقنا على ذلك مع أمريكا، التي تعجُّ البحار بسفُنها الآن وأقسَم شبابها القسَم نفسَه الذي أقسمه شبابُنا. ليس هذا وقتَ السلام. ولا أتحدَّث عن جهلٍ حين أقول لكم إن ثَمة تحركًا كبيرًا وشيكًا في الغرب قد يكون من شأنه أن يُغيِّر الموقف العسكري تمامًا. أعطونا فرصة. إنكم إن نفَّذتم تهديدكم، فإنكم بذلك تُقحمون البلاد في ثورة، وتجلبون لنا الخزي في وجه حلفائنا، وستعيشون ما تبقَّى من حياتكم، جميعكم، حاملين إثمَ ذلك في نفوسِكم وبوصمة عارٍ على ضمائركم، ولن يمحو ذلك شيءٌ قط. لقد أوفيتُ بوعدي كما ترون ولم أقُل الكثير. لا يمكنني أن ألتمس الهدنة التي اقترحتموها. إنكم إن اتخذتم تلك الخطوةَ التي تُهددون بها ... حسنًا لا أنكر أن مِن شأن ثِقلها أن يُنهي الحرب. سيأتي واحدٌ منكم ويأخذ مكاني. وسيكون هناك فوضى واضطراب، ومن المرجح كثيرًا أن تسيل الدماء. أعرفُ كيف ستسير المسألة، لكنني أعرف واجبي أيضًا. وما من عضوٍ واحد في حكومتي لا يؤيدني في ذلك. إننا نرفضُ مطلبكم.»

بدا الجميع على الطاولة يتحدَّثون بعضهم إلى بعض في الوقتِ نفسِه. ثم علا صوتُ كروس فوق صوت البقية. ونهضَ واقفًا من أجل ضمان انتباههم.

وقال: «أيها الأسقف، أظن أن ثمة نقطةً في كلام السيد ستينسون يمكن بل ينبغي لنا أن نبحثها بصورةٍ أكثر استيفاء قليلًا؛ ماذا لدينا من ضماناتٍ على أن الشعب يُساند فرايشتنر، وأنه سيكون قادرًا على تطهير جُحر الفئران ذاك في برلين من هوهينتزولرن وعشيرته من الأرستقراطيِّين، أبغضُ السياسيِّين الذين عاشوا على وجه الأرض على الإطلاق؟ ينبغي أن نكون واثقين تمامًا من ذلك. فين هو ممثلنا. ماذا عن تلك الضمانات يا فين؟»

أجاب فين: «كان فرايشتنر لأسابيع يتحدَّث في خطاباته عن موجة الشعور الاشتراكيِّ الرائعة التي تجتاح البلاد. إنه رجلٌ نزيه، ولا يُبالغ. إنه يؤكِّد لنا أن نصفَ الأمة يُبايعونه.»

قال ديفيد ساندز في تأمُّل: «رجل واحد فقط. إن كان ثمة نقطةُ ضعف واحدة في هذا الأمر لستُ على استعداد لأن أعترف بها تمامًا، فهي أن رجلًا واحدًا فقط في ذلك الجانب هو مَن يُدير هذه المسألة برُمتها. إنما نحن هنا مجموعة. وأحبُّ أن أسمعَ أن هناك أكثرَ من رجل واحد على الجانب الآخر.»

أوضحَ السيد ستينسون قائلًا: «من الغريب السماح بتسرب أخبار قليلة للغاية هكذا من ألمانيا عن الزخم الذي يكتسبه الاشتراكيون هناك. فعلى الرغم من صرامة رقابتهم،

فهناك نسخٌ من الصحف الألمانية تصلنا كلَّ يوم من بلدان محايدة. لا يمكنني أن أصدِّق أن الاشتراكية حقَّقت التقدُّم الذي يدَّعيه فرايشتنر، وأتفقُ مع صديقينا السيد كروس والسيد ساندز هنا أنكم ينبغي أن تكونوا واثقين تمامًا من أن فرايشتنر لم يقع في شَرَك الخداع قبل أن تتخذوا هذا الإجراء العنيف.»

صرَّح فين قائلًا: «نحن قانعون بالثقة في إخواننا في ألمانيا.»

تدخَّل جوليان قائلًا: «لستُ مقتنعًا بأن من الحكمة أن نفعل ذلك. وأؤيدُ أن نأخذ بضعة أيامٍ أخرى للتفكير في هذا الأمر.»

قال فين في اعتراض شديد: «وأنا ضد أي تأخير. إنني أؤيد اتخاذَ إجراءٍ فوري وعاجل.»

تابعَ جوليان بنبرة جادَّة: «اسمحوا لي أن أشرح لكم وجه تسرعنا في رأيي. أفهم أن عملية التواصل برُمتها بين هذا المجلس والحزب الاشتراكي في ألمانيا جرَت من خلال السيد فين وفرايشتنر. يوجد اشتراكيون آخرون معروفون في ألمانيا، لكننا لم نتلقَّ أيَّ اتصال مباشر من أي منهم. علاوة على ذلك — وأقول هذا دون رغبةٍ مني بأي حال في التشكيك في حِرص سكرتيرنا في نَسخ تلك الخطابات الذي أنا على يقين منه — فإنني وفي وقت كهذا مضطرٌّ إلى أن أتذكَّر أنني لم أرَ أي شيءٍ سوى مجردِ نسخ.»

نهضَ فين واقفًا من فوره، وكان شاحبًا من شدة حنقه.

وصاحَ بصوت عالٍ قائلًا: «أتقصد أن تُلمح إلى أنني عدَّلتُ في تلك الخطابات أو زوَّرتها؟»

أجابَ جوليان: «لم أُلمح إلى أي شيء. وأقترحُ في الوقت نفسه، وقبل أن نشرع في اتخاذ تدابيرَ عنيفة، أن نَقضي نصفَ ساعة في الاطلاع على الخطابات الأصلية.»

قال كروس: «هذا منطقي. ليس هناك مَن يُمكنه أن يعترض على ذلك. عن نفسي لا أُحبِّذ تمامًا هذه القصاصات المطبوعة.»

التفت فين وهمسَ إلى برايت. ونهضَ السيد ستينسون واقفًا. كان وهجُ المصباح المباشر مسلَّطًا على وجهه المضطرب. بدا وقد ازداد نحولًا وتقدمًا في العمر منذ دلفَ إلى الحجرة.

وقال: «بقائي هنا الآن لا يَزيد حُجتي قوة ولا يُضعِفُها. لكن لتَكُن كلماتي هذه آخرَ عهدي بكم. أُقسم لكم بروحي كرجل إنجليزي إنني أومن بأنكم لو أرسلتم تلك البرقيات الليلة، أنكم إن استخدمتم سلاحكم الشائن والمُهلك ذاك ضدي وضد الحكومة، فإنكم بذلك ستتحمَّلون ذنب خراب هذه البلاد ودمارها، كما ستتحملون ذنب إلحاق الخزي والعار بها

بكل تأكيد. وأمامكم روسيا مثالًا على ذلك. وسأخبركم بالآتي أيضًا، وأريدكم أن تتقبَّلوه. لا يوجد مِن بين أولئك الرجال الذين يسيرون الليلة، أو ربما غدًا، إلى موت محتمَل مَن سيشكركم على محاولة إنقاذ أرواحهم أو أجسادهم على حساب شرف إنجلترا. إن أولئك الرجال الذين هم على مشارف الموت سيكونون أشدَّ منتقِديكم. ليس هناك ما يمكنني قوله أكثر من ذلك.»

رافقَ جوليان رئيسَ الوزراء إلى الباب.

وصرَّح قائلًا: «سيد ستينسون، لقد قلت بالتحديد ما يمكن أن يُقال من وجهة نظرك، والرب وحده يعلم، حتى في تلك اللحظة، مَن منا على صواب! إنك تنظر إلى المستقبل بمعرفة تامة بالكثير من الأشياء التي نجهلها نحن جميعًا. كما أنك أيضًا، تُكن الكراهية التي يُكنها الساسة على نحوٍ طبيعي تمامًا، تجاه الطرائق التي يقترحها هؤلاء الرجال. وأنا نفسي أميلُ إلى الاعتقاد بأنهم متسرِّعون بعضَ الشيء.»

أجابه السيد ستينسون بنبرة صارمة: «لم آتِ إليكم الليلة يا أوردين كسياسي. لقد تحدَّثتُ كرجلٍ إنجليزي عادي، كما أتحدَّث إليك الآن. وأُناشدك باسم حبِّك لبلادك وشرفها، أن تستخدم تأثيرك على هؤلاء الرجال. أوقِف تلك البرقيات. اعمل على تأخيرها بأيِّ ثمن. ثَمة شيءٌ خبيث يتعذَّر شرحه حيالَ هذا الأمر برُمته. قد يكون فرايشتنر رجلًا نزيهًا، لكنني أُقسم إنه لا يتمتَّع لا بالتأثير ولا المكانة التي سيق أولئك الرجالُ للاعتقاد فيهما. أما بالنسبة إلى نيكولاس فين ...»

هنا توقَّف رئيس الوزراء عن الحديث. وانتظره جوليان في تلهُّف ليُكمل حديثه.

فاختتم الأول حديثه في تروٍّ قائلًا: «أعتقدُ أن قضاءه ثلاثين ثانيةً في فِناء برج لندن موليًا ظهره إلى النور سيكون كافيًا.»

افترقَ الرجلان عند الباب، وعادَ جوليان إلى كرسيه في اضطراب وحيرة. كانت أصواتُ الرجال الجالسين حول طاولة المجلس تتعالى في غضب. أما فين الذي كان يجلس نكدًا وعاقدًا ذراعيه، وكان كرسيه بعيدًا بعضَ الشيء عن الطاولة، فقد عبسَ في وجه جوليان بينما كان يتخذ مجلسه. والتفتَ فورلي تجاهَ جوليان بعد أن همسَ إلى الأسقف بشيء.

ثم أعلن فورلي قائلًا: «يبدو أن النسخ الأصلية من معظم مراسلات فرايشتنر قد دُمِّرت.»

تساءل فين في انفعالٍ شديد: «ولِمَ لا؟ لماذا كنت سأحتفظ بخطاباتٍ من شأنها أن تضعَ حبل المشنقة حول عنقي في أي يوم يُعثر فيه عليها؟ أنتم جميعًا تعرفون مثلي أننا كنا نتوقع أن تُغير الشرطة على المكان منذ أخذناه.»

علَّق جوليان قائلًا: «لقد انضممتُ إليكم مؤخرًا، لكن لا شك أن بعضكم قد رأى المراسلات الأصلية؟»

تحدَّث توماس إيفانز من الطرف الآخر من الطاولة، وكان رجلًا قصيرًا قويَّ البِنية، وكان له نفوذ كبير في ساوث ويلز.

فقال: «لكي أكون صريحًا، لا أحب هذه التلميحات. إن فين هو أمينُ سرِّنا منذ البداية. وكان هو مَن افتتح المفاوضات، وهو مَن خاض فيها. فإمَّا أننا نثقُ فيه أو لا نثق فيه. وأنا أثق فيه.»

قال كروس: «وأنا لا أقول إنك لستَ محقًّا يا فتى. إنما أدعو لأن نكون حَذِرين، لكن الأمر يتعلَّق أكثرَ بفكرة أن أصدقاءنا الألمان أنفسَهم قد يكونون مفرطين قليلًا في التفاؤل.»

فأعلن فين بنبرةٍ شرسة: «أتعهدُ بكلمتي أمامكم أن كلَّ الحقائق التي قدَّمتُها لكم حقيقية. لقد اكتمل اليوم عملي، أيًّا ما كانت طبيعته. لقد جئتُ لكم بسلامٍ شعبوي من ألمانيا. وقد تشكَّل هذا المجلس بغرض فرض ذلك السلام على الحكومة. فهل ستتراجعون الآن؛ لأن كاتِبًا هاويًا وأرستقراطيًّا لم يشقَ يومًا في أي عمل يُثير شكوكًا مثيرة للسخرية حيال نزاهتي؟ لقد أتممتُ العمل الذي أوكلتموه لي. وأمرُ إنهائه يعود إليكم، وأنا أُمثِّل مليون رجل من العمال. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ديفيد ساندز وإيفانز وكروس وبقيتكم. فماذا يُمثِّل جوليان أوردين؟ لا أحدَ ولا شيء! ومايلز فورلي؟ مجموعة صغيرة من الاشتراكيين يعيشون في حدائقهم ويُربُّون النحل! وسيدي الأسقف؟ مجرد عظته الأسبوعية! إلا أن أولئك الدُّخلاء هم مَن دخلوا علينا وعرقلونا. لقد ضِقتُ ذرعًا بهم وبما يفعلون. لقد أضعنا الليلة، لكنني أقترح أن نُرسل البرقيات في الثامنة من صباح الغد. مَن يوافق على ذلك يرفع يده!»

كان ذلك هجومًا مضادًّا اكتسحَ كلَّ شيء في طريقه. فقد ارتفعت كلُّ يدٍ حاضرة في الغرفة عدا يد الأسقف وفورلي وكروس وجوليان. هنا تقدَّم فين نحو الباب.

وقال: «لدينا عمل علينا القيامُ به يا رفاق. أما الآخرون، فسنتركهم يتحدَّثون بعضهم إلى بعض حتى الصباح، إذا شاءوا.»

الفصل العشرون

غادر جوليان وفورلي المكان معًا. وبحثا عن الأسقف لكنهما وجدا أنه قد انسلَّ من بينهم.

قال فورلي: «أعتقدُ أنه ذهبَ إلى دوانينج ستريت. فلديه فكرةٌ مبهَمة عن اقتراح تسوية.»

كرَّر جوليان بنبرةٍ كئيبة قليلًا: «تسوية!» ثم تابعَ يقول: «كيف يمكن أن تكون هناك أيُّ تسوية! قد يكون هناك تأخير. أعتقدُ أننا كان علينا أن نُعطي ستينسون مهلةً أسبوعًا؛ ليكون لديه وقتٌ كافٍ للتواصل مع أمريكا وإرسال وفد إلى فرنسا.»

قال فورلي بنبرة نكِدة وقد توقَّف ليُعيد إشعال غليونه: «نحن كجميع المنظِّرين، نخلق ونُدمِّر عبثًا بسهولة مذهلة. وحين يصل الأمر إلى الفعل، نَجبُن ونرتاع.»

سأله جوليان صراحةً: «هل تخشى هذا الأمر؟»

«وأنَّى لأحدٍ ألا يخشاه؟ نحن على صواب من الناحية النظرية، أنا واثقٌ من ذلك. إننا إن تركنا الأمر للساسة، فستمتدُّ هذه الحرب إلى أمدٍ لا يعلمه إلا الربُّ. والشعب هو مَن يدفع ضريبة ذلك. ومن المفترض أن يُعقَد السلام بيدِ الشعب. الشيءُ الوحيد الذي يزعجني هو ما إذا كنا نفعل ذلك بالطريقة الصائبة. هل فرايشتنر صادق؟ هل يمكن أن يكون قد خُدِع؟ هل هناك أيُّ احتمال أن تكون رابطة العموم الألمانية قد تلاعبت به؟»

قال جوليان: «فين هو الوحيد الذي تعامَل معه. وأنا لا أثق في فين قِيد أنملة، لكنني أثق في فرايشتنر وأومن به.»

صدَّق فورلي على كلامه قائلًا: «وأنا كذلك، لكن هل تقارير فين عن وعود فرايشتنر وعن قوة أتباعه صادقة تمامًا؟»

اعترفَ جوليان قائلًا: «هذا هو الجزء الذي لا يروق لي في الأمر برُمته.»

«إنَّ فين، من الناحية العمَلية، هو حجر الزاوية لهذه المسألة. فقد كان هو مَن قابل فرايشتنر في أمستردام وبدأ هذه المفاوضات، وأنا لا أحب فين تمامًا، ولا أثق فيه. هل رأيت كيف نظر إلى ستينسون من جانب عينَيه، كنظرة نمسٍ صغير؟ كان ستينسون في أفضل حالاته أيضًا. لم أُعجب به بهذا القدر من قبل.»

قال فورلي موافقًا: «لا شك أنه قد احتفظ برباطة جأشه. كما كانت كلماته المباشرة القليلة في صُلب الموضوع أيضًا.»

قال جوليان: «لم يكن الموقف مناسبًا للبلاغة. سيحين وقت ذلك الأسبوع القادم. أعتقد أنه سيُحاول أن يُفرِّق شمل النقابات المهنية. يا لها من فرصة لإيدموند بيرك! أعتقدُ أنه لا بأس من ذلك، لكنني أتعجَّب من شعوري بهذا البؤس الشديد.»

أسرَّ إليه فورلي بقوله: «الواقع أن وجودي أنا وأنت والأسقف والآنسة آبواي في هذا المجلس في غير محلِّه إلى حدٍّ ما. كان علينا أن نكتفيَ فقط بتزويده بالأفكار. فحين يتعلَّق الأمر بالجانب العملي، فإن غرائزنا الأخرى تتمرَّد. ففي النهاية، إذا كنا نعتقد حقًّا أننا سنهزم ألمانيا عسكريًّا باستكمال الحرب، فأظن أن علينا أن ننسى الكثيرَ من منطقنا الرائع وندَعَ الحرب تستمر.»

قال جوليان متنهدًا: «لكن لا تبدو هذه مقايضة عادلة. إنها حياة رجالنا اليوم في مقابل حرية الأجيال القادمة، هذا إن لم تتبدَّد تلك الحرية على يدِ جيل آخرَ من الساسة. الأمرُ سيئٌ للغاية يا مايلز.»

قال فورلي: «إذن لنكن شاكرين أنَّ الحرب ستتوقَّف. لقد أعلنَّا تمسكنا بمعتقداتنا وآرائنا يا جوليان. إن فين لا يروق مثلك تمامًا، ولا أثق فيه أيضًا، لكنني في هذا الموقف لا أرى أنه قد يجني أيَّ شيء وراء اتباع الطرائق الملتوية. بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يكون قد زوَّر شروط السلام، وهذه هي الوثيقة الوحيدة المهمة.» ثم أضافَ بعد أن توقَّفا عند ناصية الشارع حيث افترقا: «طابت ليلتك واخلد إلى النوم.»

كان ثمة شيءٌ مختلف إلى حدٍّ مثير للفضول في سلوك الخادم الأمين لجوليان بينما كان يأخذ معطف سيده وقبعته. ولم يخفَ ذلك عن جوليان حتى وهو منهمك في التفكير في أحداث ذلك المساء.

قال جوليان معلقًا: «تبدو متعكِّر المزاج الليلة يا روبرت!»

أجابَ الأخير بنبرةٍ شبه فظَّة، رغم أن أسلوبه عادة ما يغلب عليه الدماثة واللطف.

«لديَّ ما يكفي لأكونَ كذلك يا سيدي، بل أكثر مما يكفي. أريدُ أن أُبلغك أنني سأترك العمل في غضون أسبوع.»

سأله سيده: «هل كنت تُعاقر الشراب يا روبرت؟»

ابتسم الرجل في كآبة.

وأجابَ: «بل أنا في غاية الاتِّزان واليقظة يا سيدي، لكنني سأُسرُّ أن أغادر في الحال. سيكون ذلك أفضلَ لِكِلَينا.»

سأله جوليان متحيِّرًا: «ما الذي جعلك تنقلب ضدي هكذا؟»

كان ردُّ روبرت عنيفًا إذ قال: «حياة ولديَّ. لقد مات فريد الآن، تُوفي في المستشفى ليلة أمس. وأنت مَن أقنعتهم بالتطوع للكفاح العسكري.»

تغيَّر أسلوبُ جوليان في الحال، وصارت نبرته أكثرَ رقة.

«من الغباء أن تلوم أحدًا على ذلك يا روبرت. لقد أدَّى ولداك واجبهما. ولو لم يلتحقا بالجيش في الوقت الذي التحقا فيه، كانا سيلتحقان به إجباريًّا فيما بعد.»

كرَّر روبرت في ازدراءٍ مكبوت: «واجبهما!» ثم أردفَ يقول: «واجبهما تجاه مجموعة من الساسة الجبناء المراوغين، أستميحك عذرًا يا سيدي. إنَّ الحكومة بأكملها لا تستحقُّ دماء واحد منهما!»

قال جوليان في تعاطف: «أنا آسفٌ لموت فريد. ولكن يا روبرت، لا بد أن تُحاول وتستجمع شتات نفسك.»

تأوَّه الرجل.

وقال بنبرة غاضبة: «أستجمع شتاتَ نفسي!» واستطرد: «سيد أوردين، أنا أُحاول يا سيدي أن أحافظ على احترامي، لكن من الصعب عليَّ ذلك. لقد قرأتُ صحف المساء. وهناك مقال موقَّع باسم «بول فيسك» في «بال مول». يقولون لي إنك أنت بول فيسك. ويبدو أنك تؤيِّد السلام، السلام مع الإمبراطور الألماني وعُصبته الدموية الوحشية.»

أقرَّ جوليان قائلًا: «بل أؤيد السلام وفقًا لشروط معينة في أقربِ وقت ممكن.»

قال روبرت في شراسة وعنف: «لقد خُنتنا في هذه النقطة ... خُنتنا جميعًا!» وأردف: «لقد مات ولداي وهما على اعتقادٍ بأنهم يُحاربون من أجل رجالٍ سيوفون بكلمتهم. كان يجب أن تستمرَّ الحرب حتى نفوز بها. لقد ماتا سعيدَين، وهما يعتقدان أن أولئك الذين تحدَّثوا باسم إنجلترا سيلتزمون بكلمتهم. لقد أخذَتك الشفقة كثيرًا بالأحياء في ذلك المقال يا سيدي. فهل فكَّرتَ في الموتى حين جلست لتكتبه؟ هل فكَّرت في وحشة الأجداث بصُلبانها البيضاء في فرنسا؟ أنت تقترح بدمٍ بارد أن ندعَ أولئك الأشرار يظلون على ركام روثهم.»

ذكَّره جوليان قائلًا: «هذه مسألةٌ كبيرة للغاية يا روبرت. إنَّ الحرب تتجه سريعًا إلى مرحلةٍ من الاستنزاف المتبادل لكلا الطرفين.»

هنا ذهبَ كلُّ تحفظ لدى الرجل أدراجَ الرياح.

إذ جاء ردُّه غاضبًا: «هُراء!» واستطرد: «أنتم أيها الأغنياء تريدون الرجوع إلى ترَفِكم مرةً أخرى. لدينا بضعة ملايين آخَرين من الرجال، أليس كذلك؟ وأمريكا لديها بضعة ملايين آخرين؟»

قال سيده بنبرة رقيقة: «لقد جعلَتك خَسارتك التي تكبَّدتَها يا روبرت عنيفًا ولاذعًا، وهذا طبيعيٌّ تمامًا. ينبغي أن تدعَ أولئك الذين فكَّروا في هذا الأمر يتوصَّلون إلى قرارٍ بشأنه. فبعد مرحلة معينة، ينبغي الحفاظ على رجال العالم.»

«يبدو هذا لي يا سيدي مجردَ كلام منمَّق، وليس أكثرَ من ذلك؛ كلام على شاكلة ما يُطبَع في المقالات ولا يُلقي إليه أحدٌ بالًا. كانت الكلمات صريحة وجلية بما يكفي حين خرجنا للقتال في هذه الحرب. كنا ذاهبين لسحق الروح العسكرية الألمانية ولن ندع القتال حتى نُحقق ذلك. حينها لم يقل أحدٌ شيئًا عن صون ملايين الرجال والحفاظ عليهم. كان المقرَّر أن نخوض الحربَ حتى النهاية، أيًّا كان الثمن.»

«لقد كنت فيما مضى مناهضًا للحرب!»

كرَّر الرجلُ الكلمة في انفعالٍ شديد: «مناهضًا للحرب!» ثم أردفَ: «كان كلُّ رجل عاقلٍ مناهضًا للحرب حين اندلعت.»

قال جوليان مذكِّرًا إياه: «لكن الحرب كانت مفروضةً علينا. لا يمكنك إنكار ذلك.»

«لا أحدَ يريد إنكارَ ذلك يا سيدي. لقد فُرِضت الحربُ علينا بالفعل، لكن مَن الذي جعل منها ضرورة؟ إنها حكومتنا المتعفِّنة على مدى العشرين عامًا المنصرمة! ساستنا الذين يُثرثرون الآن بالسلام يا سيد جوليان قبل أن يُتموا مهمتهم! لو أننا أمَّنَّا لأنفسنا الحماية وكنا مستعدِّين، أتظنُّ أن الحرب كانت ستندلع من الأساس؟ قطعًا لا! لقد بحَثنا عن المتاعب، وها نحن نُعاني منها الأمَرَّين. وإن عقَدنا السلام الآن، فسنكون مستعمرةً ألمانية في غضون عشرين عامًا، والفضلُ في ذلك يعود إلى السيد ستينسون وإليك وإلى بقيتهم. يمكن للمرء أن يكون مناهضًا للحرب حتى يأتيَ من يُعتدى عليه. وبعد ذلك، تنطبق عليه صفةٌ أخرى. هل هناك شيءٌ آخر يمكن أن أقوم به لك الليلة يا سيدي قبل أن أغادر؟»

«لا شيء، شكرًا لك. أشعر بالأسف حيال فريد.»

شعر جوليان بإنهاكٍ شديد، فتحلَّل من ملابسه وذهب إلى الفِراش فورَ أن غادر الرجل. كان قد خلد إلى النوم بالفعل حين استيقظ فجأةً منزعجًا. انتصبَ جوليان في سريره وراحَ يُرهف السمع. كان الصوت الذي أزعجه يتكرَّر، كان صوت جرس الباب الأمامي يتردَّد في خفوت لكن على نحوٍ متواصل. نظر جوليان في ساعته. كانت الساعة بالكاد قد تجاوزت منتصف الليل، لكن الوقت كان متأخرًا جدًّا للزيارة. دقَّ الجرس مرة أخرى، وتذكَّر هذه المرةَ أن روبرت خارج المنزل، وأنه وحيدٌ في الشقة. دسَّ جوليان قدمه في خفيه ولفَّ مبذله حول جسده واتجه نحو الباب الأمامي.

كانت الفكرة الوحيدة التي تدور في ذهن جوليان أن هذا ربما يكون رسولًا من المجلس. وما أثار دهشته أنه وجد كاثرين أمامه.

قالت كاثرين في رجاء: «أغلِق الباب، وتعالَ إلى حجرة الجلوس.»

اندفعت كاثرين إلى الداخل متجاوزةً إياه وامتثل لما قالت، وكان لا يزال معقودَ اللسان من المفاجأة ومن صدمة استيقاظه المفاجئ. بدَت كاثرين نفسها غيرَ واعية لملابسه غيرِ المعتادة، وغير عابئة بالوقت وغرابة زيارتها. كانت ترتدي معطفًا طويلًا من صوف الشنشيلة كان يُغطيها من رأسها حتى قدمها، وحجابًا قصيرًا حول رأسها كان يُخفي ملامحها جزئيًّا. وما إن رفعَت كاثرين عنها حجابها، أدركَ جوليان أنَّ خَطْبًا جللًا قد وقع. كانت وجنتاها بلونٍ عاجي شاحب، وعيناها منتفختَين بصورة غير طبيعية. أما نبرة صوتها فكانت هادئةً لكنها مُفعَمة بانفعالٍ مكبوت.

صاحت قائلة: «لقد خُدِعنا يا جوليان ... تعرَّضنا للغش! وقد أتيتُ إليك طلبًا للمساعدة. هل أُرسِلت البرقيات بالفعل؟»

أجابها: «ستُرسَل في الثامنة من صباح الغد.»

«حمدًا للرب أن الوقت لم يَفُت بعدُ لمنع إرسالها!»

نظر جوليان إليها لحظةً في ارتياب شديد.

كرَّر جوليان كلمتها متسائلًا: «نمنع إرسالها؟» وأردفَ: «لكن كيف يمكننا ذلك؟ لقد أعلن ستينسون الحرب.»

صاحت كاثرين بصوت مرتعش: «حمدًا للرب على ذلك!» ثم أردفت: «إن الأمر برُمته مؤامرةٌ ملعونة يا جوليان. إن الاشتراكيين الألمانَ لم يشهَدوا زيادة في قوتهم إلا في مخيلاتهم. إنهم عاجزون تمامًا. هذه أكثر خطط هذه الحرب مكرًا وخداعًا. كان فرايشتنر مجرد لعبة في يد العسكر. لقد حثُّوه على إرسال هذه المقترحات والتواصل مع نيكولاس فين. وعند

إعلان الهدنة وبدء المفاوضات، سيتم إنكار تلك التوقيعات الثلاثة والتنصُّل منها. إن السلام الذين يريدون فرضه إنما هو من إملائهم، وفي تلك الأثناء سنكون نحن قد أحدثنا كارثة هنا. ولن تبدأ الحرب مرة أخرى مطلقًا. فكل الحلفاء سيكونون في شقاقٍ وخصومة.»

قال جوليان لاهثًا: «كيف اكتشفتِ ذلك؟»

«من أحد أصدقاء ألمانيا الكبار في إنجلترا. إنه يحتل مكانة مرموقة في السلك الدبلوماسي لـ... لدولة محايدة، لكنه يعمل لصالح ألمانيا منذ بداية الحرب. وكان يساعد في هذا. لقد رآني عدة مرات مع نيكولاس فين، ويعتقد أنني أعمل من خلف الكواليس أيضًا. ويعتقد أنني أعرف الحقيقة، وأنني أعمل لصالح ألمانيا. ويمكن التعويل على كلامه بكل تأكيد. إن كل كلمة أُخبركَ بها هي عين الحقيقة.»

تساءل جوليان لاهثًا: «ماذا عن فين؟»

فأجابته كاثرين: «لقد حصل نيكولاس فين على مائة ألف جنيه من أموال ألمانيا خلال الأشهر القليلة المنصرمة. إنه واحدٌ من أقذر الخونة على وجه هذه الأرض. كانت خطابات فرايشتنر الأولى موثوقًا فيها بما يكفي، لكنه مسجونٌ منذ ستة أسابيع في حصن ألماني، وفين على دراية بذلك.»

سألها جوليان: «هل لديكِ أيُّ دليل على ذلك؟» واستطرد: «تذكَّري أننا سنواجه المجلس، وهم مستعدون تمامًا للمعركة.»

أجابته قائلةً: «أجل، لديَّ دليلٌ غير مباشر لكنه يكفي للإدانة. لقد كان هذا الرجل في بعض الأحيان يرسل رسائلَ ويتسلمها نيابةً عني من معارفَ لي في ألمانيا. وقد سلَّمني الليلةَ رسالةً من قريب لي من بعيد. أنت تعرفه باسم الجنرال جيرولدبرج. أول صفحتين من الرسالة يتعلقان بأمورٍ شخصية.» ثم أضافت وهي تُعطي جوليان الرسالة: «اقرأ ما يقول قرب نهايتها.»

أضاء جوليان المصباح وقرأ بضعة أسطر أشارت إليها.

بالمناسبة يا ابنة عمي العزيزة، لا يُصيبنَّك القلق إذا ما تلقيت أخبارًا صادمة في غضون الأسابيع القليلة القادمة عن موافقة الثلاثة الكبار لدينا على سلامٍ عَبَثي. لقد أُخِذَت توقيعاتهم على وثيقة لا نأخذها على محمل الجِد، وفي نيتهم أن يتَنصَّلوا من تلك التوقيعات بمجرد وقوع حدث نتطلع إليه كثيرًا. صدِّقيني، حين يحينُ وقت السلام، سيكون سلامًا مجيدًا لنا. سنحتفظ بما اكتسبناه بالسيف، وسنستعيد ما أُخِذ منا بالحيلة والخداع.

قالت كاثرين: «ذلك الرجل هو أحد المقرَّبين إلى القيصر. إنه أحد الرجال الاثنَي عشرَ الحديديِّين في ألمانيا. والآن سأخبرك باسم الرجل الذي أمضيتُ الليلة برفقته. إنه البارون هيلمان. صدِّقني، إنه يعرف بالأمر وقد أخبرني الحقيقة. كان هذا الخطابُ بحوزته على مدى أسبوعين، إذ أخبرني بصراحةٍ أنه كان يعتقد أن تسليمها سيُعرِّضني لخطرٍ جسيم. والليلةَ غيَّر رأيه.»

وقفَ جوليان واجمًا لبرهة، وكانت قبضتاه مُطبقتَين وعيناه تستعران غضبًا.

ألقت كاثرين بنفسها في كرسيٍّ وثير وفكَّت أزرار معطفها.

وقالت متأوِّهة: «أوه، أنا متعبة!» وأضافت: «أعطني بعضَ الماء من فضلك أو بعضَ النبيذ.»

وجدَ جوليان شيئًا من نبيذ الهوك في نضد المائدة، وبعد أن شربته جلسا في صمتٍ مضطرب بضعَ دقائق. كانت أصوات الشارع في الخارج قد خفتَت. كانت شقة جوليان هي الشقة الأعلى في البناية، وكانا في عُزلة تامة. وفجأةً أدركَ جوليان الموقف.

فقال مقترحًا في عودة مضحكة للمألوف: «ربما عليَّ أن أرتديَ ثيابي أولًا.»

نظرَت إليه وكأنها ترى لباسه غيرَ المناسب لأول مرة. وللحظةٍ بدا كلاهما وقد عادت أقدامهما تطأ أرض الواقع مرة أخرى.

فقالت كاثرين: «أعتقد أنني أبدو في نظرك مجنونةً لكي آتيَ إلى هنا في مثل هذه الساعة. لكنَّ المرء بطريقةٍ ما لا يُفكِّر في تلك الأمور.»

وافقها الرأي قائلًا: «أنت محقة تمامًا. فليس لها أي أهمية.»

ثم فجأةً اجتاحهما إدراكٌ للصمت الذي كانا فيه، ووجودهما بمفرديهما، وعلاقتهما الغريبة الغامضة بعضهما ببعض. وللحظة شعرت كاثرين أن ذلك العبء الكبير الذي كانت تحمله قد سقط عن كاهلها. عادت إلى عالمٍ أبسط. لم يَعُد جوليان قائدًا للعامة، لم يعد عالِم الاجتماع اللامعَ ذاك، ولا رسولَ عقيدتها. بل كان ذلك الرجل الذي استحوذ على أفكارها إلى حدٍّ مثير للدهشة خلال الأسابيع القليلة الماضية، ذلك الرجل الذي هُرِعت إليه طالبةً مساعدته وحمايته، الذي كانت مقتنعة تمامًا بأن تعهد إليه بمهمة إصلاح ذلك الخطأ الفادح. راحت كاثرين تنظر إليه، وشعرت فجأة أنها قد سئمت كلَّ شيء، وأنها تريد أن تتسلل بعيدًا عن العاصفة وتستريح في مكانٍ ما. بدا لها أن الهدوء الذي يكتنفهما وحضوره يُهدئان من رَوعها. فاسترخت قسماتها المتوترة، وصارت عيناها أكثرَ رقة. وابتسمت إليه في امتنان.

صاحت قائلة: «أوه، لا يمكنني أن أصفَ لك كم أنا سعيدة لكوني معك الآن! إن كلَّ شيءٍ في العالم الخارجي يبدو مريعًا للغاية. أتُمانِع — أعرفُ أن هذا سخيفٌ للغاية، لكن في النهاية لا يمكن للمرأة أن تكون في مثلِ قوة الرجل، أليس كذلك؟ — أتمانع أن تُمسِكَ بيدي قليلًا وأن تظلَّ بجواري في هدوءٍ تام. لقد مررتُ بأمسية مريعة، وحين أتيتُ إليك، كنت أشعر كأن رأسي على وشك الانفجار. أنت لا تُمانع، صحيح؟»

ابتسم جوليان بينما كان يميل نحوها. كان يُراوده شعورٌ بالامتعاض، كان واعيًا به، ويخجل منه بقدرٍ ما، من ولائها الذي لا يتزعزع تجاه المهمة التي أوكلت نفسها بها، لكن هذا الامتعاض كان قد تلاشى في تلك اللحظة. أدركَ جوليان فجأةً لماذا قبَّلَها في ذلك الصباح المشمس عند الأهوار، في لحظة مبهمة من النشوة بدَت في هذه الأيام المفعمة بالإثارة وكأنها تنتمي إلى عالم آخر وإلى حياةٍ أخرى. أخذ جوليان كِلتا يدَيها في يديه ومال نحوها وقبَّل شفتَيها.

ثم قال: «عزيزتي كاثرين، أنا في غاية السعادة لأنكِ أتيتِ إليَّ. أظنُّ أننا نسينا في غضونِ تلك الأيام القليلة الماضية أن نكون بشرًا، وقد يُساعدنا ذلك؛ فنحن في النهاية مخطوبان، كما تعلمين!»

فهمسَت قائلة: «لكن تلك الخطبة كانت من أجل إنقاذي فقط.»

أقرَّ جوليان قائلًا: «ربما في بداية الأمر، لكنها الآن من أجل إنقاذي.»

كانت تنهيدة الارتياح والاطمئنان الخفيفة التي أطلقَتها وهي تنسلُّ مقتربة منه أنثويةً بامتياز. مرَّت اللحظات بينهما في صمتٍ هادئ ورائع. ثم ابتعدت كاثرين على غير رغبةٍ منها من بين ذراعيه الحاميتَين اللتين تُطوقانها.

وقالت: «عزيزي، أنت تبدو لطيفًا للغاية الآن، وأنا سعيدةٌ للغاية لكوني هنا، لكن أمامنا مهمَّة ضخمة.»

فقال وهو يعتدل في جلسته: «أنتِ محقَّة. انتظريني دقائقَ قليلة يا عزيزتي. سنجدهم جميعًا في ويستمنستر؛ سيكون المكان مفتوحًا طوالَ الليل. أغلقي عينيكِ واستريحي قليلًا فيما أنا غائب.»

أجابته بنبرة رقيقة: «أنا مستريحة، لكن لا تَغِب كثيرًا. السيارة في الخارج، وفي الطريق إلى هناك سأخبرك بالمزيد عن نيكولاس فين.»

الفصل الحادي والعشرون

لو أنَّ الستائر المسدلة بإحكامٍ على نوافذ بنايات ويستمنستر العديدة قد أُزيحَت في تلك الليلة وفي الصباح الباكر، لبَدا المكان كخليَّة نحلٍ تعجُّ بالحركة. كان ثمة عِشرون رجلًا يعملون بكدٍّ في عشرين غرفةً مختلفة. بعضهم كان يؤدِّي عمله في ارتياب، والبعض في رعب، والبعض الآخر في سرور وابتهاج، وواحد أو اثنان منهم في ندمٍ حقيقي واضح. تحت بنان أصابعهم كانت الأوامر الرسمية المطوَّلة، التي ستتبع قنبلة البرقيات التي جرى إعدادها بالفعل، بصدد إحداث شللٍ في المجالات الصناعية في إنجلترا في غضون بِضع ساعات، حيث ستبقى سفنها ساكنةً في موانيها، وستتوقف قطاراتها عن الحركة على قُضبانها، وستصمت مناجمها، وتبرد نيران مسابكها، وتخلو مصانعها من العمال. كان حتى أضيقهم أفقًا وخيالًا يشعر بالإثارة، وبرهبة العمل الذي يقوم به ومدى عِظَمه. كان الأمر، على الورق وفي مخيلاتهم، يبدو رائعًا ومنطقيًّا للغاية وبَدت نتائجُه المرجوَّة منه أكيدة. والآن صارت هناك أفكارٌ أخرى تقتحم أذهانهم وتشق طريقها عنوة إلى السطح. كيف سيَذكُر التاريخُ أسماءهم؟ كيف سينظر الإنجليز في كل أنحاء العالم إلى هذا الفعل؟ أكانوا يتَّبعون الحقيقة فعلًا، أم سرابًا زائفًا ومدمِّرًا؟ ربما كانت هذه شكوكًا عابرة إلى زوال، لكنها تجلَّت لأكثرَ من شخص من أولئك الكادحين في منتصف الليل متنكرة في هيئة هاجسٍ داخلي كئيب يُثبِط العزائم.

سمعَ الجميعُ سيارة تتوقَّف بالخارج. لكن لم يرَ أيٌّ منهم أن الأمر يستحق التوقف عن عمله بما يكفي لكي ينظر إلى الخارج ويرى مَن يكون زائرُ الليل ذاك. ولكن في غضون وقتٍ قصير للغاية، توقَّفت أعمالهم. كان جوليان ومعه كاثرين والأسقف — الذي كانا قد عرَّجا عليه في طريقهما — يتنقلون من حجرةٍ إلى أخرى ويُرددون رسالة قصيرة.

لم يُثِر أيٌّ منهم مشكلةً في الذَّهاب إلى قاعة اجتماعات المجلس. وكان أول احتجاج واجهوه صادرًا من آخِر حجرة دخلوها، وقد تعمَّدوا تركها حتى النهاية. كان يبدو أن نيكولاس فين قد انتهى من عمله أو قطعه. فقد كان جالسًا أمام مكتبه وذقنه يستندُ على ذراعيه المعقودتين، وبين شفتَيه سيجارة. أما برايت فكان جالسًا في تكاسلٍ في كرسي وثير على بُعد بِضع أقدام منه. كان رأساهما قريبَين بعضهما من بعض، وكان الحديث الدائرُ بينهما، أيًّا كان موضوعه، يُدار هَمسًا. كان يبدو أنهما لم يسمعَا طَرق جوليان على الباب؛ إذ ابتعدا بعضهما عن بعض في إجفال وكأنهما متآمِران حين فُتِح الباب. وانقسمت تعابيرُ وجه فين بين الخوف والخُبث بينما كان يُحدِّق فيهم.

تساءَل قائلًا: «ماذا تفعلون هنا؟» واستطردَ: «ما الخَطْب؟»

أغلقَ جوليان الباب.

وأجاب باقتضاب: «هناك خَطب جلل. لقد عرَّجْنا على كل فرد من المفوَّضين وطلبنا منهم التجمع في قاعة اجتماعات المجلس. فهَلا تأتي أنت وبرايت إلى هناك في الحال؟»

تنقَّل فين ببصره بين زائريه وظلَّ صامتًا لبضع ثوانٍ.

وتساءل في خبث: «ستتنحَّى، أليس كذلك؟»

قال جوليان: «لدينا بعضُ المعلومات نريد إخطاركم بها.»

تحرَّك فين فجأةً مبتعدًا عن ظل المصباح الكهربائي الذي كان يتدلى على المكتب. وكان صوتُه مضطربًا وعلى غير طبيعته.

وقال بنبرة فظَّة صارمة: «لا يمكننا النظر في أي معلوماتٍ أخرى. لقد اتخذنا قراراتِنا. لا شيءَ يمكن أن يؤثِّر فيها. هذا أسوأ شيءٍ يحدث حين يكون هناك غرباء في مجلسنا. كنت واثقًا من أنكم لن تُواجهوا الأمر حين تأتي اللحظة الحاسمة.»

قال جوليان: «بما أنكَ معنيٌّ بصورة شخصية في هذا الأمر، فأعتقدُ أنه سيكون من الأفضل لو جئتَ مع الباقين.»

قال فين معلنًا في إصرار: «لن أبرحَ هذه الغرفة. لديَّ عملٌ أقوم به. أما فيما يتعلق بكوني معنيًّا بما ستقول، فسأكون شاكرًا لك إن لم تتدخل فيما لا يَعنيك وتركتني وشأني.»

تدخَّل الأسقفُ في الحديث قائلًا: «أود أن أُقدِّم لك نصيحتي يا سيد فين بأن تنضمَّ إلينا في الحال في قاعة اجتماعات المجلس.»

كان جوليان وكاثرين قد غادرا الغرفةَ بالفعل. ومالَ فين إلى الأمام، وكانت نبرة صوته متغيِّرة.

إذ تساءل بصوتٍ أجشَّ: «ما معنى ذلك أيها الأسقف؟» وأضافَ: «هل يريد هذان الاثنان التراجع؟»

أجابه الأسقف: «ينبغي أن نقول ما جئنا لنقوله أمام الجميع.»

ثم انصرف. وتبادل فين وبرايت نظراتٍ سريعة.

سأله فين: «ماذا تفهم من ذلك؟»

غمغم برايت: «لقد غيَّرا رأيهما، هذا كل ما في الأمر. إنهما مُنظِّران. تبًّا للمنظِّرين جميعًا! إنهم يُطلقون فقاعاتٍ من أجل فرقعتها ليس إلا. أما عن الفتاة، فقد أمضت الليل كلَّه في الحفلات، كما نعرف.»

أقرَّ فين قائلًا: «أنت محق. كنتُ أحمق. هيا بنا.»

كان الكثيرُ من المفوَّضين يبدون سعداءَ بالهروب ولو لدقائق قليلة من مهامهم. فقد دخل واحد أو اثنان منهم الحجرة بكوب من القهوة أو مشروب الشوكولاتة. وكان معظمهم يُدخن. أما فين وبرايت فكانا آخر من دخل الغرفة. وعبثًا حاول الأخير إطلاقَ تعليق مرِح.

فتساءل قائلًا: «أهذه استراحة من أجل تناول المرطبات؟» وأردفَ: «إذا كان الأمر كذلك، فأنا معكم.»

أوصد جوليان الباب حيث كان يقفُ بالقرب منه منتظرًا. وذُهِل فين لذلك.

وقال متسائلًا: «لماذا فعلتَ ذلك بحق الجحيم؟»

«مجرد إجراءٍ احترازي. لا نريد أن يُقاطعنا أحد.»

اتجه جوليان نحوَ مساحة شاغرة صغيرة عند نهاية الطاولة ووقفَ هناك، ووضع يدَيه على ظهر أحد الكراسي. وظلَّ الأسقف بجواره مُسبل العينين وكأنه يُصلي. أما كاثرين، فجلست على الكرسي الذي دفعه كروس باتجاهها. هنا خيَّم على الغرفة جوٌّ من التوتر، بعد أن كان في بادئ الأمر يُخيم عليه الترقب ليس إلا.

استهلَّ جوليان حديثه قائلًا: «أصدقائي، قبل بضع ساعات اتَّخذتم قرارًا بالغَ الأهمية. وأنتم جميعًا الآن تعملون من أجل تنفيذه. وقد أتيتُ للقائكم؛ لأنني أخشى كثيرًا أننا وقعنا ضحايا لتقاريرَ زائفة ومؤامرة شائنة.»

قال فين ساخرًا: «هُراء!» وأضافَ: «أنت تريد التراجع، هذه حقيقتك.»

ردَّ جوليان في صرامة: «من الأفضل لك أن تشكر العناية الإلهية أنَّ هناك وقتًا كافيًا لك لتتراجعَ أنت أيضًا، هذا إن كنتَ تكترث مثقال ذرة لأمرِ وطنك. والآن يا سيد فين، سأطرح عليك سؤالًا. لقد وجَّهتَنا هذا المساء إلى الاعتقاد بأنك كنت على تواصل مستمرٍّ مع

فرايشتنر، رغم أن كل الخطابات بينكما قد جرى التخلص منها. فمتى تواصلتَ معه آخرَ مرة، أقصِدُ على الصعيد الشخصي؟»

أجابَ فين في جُرأة: «الأسبوع الماضي، والأسبوع قبل الماضي.»

«وقد تخلَّصت من تلك الخطابات؟»

«بالطبع فعلت! فلم أحتفظ بشيءٍ سيتسبَّب في إعدامي؟»

«إذن لا يمكنك أن تُقدِّم لنا أيَّ خطابات من فرايشتنر، عدا مقترحات السلام التي كُتِبت في غضون ... لنقل الشهر المنصرم؟»

تساءل فين في انفعالٍ شديد: «ما الذي ترمي إليه بحق السماء؟» وأضافَ: «وبأي حقٍّ تقف هكذا وتستجوبني؟»

قال جوليان بنبرةٍ جادة صارمة: «بحق أنني مستعدٌّ لأن أنعتَك في وجهك بالكاذب. لدينا معلوماتٌ مؤكَّدة تمامًا أن فرايشتنر مسجون الآن في حِصن ألماني وسيُعدَم رميًا بالرصاص قبل انقضاء هذا الأسبوع.»

سرَت همهماتُ ذعر، بل عدم تصديق. كان فين نفسه واجمًا. وتابعَ جوليان حديثه في حماسة.

«أصدقائي، على الورق ومن الوقائع التي قُدِّمت إلينا، يبدو أننا اتخذنا القرارَ السليم، لكن كان ينبغي لنا أن نضعَ في اعتبارنا ما يلي. إن كلمة ألمانيا وتوقيعاتها وشرَفها لا يعني الكثير حين يتعارضُ ذلك مع مصالحها. إن ألمانيا، على الرغم من كل نجاحاتها، تتعطَّش إلى السلام. وستُشكِّل هذه الهدنة الخلاصَ بالنسبة إليها. وقد بادرت للحصول عليها، لكن ليس على نحوٍ نزيه كما جعَلونا نعتقد، بل عن طريق مؤامرة خبيثة. لقد زعمَت ألمانيا أنها انبهرت برغبات مجلس نوابها في إحلال السلام. وزعَم أعضاء رابطة عموم الألمان رغبتهم في الانصياع إلى الاشتراكيِّين. وكلُّ تلك المزاعم كاذبة! لقد شجَّعوا فرايشتنر على مواصلة مفاوضاته مع فين. وكان فرايشتنر أمينًا بما يكفي. لكنني لست واثقًا بشأن فين.»

هبَّ فين واقفًا وانطلقت من بين شفتَيه صيحةُ سباب. فوقفَ جوليان في مواجهته في ثبات. وفي تلك اللحظة صار جوُّ الغرفة محتدمًا.

وتابعَ جوليان حديثه قائلًا: «سأُنهي ما أريد قوله. أعرفُ أن الجميع هنا يريدون مني ذلك. نحن جميعًا هنا لنبحثَ عن الحقيقة ولا شيءَ سواها، وبفضل الآنسة آبواي، عثرنا عليها بمحض المصادفة. إنَّ مقترحات السلام تلك، التي تبدو جيدةً للغاية على الورق، ما هي إلا شَرَك. لقد قُدِّمت لكي تُنقَض. وقد أُضيفَت تلك التوقيعات ليتمَّ التنصلُ منها. أقول

إن فرايشتنر مسجونٌ منذ بضعة أسابيع، وأنكرُ أن فين تسلَّم خطابًا واحدًا منه خلال تلك المدة. بينما يؤكِّد فين أنه تلقى خطاباتٍ منه لكنه تخلَّص منها. وأُكرِّر أنه كاذب.»

قال كروس: «هذا كلامٌ واضح وصريح. والآن يا فين، ماذا لديك لتقولَ حيال ذلك أيها الفتى؟»

اتَّكأ فين إلى الأمام، والتوت قسماتُ وجهه بتعبيرٍ ربما كان غَضبًا، لكنه كان أقربَ كثيرًا إلى الخوف.

ثم صاحَ قائلًا: «هذا ليس إلا جزءًا من تراجعه!» وأردف: «أنا لا أحتفظُ أبدًا بأي مراسلاتٍ من فرايشتنر. وقد أخبرتُكم بذلك من قبل. أما الخطابات الأولى التي تلقَّيتها منه، فقد عرضتُها عليكم، وتداوَلناها معًا. ومنذ ذلك الحين، وكلُّ ما تسلَّمت منه من خطاباتٍ كانت وُدِّية وقد تخلصتُ منها.»

سرَت همهمةُ تشكيك. وتابعَ جوليان حديثه.

وقال: «أترون، السيد فين غير قادر على تبرئة ساحته من أول اتهام أُوجهه له. والآن لنسمع ما لديه بشأنِ هذا الاتهام التالي. أظنُّ أن السيد فين بدأ حياته مدرِّسًا في مدرسة أبرشية، وهي وظيفة رائعة وجديرةٌ بالاحترام. ومِن ثَمَّ أصبح مديرًا لشركة من شركات تجار الخشب في المدينة، وشرَعَ في اهتمامه بالحركات العُمالية. ثم صعدَ بفضل المهنة وجدارته إلى وضعه الحالي؛ مسيرةٌ مِهنية ممتازة، لكنني لا أظن أنها مجزية كثيرًا. هل يمكن أن نقول إنه يتقاضى الآن راتبًا يصل إلى عشرة جنيهات في الأسبوع؟»

صاحَ الرجل المُستفَزُّ قائلًا: «ما شأنك بهذا بحق الجحيم؟»

ردَّ جوليان: «شأني وشأننا جميعًا؛ لأنني سأطرح الآن سؤالًا بعينه. هلا تُطلِعنا على دفتر حسابك البنكي؟»

تمايلَ فين في كرسيه لحظة. وتظاهرَ بأنه لم يسمع السؤال.

وتلعثمَ قائلًا: «أُطلِعكم على ماذا؟»

كرَّر جوليان في هدوء: «دفتر حسابك البنكي. بما أنك لم تتسلَّم آخر دفعةٍ لك من ألمانيا إلا هذا الأسبوع، فعلى الأرجح أنك لم تحظَ بعدُ بالوقت لكي تشتريَ الأسهم والسندات أو العقارات حيثما تقودك ميولُك. ولذا فإنني أظن أننا سنجدُ فيه رصيدًا يُقدَّر بنحوِ ثلاثين ألف جنيه، وهي آخِر دفعة سدَّدها لك عميلٌ ألماني هنا في لندن.»

هبَّ فين واقفًا. كان مظهرُه مظهرَ رجل على وشك أن يُدافع عن نفسه دفاعًا قويًّا مفصَّلًا. ثم فجأةً ترنَّح وصار وجهه بشعًا إلى حدٍّ لا يُطاق معه النظر إليه والتوت شفتاه.

وصاحَ قائلًا: «براندي! ليحضر لي أحدكم البراندي! أشعر بتوعُّك!»

ثم سقطَ فجأةً على الأرض. فحملوه إلى مقعد كان موضوعًا قبالة الحائط، ومالت كاثرين فوقه. كان الرجل ممددًا يتأوَّه. فأرخَوا ياقة قميصه وراحوا يصبُّون له مُنبهاتٍ من بين أسنانه ليستفيق. وظلَّ صامتًا لبعض الوقت. ثم بدأ يتأوَّه مرة أخرى. فعادَ جوليان إلى الطاولة.

وقال في جديةٍ وصرامة: «صدِّقوني، هذا الأمر يُمثِّل فاجعةً لي؛ شأني شأن كل فرد هنا. أعتقدُ أنكم جميعًا عدا ...» ثم التفتَ نحو الأريكة وأضافَ: «عدا أولئك الذين لن نذكر أسماءهم، مضَيتم في هذا الأمر بصدق ونزاهة، كما فعلتُ أنا. علينا ألَّا نكترث له. مزِّقوا برقياتكم. ولتأذنوا لي بالذَّهاب للقاء ستينسون في الحال. إنني أرى حقيقة هذا الأمر الآن كما لم أرَها من قبل. لا سلامَ لنا مع ألمانيا حتى تركع، حتى نسلبها كلَّ قوتها؛ حتى لا تتمكنَ من التسبُّب في المزيد من الأذى. وحين تأتي تلك اللحظة، لنكن كُرماء. لنتذكَّر أن عمالها من لحمٍ ودمٍ كعُمالنا، وأنهم في حاجة إلى الحياة كما أنتم في حاجة إليها. لنحرص على أن نترك لهم من السُّبُل ما يُعينهم على العيش. لنلتمس الرحمة لهم جميعًا، الرحمة لهم، وكل الإمكانيات اللازمة لحياة حرة كريمة. وليذهب إلى الجحيم كلُّ مَن كان مسئولًا عن السم الذي تسلَّل في كل أوساط ألمانيا، والذي أفسدَ أولًا الطبقة الأرستقراطية المتغطرسة، بدايةً من القيصر وأصدقائه، ثم الطبقة المتوسطة المكافحة الكادحة، بل تغلغل بدرجةٍ ما إلى أوساط العامة أنفسِهم، الذين حكمَ عليهم حاكمهم السيئُ السمعةِ بأن يحملوا على كواهلهم عبءَ طموحٍ بشع وآثم وغير سوي. لديَّ الكثير لقوله، لكنني أظنُّ أني قلت ما يكفي. لا بد أن تنكسر شوكة ألمانيا، ويمكنكم تحقيقُ ذلك. ولتكن ذِكرى تلك البرقيات التي لم تُرسَل مصدرَ عون لكم. أمضوا وقتكم بين أولئك الذين تُمثلونهم. أظهِروا لهم الحقيقة. اشرحوا لهم أنَّ كل عبءٍ يحملونه، في كل مرة يقبضون فيها على معاولهم، وفي كل طرقةٍ يطرقونها في عملهم اليومي، هو مصدر نفع وعون. كنت سأتحدَّث عما نَدين به للموتى. لكنني لن أفعل. لا بد أن نهزم ألمانيا ونجعلَها تركع. يمكننا أن نفعل ذلك وسنفعله. بعدها سوف يأتي وقتُ الجُود والصفح.»

ضربَ فينياس كروس الطاولةَ بباطن يده.

وقال: «أيها الرجال، أشعر بالعرق يتصبَّب من كل مسام جسدي. كنا قابَ قوسين أو أدنى من ارتكاب شيءٍ مريع. نحن معك يا سيد أوردين. لكن ماذا عن ذلك البغيضِ القابع هناك؟ كيف اكتشفتَ أمره؟»

أجابه جوليان: «عن طريق الآنسة آبواي. هي مَن تستحق الشكر. وأؤكِّد لكم أنَّ كل اتهامٍ وجَّهتُه يمكن إثباته بالدليل.»

سرَت همهمةُ ثقة خافتة فيما قال. وبدا عسيرًا على الجميع التعبيرُ بالكلمات المناسبة.

مضى جوليان يقول: «كلمة أخيرة. لا تحلُّوا هذا المجلس. أبقوا عليه كما هو. أبقوا على هذا المبنى. أبقوا على اتحادنا وكرِّسوه لغايةٍ واحدة؛ النصر.»

جاءه الرد في هيئة موجة صاخبة من التصفيق. والتفتَ كروس مرة أخرى نحو ذلك الرجل الممدَّد على الأريكة.

فأوعزَ إليهم جوليان قائلًا: «لا يتدخَّلَن أحد. هناك قانون سوف يتولَّى أمره. سيتم إبعاده عن هذا المكان في الوقت الراهن، ولن يسمع عنه أحدٌ مجددًا لبعض الوقت. لا نريدُ أن يعرف أحدٌ كم كنا على مقربة من الوقوع في فخِّ الخداع. ويقع على عاتق كل واحد منكم مهمةُ إتلاف كل آثارِ ما قد يكون قد حدث. يمكنكم فعلُ ذلك إذا ما أردتم. وغدًا اعقدوا مجلسكم. وعيِّنوا رئيسًا دائمًا لكم وسكرتيرًا جديدًا، واستخلصوا منهجًا للعمل يهدف إلى تعزيز زيادة الإنتاج، وبثِّ رغبة حماسية متَّقدة في تحقيق النصر في كل مجال من المجالات. وإن كنتم في حاجةٍ إلى مساعدتي من خلال الحديث أو الكتابة أو بأي طريقة أخرى، فهي لكم. سأكون أحدَ أنصار قضيتكم طَوعًا. لكن اسمحوا لي أن أكون سفيرَكم هذا الصباح. دعوني أذهبُ إلى رئيس الوزراء برسالة منكم. دعوني أُخبره بما قررتموه.»

صاحَ كروس: «مَن يوافق على ذلك فليرفع يده!»

رفعَ الجميعُ يدَه. وعاد برايت من عند الأريكة وكان يرمش بعينه من تحت نظارته السميكة، لكنه كان خانعًا مُذعِنًا.

قال الأسقف ملتمسًا: «لنحمل ذِكرى هذه الساعة كشيءٍ مهيب في حياتنا. سيُثبِت مجلسُ العُمال نفسه، وسينقل صوتَ الشعب وإرادته، ويحارب من أجل النصر.»

ردَّد جوليان بصوت مدوٍّ: «من أجل السلام الذي يتأتَّى من النصر!»

الفصل الثاني والعشرون

بعد مرور بضعة أسابيع، كان الأسقفُّ وكاثرين يسيران جنبًا إلى جنب على رصيف محطة سانت بانكراس المعتِم. كان القطار الذي جاءا لاستقباله متأخرًا عن موعده رُبع ساعة، فوجدا نفسَيهما يخوضان في حديثٍ حافل بالذكريات لم يخلُ من التشويق لكليهما.

قال الأسقفُّ: «لقد تركتُ السيد ستينسون قبل ساعة واحدة. لم يكن يتحدَّث عن شيء إلا عن جوليان أوردين وخُطبِه الرائعة. يقولون إنَّ روح الحماس في شيفيلد ونيو كاسل كانت هائلة، وإنَّ العمل الفعلي الذي أُنجِزَ في ثلاث ساحاتٍ لبناء السفن على نهر كلايد في الأسبوع التالي لزيارته كان مضاعَفًا. يبدو أنه يتمتع بموهبة استثنائية في الوصول إلى قلوب الناس. إنه يجعلهم يستشعرون كلماته.»

قالت كاثرين لرفيقها بابتسامةٍ صغيرة: «أرسلَ لي السيدُ ستينسون بشأن ذلك. قال إنه لا يوجد لقبٌ رفيع يمكن التفكيرُ فيه أو استحداثه يُوفِّي جوليان حقَّه؛ لما قدَّمه من خدماتٍ جليلة لبلاده. فللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب، يبدو العمال جادِّين ومخلصين في أعمالهم إلى أقصى الحدود. لقد عادَ كلُّ فرد من أولئك المفوَّضين مفعمًا بالحماس، وسيقوم جوليان بجولةٍ صغيرة مع كل واحد منهم في منطقته قبل أن ينتهي.»

قال الأسقفُّ مبتسمًا: «وبعد غدٍ أعتقدُ أنه لن يكون وحيدًا.»

ضغطَت كاثرين على ذراعه.

وقالت في هدوء: «إنَّ مجرد التفكير في الأمر رائعٌ للغاية. سأحاول أن أكون، وسأكون بالفعل، سكرتيرةً لجوليان، بينما نحن بعيدان على أيِّ حال.»

قال الأسقف: «لا تُتاح لي كثيرًا فرصة خوض حديث هادئ مع المرأة التي سأُزوِّجها لأكثرِ رجل أحترمه وأُجلُّه على وجه الأرض في اليوم السابق لزفافها.»

فقالت كاثرين في رجاء: «أَسدِ لي نصيحة مفيدة.»

هزَّ الأسقفُّ رأسَه.

وقال: «لستِ بحاجة إليها. فالزوجة التي تُحب زوجها لا تكون بحاجة إلى الكثير من النصح. ثَمة زيجاتٌ كثيرة جدًّا يمكنني أن أرى فيها العَثرات التي تنتظر طرَفَيها، حتى إنني أفتح كتابَ الصلوات برعشة خوف طفيفة تسري في أوصالي. لكن الأمر مختلف معكِ أنتِ وجوليان.»

قالت بنبرة رقيقة: «لن أدعَ في جهدي شيئًا يمكن لامرأة أن تفعله من أجل الرجل الذي تُحبه دون أن أفعله لجوليان.»

ثم راحا يَذْرعان الرصيف جيئةً وذهابًا في صمت لبضع دقائق. كانت خطوة الأسقف نشطة. فقد بدا أنه تخلَّص من كل ذلك القلق المنهِك الذي ناءَ بحمله خلال الأشهر القليلة الماضية. وكانت كاثرين أيضًا، في فِرائها الرمادي الجذاب وبوجهها المتورِّد من الإثارة، تبدو وكأنها تخلَّصَت من كل قلقها.

علَّق الأسقفُّ قائلًا: «لا بد أن موهبة جوليان في الخَطابة قد فاجأته هو نفسه. بالطبع كنا نعرف دائمًا أن «بول فيسك»، حين اكتُشِفَ أمره، لا بد أن يكون شخصية ذكية، لكنني لا أظن أن جوليان نفسَه كان يُدرك قدراته الخطابية بأي حال.»

قالت كاثرين موافقةً إياه: «لا أظنُّ ذلك أيضًا. فقد أخبرني أنَّ الأمر في خطابه الأول كان يُشبه تمامًا الجلوسَ إلى مكتبه من أجل الكتابة، إلا أن الحواجز المادية الثقيلةَ من الورق والحبر والحوائط بدَت وكأنها تتلاشى، والرجال الذين كان يرغب في أن تَمسَّهم كلماتُه كانوا أمامه ينتظرونه. إنَّ جوليان رائعٌ بالطبع، لكن فينياس كروس وديفيد ساندز وبعض الآخرين أظهَروا عبقريةً إيجابية في التنظيم. يبدو أن ذلك المجلس الذي يجمع عمومًا بين الاشتراكية والنقابية المهنية والعُمَّال، والذي تشكَّل لكي يجلب لنا سلامًا مبتسَرًا سابقًا لأوانه، قد جمعَ كلَّ العمال الكادحين في حزبٍ واحد للمرة الأولى، وأقصدُ الكادحين بأشملِ معنًى لها.»

قال الأسقفُّ: «حقيقة الأمر أنَّ الشعب قد تقبَّل القولَ الدارج عن وجوب وجود حكومة هناك بغضِّ النظر عن شكل الجمهورية الذي نستهدفه. ومجموعة من الرجال يُدركون هذا الأمر، مهما كانت أفكارهم تقدُّمية، فلا يمكن أن يتسبَّبوا في كثير من الضرر. وأنا واثق تمامًا — وستينسون نفسه يُقرُّ بذلك — أنه لن يمرَّ وقتٌ طويل قبل أن يصبح لدينا وزارة للعُمَّال. لكن مَن يهتم؟ ستكون تلك الوزارة صالحةً على الأرجح، صالحة للبلاد

وصالحة للعالَم. لقد كان هناك الكثيرُ من التلاعب والاحتيال في السياسة العالمية. وهذه الحربُ ستُنهي ذلك إلى الأبد.» ثم أردفَ بنبرةٍ مغايرة: «بالمناسبة، ثَمة سؤال دائمًا ما كان يتردَّد في ذهني، أودُّ أن أطرحه عليكِ. إذا ما طرحتُه الآن، فهل ستتفهَّمِين أن بإمكانِكِ ألا تُجيبي عنه إن رأيتِ أنَّ ذلك هو الأفضل؟»

أجابته كاثرين: «بالطبع.»

«مِن أي مصدر حصلتِ على المعلومات التي أنقذَتنا جميعًا؟»

أجابت كاثرين في هدوء: «أتتني من رجل ميِّت.»

ثبَّت الأسقفُّ عينيه على صف الإشارات الضوئية أمامه.

وقال: «قبل بضعة أسابيع، عُثِرَ على شابٍّ أجنبي يُدعَى البارون هيلمان، أظن أنه شخصية بارزة، مقتولًا بالرصاص في شقته.»

أذعنت كاثرين في صمت.

وأسرَّت إليه قائلة: «لو ذهبتُ إلى وزارة الداخلية واستطعتُ إقناعهم بأن يُحدِّثوك بصراحة، فأعتقدُ أنك كنت ستتمكَّن من معرفة بعض الأشياء المذهلة. أتمنى لو بإمكاني أن أصدِّق أن البارون كان الشخصَ الوحيد الذي يعيش في هذه البلاد، بلا أي شبهاتٍ حوله، ويحتلُّ مكانة مرموقة فيها، بينما هو في الواقع يعمل لصالح ألمانيا.»

قال الأسقفُّ في تمعُّن: «كانت مؤامرةً خبيثة للغاية؛ لأنها بدَت، بطريقة ما، حقيقيةً تمامًا. لقد انطلَت على حَدْس حتى أفضل رجالنا ذَوي العقل الراجح.»

قالت كاثرين مذكِّرةً إياه: «رُبَّ ضارةٍ نافعة على أي حال. فبناياتُ ويستمنستر صارت الآن هي مركزَ الوطنية في إنجلترا. كان من المفترض أن يضع حزبُ العمال نهايةً للحرب لصالح ألمانيا. أما الآن فحزب العمال هو من سيُحرز النصر لصالح إنجلترا.»

دخَل القطار متهاديًا إلى المحطة وسرعان ما أفرغ حشدَ الركَّاب الذي يحمله على متنه، وكان جوليان أولَ المترجِّلين منه. وجدت كاثرين نفسها ترتعش. وحين التقت أعينهما تلاشت من شفتيها كلماتُ الترحيب الخجولة التي تشكَّلت في ذهنها. فرفعت وجهَها في وجهه.

وتمتمت قائلة: «جوليان، أنا فخورة بك للغاية ... بل أنا في غاية السعادة.»

وتركهما الأسقفُّ عندما دلفا إلى السيارة الأجرة.

وقال موضحًا: «سأذهبُ إلى قاعةٍ للأعمال التبشيرية في الجوار. فنحن نُدير حواراتٍ بشأن الحرب كلَّ أسبوع. أحاول أن أخبرهم بكيفية سير الأمور، ونُقيم قداسًا قصيرًا.

لكن قبل أن أذهب، لقد أرسلَ لك السيد ستينسون رسالةً صغيرة معي يا جوليان. إذا ما ذهبت إلى ناديك في وقتٍ لاحق الليلة، فستراها في البرقيات أو ستجدها في جريدتك في الصباح. لقد دار قتالٌ محموم في فلاندرز اليوم. واخترقت صفوفُ الألمان في أكثرَ من اثنتَي عشرة نقطة. وأسرنا نحو عشرين ألف أسير، وزيبروج أصبحَت مُهدَّدة. وفي الجنوب، بدأ الأمريكان الحرب وأحرزوا نصرًا تامًّا على قوات النخبة التابعة لولي العَهد.»

شدَّ الرجلان كلٌّ منهما على يدَي الآخر في حرارة.

وصرَّح جوليان قائلًا: «هذا هو السبيلُ الوحيد إلى السلام.»

هنـــداوي